

# حياة القلوب

تفسير كلام علام الغيوب



الجزء الخامس



تأليف

أبي عمرو سعيد بن مصطفى دياب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ



## مقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ، فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا

رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾<sup>٢</sup>.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا \* يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾<sup>٣</sup>.

وبعد فهذا هو الجزء الخامس من كتاب: (حياة القلوب تفسير كلام علام الغيوب)، أسأل الله

أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يتقبله بفضله ومنه وكرمه.

والحمد لله أولاً وأخيراً، وصلى الله وسلم على عبد ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تسليماً كثيراً.

وكتبه: سعيد مصطفى دياب

الدوحة في: ٢٨ رجب ١٤٤١ هـ

الموافق: ٢٣ مارس ٢٠٢٠ م

١ - سورة آل عمران: الآية/ ١٠٢

٢ - سورة النساء: الآية/ ١

٣ - سورة الأحزاب: الآية/ ٧٠، ٧١



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سورة النساء: الآية / ٢٤

الإحصان لغة المنع والحفظ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾. [الأنبياء: ٨٠]، معناه: لتمنعكم من بأسكم.

والحصن: الموضع الحصين لأنه يمنع من أراد أهله بسوء، والحصان بالفتح المرأة العفيفة لحفظها فرجها من الريبة والحرام؛ قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾<sup>١</sup>.  
ويطلق الإحصان في القرآن ويراد به أربعة معانٍ:

يطلق ويراد به الزواج؛ كما في هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾، فالْمُحْصَنَاتُ هُنَا الْمُرُوجَاتُ؛ يقال: امرأة مُحْصَنَةٌ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ زَوْجٍ.

ويطلق ويراد به الإسلام؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصِنْتُمْ﴾. [النساء: ٢٥] يعني: إِذَا أَسْلَمْتُمْ، رُوي ذَلِكَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَأَنْسِ، وَغَيْرِهِمْ.

ويطلق ويراد به الحرية؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾. [النساء: ٢٥]، أي: الحرائر.

ويطلق ويراد به العفة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. [الأنبياء: ٩١]، أي: أَعْفَتَتْهُ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾. [النور: ٤]، يعني: العفيفات.

١ - سورة التَّحْرِيمِ: الآية / ١٢



وهذه المعاني الأربعة تدور على المعنى اللغوي، وهو المنع، فالحرية تمنع الإنسان من أن يكون تحت حكم غيره، والعفة تمنع الإنسان مما لا ينبغي، والإسلام يمنع من الشرك والمحرمات، والزواج يمنع من الوقوع في الرّثا.

### سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالوَاحِدِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، قَالَ: "أَصَبْنَا سَبَايَا يَوْمِ أُوطَاسٍ هُنَّ أَزْوَاجٌ فِي قَوْمِهِنَّ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾".<sup>١</sup>

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ...﴾، عَطَفَ عَلَى الْمَحْرَمَاتِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ...﴾، وَالْمَعْنَى: وَحُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمُحْصَنَاتُ، وَالْمُرَادُ بِالْمُحْصَنَاتِ هُنَا: الْأَجْنَبِيَّاتُ ذَوَاتُ الْأَزْوَاجِ، فَلَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ نِكَاحُهُنَّ مَا دُمْنَ فِي عِصْمَةِ أَزْوَاجِهِنَّ.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

يَعْنِي: إِلَّا مَا مَلَكَتُمُوهُنَّ بِالسَّبْيِ، فَإِنَّهُ يَحِلُّ لَكُمْ نِكَاحُهُنَّ، وَمِلْكُ الْيَمِينِ: السَّبَايَا اللَّوَاتِي فَرَّقَ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ أَزْوَاجِهِنَّ السَّبْيِ، وَأَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا سَبِيَ أَحَدُ الرُّوَجَيْنِ قَبْلَ الْآخَرِ وَأُخْرِجَ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ وَقَعَتِ الْفُرْقَةُ بَيْنَهُمَا.

وَيَحِلُّ لِمَنْ مَلَكَهَا أَنْ يَسْتَبْرِئَهَا بِوَضْعِ الْحَمْلِ إِنْ كَانَتْ حَامِلًا، أَوْ بِالْحَيْضِ.

﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

يَحْتَمِلُ أَمْرَيْنِ الْأَوَّلُ: أَنَّهُ مَصْدَرٌ مُؤَكَّدٌ، أَي: هَذَا التَّحْرِيمُ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كِتَابًا.

الثَّانِي: أَنْ يَكُونَ: ﴿عَلَيْكُمْ﴾. اسْمٌ فِعْلٍ أَمْرٍ بِمَعْنَى: الزَّمُوا، وَيَكُونُ ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾، مَنْصُوبًا عَلَى الْإِعْرَاءِ. أَيِ الزَّمُوا كِتَابَ اللَّهِ، أَوْ عَلَيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ وَهُوَ قَوْلُ الْكِسَائِيِّ وَالزَّجَاجِ. وَفِيهِ

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١١٧٩٧، والترمذي - أبواب النكاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرجل يسبي الأمة ولها زوج هل يحل له أن يطأها، حديث رقم: ١١٣٢، بسند صحيح



نَظَرٌ؛ لِأَنَّ الْإِغْرَاءَ لَا يَجُوزُ فِيهِ تَقْدِيمُ الْمَنْصُوبِ عَلَى حَرْفِ الْإِغْرَاءِ، كَمَا قَالَ الطَّبْرِيُّ وَالْقُرْطُبِيُّ وَغَيْرُهُمَا، فَلَا يُقَالُ: أَحَاكَ عَلَيْكَ، أَوْ زَيْدًا دُونَكَ.

﴿وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾.

وَأَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ بِمَنْ سَمَى لَكُمْ تَحْرِيمَهُ مِنْ أَقَارِبِكُمْ.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: سَأَلْتُ عَطَاءً عَنْهَا، فَقَالَ: مَا وَرَاءَ ذَاتِ الْقَرَابَةِ.

﴿أَنْ تَبْنَعُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾.

أَيُّ: تَطْلُبُوا بِأَمْوَالِكُمْ بِصَدَاقٍ مَعْلُومٍ مِنَ الزَّوْجَاتِ إِلَى أَرْبَعٍ أَوْ بِشِرَاءٍ مِنَ السَّرَّارِيِّ مَا شِئْتُمْ بِالطَّرِيقِ الشَّرْعِيِّ، حَالِ كَوْنِكُمْ ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، أَيُّ: مُتَعَقِّفِينَ عَنِ الزَّيْنِ، وَالسِّتْفَاحِ: الزَّيْنِ، مَا خُوذُ مِنْ سَفْحِ الْمَاءِ، أَيُّ: صَبَّهُ وَهُوَ الْمَنِي.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾.

الِاسْتِمْتَاعُ لُغَةٌ: التَّلَذُّدُ. وَالْمَرَادُ بِهِ هُنَا النِّكَاحُ، وَالْأَجُورُ جَمْعُ أَجْرٍ وَالْمَرَادُ بِهَا هُنَا الْمُهُورُ، وَسُمِّيَ الْمَهْرُ أَجْرًا؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي مُقَابَلَةِ الْإِنْتِفَاعِ وَالتَّلَذُّدِ بِالْجَمَاعِ فِي النِّكَاحِ الصَّحِيحِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾.

وَ (مِنْ) فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنْهُنَّ﴾، يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ بَيِّنِيَّةً، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَيُّ امْرَأَةٍ اسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَأَتَوْهَا مَهْرَهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ تَبْعِيضِيَّةً، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: فَإِنْ اسْتَمْتَعْتُمْ بِشَيْءٍ مِنْهُنَّ فَأَتَوْهُنَّ مُهُورَهُنَّ، وَلَا يَجُوزُ الْاسْتِمْتَاعُ بِشَيْءٍ مِنْهُنَّ بِلَا مَهْرٍ.

وَلَا يَجُوزُ الْاسْتِدْلَالُ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبَاحَةِ نِكَاحِ الْمُتْعَةِ.



نعم كَانَ مَشْرُوعًا فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَلَكِنْ نُسِخَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَنَهَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حَيْبَرَ؛ فَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نَهَى عَنْ مُتَعَةِ النِّسَاءِ يَوْمَ حَيْبَرَ، وَعَنْ أَكْلِ لُحُومِ الْحُمُرِ الْإِنْسِيَّةِ»<sup>١</sup>.

﴿فَأَتْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾<sup>٢</sup>.

أَيُّ: فَأَتْوَهُنَّ مُهُورَهُنَّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾<sup>٣</sup>.

وَسُمِّيَ الْمَهْرُ أَجْرًا لِأَنَّهُ بَدَلُ الْمَنْفَعَةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ بِالِاسْتِمْتَاعِ.

وَفَرِيضَةٌ أَيُّ: مَفْرُوضَةٌ، وَهِيَ حَالٌ مِنْ: ﴿أَجُورَهُنَّ﴾ وَمَعْنَاهَا: مُقَدَّرَةٌ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ الْمَهْرُ مُقَدَّرًا بِمِقْدَارٍ مُعَيَّنٍ، قَطْعًا لِلتَّنَازُعِ وَالْحُصُومَةِ إِذَا تَرَكَ بِلَا تَقْدِيرٍ.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾<sup>٤</sup>.

يَعْنِي: لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ وَهَبَتْ الْمَرْأَةُ لِزَوْجِهَا مَهْرَهَا أَوْ شَيْئًا مِنَ الْمَهْرِ، عَنْ طَيْبِ نَفْسٍ، وَلَا حَرَجَ عَلَى الزَّوْجِ فِي أَخْذِهِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ طَبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾<sup>٥</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾<sup>٦</sup>.

أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِمَا يُصْلِحُ أُمُورَكُمْ، حَكِيمًا فِيمَا يَشْرَعُهُ لَكُمْ.

١ - رواه البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة حَيْبَرَ، حديث رقم: ٤٢١٦، ومسلم - كتاب النكاح، باب نكاح

الْمُنْعَةِ، وَبَيَانُ أَنَّهُ أُبِيحَ، ثُمَّ نُسِخَ، ثُمَّ أُبِيحَ، ثُمَّ نُسِخَ، وَاسْتَفْرَجَ تَحْرِيمُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، حديث رقم: ١٤٠٧

٢ - سُورَةُ الْمُتَحَنِّتِ: الْآيَةُ / ١٠

٣ - سُورَةُ النِّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤



## الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾. أي فرض الله، استعارة للفرض لفظ الكتاب لثبوتيه وتقريره، فدل بالأمر المحسوس على المعنى المعقول. الاستعارة في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾، استعارة لفظ الإحصان وهو الامتناع في المكان الحصين للامتناع عن الزنا.

واستعارة لفظ السفاح من قوله: ﴿غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾ لكثرة الزنا؛ فإن السفح عبارة عن صب الماء في الأنهار والعيون بتدفق وسرعة.

والطباق بين (مُحْصِنِينَ) و (مُسَافِحِينَ). في قوله: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾. والمُحْصِنُ الَّذِي يَمْنَعُ فَرْجَهُ، وَالْمُسَافِحُ الَّذِي يَبْذُلُهُ.

والإحتراس في قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، فَإِنَّ الْمُحْصَنَاتُ قَدْ يُرَادُ بِهَا الْأَنْفُسُ الْمُحْصَنَاتُ، فَيَدْخُلُ تَحْتَهَا الرِّجَالُ، فَاحْتَرَزَ بِقَوْلِهِ: مِنَ النِّسَاءِ.

والاستعارة في قوله: ﴿فَأَتْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾. استعارة لفظ الأجور للمهور، والأجر هو ما يدل على عمل، فجعل تمكين المرأة من الانتفاع بها كأنه عمل تَعْمَلُهُ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَأَثُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سُوْرَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٢٥

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

قال الفخر الرازي: اعلم أنه تعالى لما بيّن من يحلّ ومن لا يحلّ: بيّن فيمن يحلّ أنه متى يحلّ، وعلى أي وجه يحلّ.<sup>١</sup>

الطُّولُ هنا معناه: السَّعَةُ وَالْقُدْرَةُ؛ قَالَ الرَّجَّاحُ: مَعْنَاهُ مَنْ لَمْ يَقْدِرْ مِنْكُمْ عَلَى مَهْرِ الْحَرَّةِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اسْتَأْذِنَكَ أَوْلُو الطُّولِ مِنْهُمْ﴾. يعني: أصحاب الغنى، وَأَصْلُ الطُّولِ مِنَ الطُّولِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الْقِصَرِ، وَسُمِّيَ الْغَنَى طَوْلاً؛ لِأَنَّ الْغَنَى يَنَالُ بِهِ مَا لَا يَنَالُهُ الْفَقِيرُ. وَيَطْلُقُ الطُّولُ وَيُرَادُ بِهِ الْفَضْلُ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ﴾. أَي: ذِي النَّعَمِ وَالْفَوَاضِلِ.

يَقُولُ تَعَالَى وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ نِكَاحِ الْحَرَّةِ بسبب ضيق ذات اليد، وعدم القدرة على بذل المهر فله أن ليتزوج الأمة المؤمنة.

وَالْمُرَادُ بِالْمُحْصَنَاتِ هُنَا الْحَرَائِرُ لِأَنَّهُنَّ ذَكَرْنَ فِي مَقَابِلِ مَا مَلَكَتِ الْأَيْمَانُ وَهِنَّ الْإِمَاءُ، فَجَعَلَ الْمُحْصَنَاتِ هُنَا ضِدَّ الْإِمَاءِ، وَأَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ تَعَدُّرِ نِكَاحِ الْمُحْصَنَاتِ نِكَاحَ الْإِمَاءِ.

١ - تفسير الرازي (١٠ / ٤٦)



﴿فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾.

يعني: من كان كذلك فَتَرَوُجُوا مِنَ الْإِمَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ اللَّاتِي يَمْلِكُهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ؛ لأنه قال: ﴿مِنْ فَتَيَاتِكُمْ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلْيَنْكِحْ مِنْ إِمَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ نِكَاحُ الْأَمَةِ الْكَافِرَةِ وَلَوْ كَانَتْ كِتَابِيَّةً؛ لِأَنَّ شَرْطَ الْإِبَاحَةِ أَنْ يَكْنَ مُؤْمِنَاتٍ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾.

جملة معترضة لبيان أنه يَكْفِي فِي الْحُكْمِ بِإِيمَانِهَا مَا ظَهَرَ مِنْهَا، فَمَنْ ظَهَرَ إِيْمَانُهَا فَنِكَاحُهَا صَحِيحٌ، وَلَا يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ أَمْرٌ بَاطِنِي.

﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾.

يعني: أنتم وإماؤكم أبناء أبٍ واحدٍ وهو آدم عليه السلام ودينكم الإسلام، فلا تستنكفوا من نكاحهن مع حاجتكم إلى ذلك.

﴿فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾.

أي: بِإِذْنِ أَرْبَابِهِنَّ وَمُلَّاكِهِنَّ، وَسُمِّيَ مُلَّاكُ الْإِمَاءِ أَهْلًا لَهُنَّ، لِأَنَّهِنَّ كَأَهْلٍ.

وَالْأَمَةُ كَالْحُرَّةِ فِي اشْتِرَاطِ إِذْنِ أَوْلِيَائِهَا هُنَا وَعَدَمِ تَزْوِيجِهَا لِنَفْسِهَا، بَلْ هِيَ أَوْلَى مِنَ الْحُرَّةِ فِي الْحَاجَةِ إِلَى إِذْنِ أَوْلِيَائِهَا، وَيَسْتَوِي فِي هَذَا الْحُكْمِ الْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ فَالسَّيِّدُ وَلِيُّ أُمَّتِهِ لَا تَتَزَوَّجُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَهُوَ وَكَذَلِكَ لَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَزَوَّجَ إِلَّا بِإِذْنِهِ، بِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ؛ لَمَا ثَبَتَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ تَزَوَّجَ بَعِيرٍ إِذْنِ سَيِّدِهِ فَهُوَ عَاهِرٌ»<sup>١</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٥٠٣١، وأبو داود - كتاب النكاح، باب في نكاح العبد بغير إذن سيده، حديث رقم: ٢٠٧٨، والترمذي - أبواب النكاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في نكاح العبد بغير إذن سيده، حديث رقم: ١١١١، بسند حسن



فَإِنْ كَانَ مَالِكُ الْأَمَةِ امْرَأَةً فَلَا يَجُوزُ لَهَا أَنْ تُزَوِّجَهَا؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ أَنْ تُزَوِّجَ امْرَأَةً، وَإِنَّمَا يُزَوِّجُ الْأَمَةَ مَنْ يُزَوِّجُ سَيِّدَتَهَا بِإِذْنِهَا.

﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

أَيُّ: أَدْوَا إِلَيْهِنَّ مُهُورَهُنَّ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى وُجُوبِ الْمَهْرِ فِي النِّكَاحِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْأَحَقِّ بِالْمَهْرِ، الْأَمَةُ أَوْ سَيِّدَتُهَا، عَلَى قَوْلَيْنِ: مَذْهَبُ مَالِكٍ أَنَّهَا أَحَقُّ بِمَهْرِهَا مِنْ سَيِّدَتِهَا، لِظَاهِرِ الْآيَةِ ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، وَالْمَهْرُ حَقٌّ لِلزَّوْجَةِ عَلَى الزَّوْجِ.

وَمَذْهَبُ الْجُمْهُورِ: أَنَّ سَيِّدَتَهَا أَحَقُّ بِمَهْرِهَا، قَالُوا: فِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: وَأَتُوا أَهْلَهُنَّ أَجُورَهُنَّ.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾. أَيُّ: بِالْمُتَعَارَفِ عَلَيْهِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا لَمْ يَخَالَفِ الشَّرْعَ.

﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرِ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ﴾.

أَيُّ: عَفَائِفَ غَيْرِ زَانِيَاتٍ، وَتَقَدُّمَ إِنْ الْإِحْصَانَ يَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهِ الْعِفَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ جَرِيرٍ:

فَلَا تَأْمَنَنَّ الْحَيَّ قَيْسًا فَإِنَّهُمْ

\*\*\*\*\* بَنُو مُحْصَنَاتٍ لَمْ تُدَنَّسْ حُجُورُهَا

وَالْمُسَافِحَاتُ: الْمُعْلَنَاتُ بِالزِّنَا. ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَحْدَانٍ﴾. يَعْنِي: غَيْرِ مُتَّخِذَاتِ أَحْيَاءٍ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يُحَرِّمُونَ مَا ظَهَرَ مِنَ الزِّنَا، وَيَسْتَحِلُّونَ مَا خَفِيَ، يَقُولُونَ: أَمَّا مَا ظَهَرَ مِنْهُ فَهُوَ لُؤْمٌ، وَأَمَّا مَا خَفِيَ فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ.

يَعْنِي: يَجُوزُ لَكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا كُنَّ عَفَائِفَ غَيْرِ زَوَانِي فِي سِرِّ وَلَا عَلَانِيَةٍ.



﴿فَإِذَا أَحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

اختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْصِنَ﴾، فقليل معناه: فَإِذَا أَسْلَمَ.

وَسَأَلَ النَّعْمَانُ بْنُ مُقَرِّنِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنْ: أُمِّ زَنْتٍ وَلَيْسَ لَهَا زَوْجٌ، فَقَالَ: «إِسْلَامُهَا إِحْصَانُهَا»<sup>١</sup>.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِحْصَانُ الْأُمَّةِ دُخُولُهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَإِقْرَارُهَا بِهِ: إِذَا دَخَلَتْ فِي الْإِسْلَامِ وَأَقْرَبَتْ بِهِ ثُمَّ زَنْتَ فَعَلَيْهَا جَلْدُ خَمْسِينَ<sup>٢</sup>.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ: التَّزْوِيجُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا أَحْصِنَ﴾، يَعْنِي: «إِذَا تَزَوَّجَتْ حُرًّا».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: إِحْصَانُ الْأُمَّةِ أَنْ يَنْكِحَهَا الْحُرُّ، وَإِحْصَانُ الْعَبْدِ أَنْ يَنْكِحَ الْحُرَّةَ.

وَقِيلَ: فِي الْآيَةِ قِرَاءَتَانِ مُتَوَاتِرَتَانِ دَلَّتْ كُلُّ آيَةٍ عَلَى مَعْنَى مِنْ هَذَيْنِ الْمَعْنَيْنِ، قَرَأَ حَمْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ وَشُعْبَةُ عَنْ عَاصِمٍ: ﴿أَحْصِنَ﴾ بِالْفَتْحِ فِي الْأَلْفِ، فَيَكُونُ مَعْنَاهَا: أَسْلَمَتْ.

وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿أَحْصِنَ﴾ بِضَمِّ الْأَلْفِ، يَعْنِي: فَإِذَا أَحْصَنَهُنَّ أَزْوَاجُهُنَّ.

وَالرَّاجِحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْإِحْصَانِ هُنَا التَّزْوِيجُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَيَّدَ نِكَاحَ الْإِمَاءِ بِكَوْنِهِنَّ مُؤْمِنَاتٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾، فَلَا مَعْنَى لِلْقَوْلِ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا أَحْصِنَ﴾، يَعْنِي: فَإِذَا أَسْلَمَتْ.

﴿فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾.

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ شَرْطَيْنِ لِإِقَامَةِ حَدِّ الزَّانَا عَلَى الْإِمَاءِ الْأُولَى الْإِحْصَانُ وَهُوَ الزَّوْجُ، وَالثَّانِي: الْفَاحِشَةُ.

١ - رواه ابن جرير في التفسير (٦/ ٦٠٩)

٢ - رواه سعيد ابن منصور في التفسير - حديث رقم: ٦٠٨، بسند صحيح



المراد بالحدِّ هنا هو الجلدُ لِأَنَّهُ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَتَنَصَّفَ، والرجم لا تنصفُ، فَتَعَيَّنَ أَنَّ تَكُونَ هَذِهِ الْآيَةُ مُحْصَصَةً لِعُمُومِ حَدِّ الزَّنى الْوَاردِ فِي سُورَةِ النُّورِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِذَا زَنَتْ أَمَةٌ أَحَدِكُمْ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ، فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُتْرَبْ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ الثَّالِثَةَ، فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا، فَلْيَبْعِهَا، وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيَّاشِ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَحْزُومِيِّ قَالَ: أَمَرَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فَجَلَدْنَا وَلَائِدَ مِنْ وَلَائِدِ الْإِمَارَةِ حَمْسِينَ حَمْسِينَ فِي الزَّيْنِ<sup>٢</sup>.

فَإِذَا اخْتَلَّ شَرْطُ الْإِحْصَانِ وَهُوَ الزَّوْاجُ فَزَنَتْ وَمُتَّحَصِنٌ فَلَا حَدَّ عَلَيْهَا عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَإِنَّمَا تُضْرَبُ تَأْدِيبًا لَهَا، وَهُوَ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَوْلُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ وَاحْتِجُوا بِمَفْهُومِ الشَّرْطِ فِي الْآيَةِ، وَهُوَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْعُمُومِ.

﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الْعَنْتُ: الْمَشَقَّةُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، أَي: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ آل عمران: ١١٨]، يَعْنِي: يَتَمَنَّوْنَ الْمَشَقَّةَ لَكُمْ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الزَّيْنُ؛ عَنِ الضَّحَّاكِ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَنْ حَشِيَ الْعَنْتَ مِنْكُمْ﴾. قَالَ: «الزَّيْنُ».

أَي: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ إِبَاحَةِ نِكَاحِ الْإِمَاءِ عِنْدَ الْعَجْزِ عَنِ الزَّوْاجِ بِالْحِرَّةِ الْمُؤْمِنَةِ إِنَّمَا يَبَاحُ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَشَقَّةَ الَّتِي قَدْ تَوَدَّى بِهِ إِلَى الْوُقُوعِ فِي الزَّيْنِ.

﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

قَالَ مُجَاهِدٌ: وَأَنْ تَصْبِرُوا عَنْ نِكَاحِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ، وَهُوَ حِلٌّ.

١ - رواه البخاري - كتاب البيوع، باب بيع العبد الزاني، حديث رقم: ٢١٥٢، ومسلم - كتاب الحدود، باب رجم

اليهود أهل الذمة في الزنى، حديث رقم: ١٧٠٣

٢ - رواه مالك - كتاب الرجم والحدود، جامع ما جاء في حد الزنا، حديث رقم: ٣٠٥٥، والبيهقي في السنن الكبرى -

كتاب الحدود، باب ما جاء في حد المماليك، حديث رقم: ١٧٠٨٩



أَيُّ: وَصَبْرُكُمْ عَنْ تَزْوِجِ الْإِمَاءِ خَيْرٌ لَكُمْ؛ لِمَا يَكُونُ فِي الْإِمَاءِ مِنَ الدَّنَاءَةِ، كَمَا قَالَتْ هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ امْرَأَةَ أَبِي سُفْيَانَ: وَهَلْ تَزْنِي الْحُرَّةُ؟

وَلِمَا يَتَرْتَبُ عَلَى تَزْوِجِ الْإِمَاءِ مِنْ مَفْسَدَةِ رِقِّ الْأَوْلَادِ؛ لِأَنَّهُمْ تَبِعُوا لِأَمْرِهِمْ فِي عِبَادَةِ الرَّقِّ.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أَيُّ: وَاللَّهُ غَفُورٌ لِمَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَنْ تَزْوِجِ الْإِمَاءِ، رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ فَأَبَاحَ لَهُمْ نِكَاحَ الْإِمَاءِ لِمَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ الْمَشَقَّةَ.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْحَرِّ نِكَاحُ الْأَمَةِ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ، أَحَدُهُمَا: أَلَّا يَجِدَ مَهْرَ حُرَّةٍ، وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْعَنْتِ.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الطَّبَاقُ بَيْنَ: ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ وَ ﴿مُسَافِحَاتٍ﴾.

الاسْتِعَارَةُ فِي: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، اسْتِعَارَ لَفْظَ الْأَجُورِ لِلْمَهْرِ، لِأَنَّ الْمَهْرَ يَشْبَهُ الْأَجْرَ فِي الصُّورَةِ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٢٦

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما ذكر الله تعالى في الآيات السالفة جملة من الأحكام الشرعية، وهي تشتمل على أوامرٍ ونَوَاهٍ، ومنها شَهَوَاتٌ اسْتَبَاحُوهَا، وَعَادَاتٌ أَلْفُوهَا، فَصَرَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا، فَتَلَطَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِمْ لِقَبْلِهَا نَفُوسَهُمْ، وَتَنَقَّادَ لِشَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى قُلُوبَهُمْ، فَذَكَرَ أَنَّهُ شَرَعَ ذَلِكَ لَهُمْ رَحْمَةً بِهِمْ، وَتَبْيِينًا لَهُمْ، وَلِيَتَأَسَّوْا فِي ذَلِكَ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ السَّابِقَةِ الَّذِينَ قَبَلُوا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَمَلُوا بِمَقْتَضَاهُ، فَكَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ...﴾، تَعْلِيلًا لِلْأَحْكَامِ السَّابِقَةِ.

رَوَى الْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . أَنَّهُ قَالَ: "ثَمَانِ آيَاتٍ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ هِيَ خَيْرٌ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَعَرَبَتْ، وَأَوْهَرَتْ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ثَلَاثًا مُتَتَابِعَاتٍ، وَالرَّابِعَةُ: ﴿إِنْ جَاءَتْكُمْ كِبَائِرُ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكِّفْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وَالخَامِسَةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] الْآيَةَ، وَالسَّادِسَةُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠]، وَالسَّابِعَةُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] الْآيَةَ، وَالثَّامِنَةُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَمَنْ يُمْفِرُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ١٥٢] " الْآيَةَ

﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾.

يُخْبِرُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يُرِيدُ بِمَا ذَكَرَهُ مِنْ أَحْكَامٍ وَتَشْرِيعَاتٍ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَعَيْرِهَا أَنْ يُبَيِّنَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَحَلَّ لَهُمْ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ.



﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾.

يَعْنِي: يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُوَفِّقَكُمْ لِسُلُوكِ سُبُلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ، وَاتِّبَاعِ طَرَائِقِهِمْ الْحَمِيدَةِ حِينَ امْتَثَلُوا شَرَعَ إِلَهُ تَعَالَى.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾.

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ عَمَّا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ اسْتِبَاحَةِ مَا لَا يَجِلُّ لَكُمْ مِنَ الْحَارِمِ.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أَي: وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَصْلُحُ عِبَادَهُ فِي مَعَايَشِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَمَا يَرْضِيهِ لَهُمْ مِنْ شَرَعِهِ وَأَحْكَامِهِ، فِيمَا أَحَلَّ لَهُمْ أَوْ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ، حَكِيمٌ فِي تَشْرِيْعِهِ وَأَحْكَامِهِ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٢٧ - ٢٨

المراد بالإرادة هنا الإرادة الشرعية، وليست الإرادة الكونية القدرية، فإنه لا إرادة لأحد من الخلق مع إرادة الله الكونية.

وليس في الكلام تكرارًا، وإنما أراد بقوله تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾، أنه كما أراد للمؤمنين سبب التوبة عليهم، فقد أراد التوبة عليهم كذلك، إذ قد يصح إرادة سبب الفعل دون الفعل نفسه، وليبين سبحانه لأهل الإيمان أن إرادته مضادة لما يريده أهل الباطل الذين يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾.

وَالشَّهَوَاتُ جَمْعُ شَهْوَةٍ، وَهِيَ مَا يَغْلِبُ عَلَى النَّفْسِ مَحَبَّتُهُ وَهَوَاهُ، وَالْمَعْنَى: وَيُرِيدُ أَهْلُ الْبَاطِلِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَعْدَلُوا عَنِ الْحَقِّ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى الْبَاطِلِ الَّذِي يَسْتَحْسِنُونَهُ، وَيَلْهَثُونَ خَلْفَهُ، لِتَكُونُوا مِثْلَهُمْ فَسَقَةَ فَجْرَةٍ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِمْ: (ودت الزانية لو زنت النساء)، وَلَا يَكْتَفِي أَهْلُ الْبَاطِلِ بِالْمِيلِ الْيَسِيرِ عَنِ شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، بَلْ لَا يَرْضِيهِمْ إِلَّا ﴿أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾، وَهُوَ دَرَسٌ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ أَلَّا يَطِيعُوا أَهْلَ الْبَاطِلِ وَلَوْ بِكَلِمَةٍ لَأَنَّهُمْ لَا يَرْضِيهِمْ إِلَّا انْسِلَاخَ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ دِينِهِمْ، وَنَبْذَهُ وَرَاءَهُمْ ظَهْرِيًّا.

ولفظ الَّذِينَ من صيغ العموم وهو يشمل كل من لم يرض بشرع الله تعالى.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾.

يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْ عِبَادِهِ فِي تَشْرِيعَاتِهِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾<sup>١</sup>.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الآيَةُ / ١٨٥



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾<sup>١</sup>.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَرِيصًا كُلِّ الْحَرِصِ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ الْمَعْنَى أتمَّ بَيَانٍ؛ كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَعْظَمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ أَمْرٍ لَمْ يُحَرِّمْ فَحَرَّمَ عَلَى النَّاسِ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»<sup>٢</sup>.  
﴿وَحَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾.

تَذْيِيلٌ لِبَيَانِ عِلَّةِ التَّخْفِيفِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الآنَ حَقَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾<sup>٣</sup>.

وَقِيلَ: ضَعِيفٌ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، قَالَ وَكَيْعٌ: يَذْهَبُ عَقْلُهُ عِنْدَهُنَّ.

وَقَالَ طَاوُوسٌ: لَيْسَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ فِي شَيْءٍ أَضْعَفَ مِنْهُ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ.

وَالرَّاجِحُ أَنَّ الضَّعْفَ أَعْمٌ وَأَشْمَلٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِي أَمْرِ النِّسَاءِ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الْاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾. اسْتِعَارَ الْإِتْبَاعَ وَالْمَيْلَ الَّذِينَ هُمَا حَقِيقَةٌ فِي الْإِجْرَامِ لِمُوَافَقَةِ هَوَى النَّفْسِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْخُرُوجِ عَنِ الْحَقِّ.

وَالْجِنَاسُ الْمَغَايِرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَمِيلُوا مَيْلًا﴾.

الْاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾. اسْتِعَارَ التَّخْفِيفَ وَأَصْلُهُ مِنْ خَفَّةٍ

الْوِزْنِ، لِتَخْفِيفِ التَّكْلِيفِ وَرَفْعِ مَشَاقِقِهَا عَنِ النَّفْسِ، وَذَلِكَ مِنَ الْمَعَانِي.

وَالْإِطْنَابُ بِذِكْرِ الْإِرَادَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ﴾، وَ ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾. لِلتَّوَكِيدِ.

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ١٥٧

٢ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ - كِتَابُ الْفُضَائِلِ، بَابُ تَوْقِيرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَرَكَ إِكْتِنَارَ سُؤَالِهِ عَمَّا لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ، أَوْ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَمَا لَا يَقَعُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٣٥٨

٣ - سُورَةُ الْأَنْفَالِ: الْآيَةُ / ٦٦



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ﴾، لبث الطمأنينة في النفوس بذكر لفظ الجلالة.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآية / ٢٩

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ الْمُحَرَّمَاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْإِبْضَاعِ، ذَكَرَ هُنَا قَاعِدَةً عَامَةً فِي الْمُحَرَّمَاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ.

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ الْآيَةَ أَنْ يَأْكُلَ بَعْضُهُمْ أَمْوَالَ بَعْضٍ بِالْبَاطِلِ، وَالْبَاطِلُ ضِدُّ الْحَقِّ، وَهُوَ كُلُّ مَا لَمْ يَشْرَعَهُ اللَّهُ، وَلَا أَذِنَ لِلْعِبَادِ فِيهِ، وَالْمَعْنَى: لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَخَصَّ الْأَكْلَ هُنَا بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الْمَعَامَلَاتِ الْمُحَرَّمَةِ، لِأَنَّ الْأَكْلَ هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ جَمْعِ الْأَمْوَالِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْبَاطِلِ﴾. وَالْبَاءُ فِيهِ لِلْمَلَابَسَةِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ مَالٍ مُحْرَمٍ كَالسَّرِقَةِ، وَالْعَصْبِ، وَالرِّشْوَةِ، وَالْقَمَارِ، وَأَكْلِ الرِّبَا، وَسَائِرِ الْبُيُوعِ الْفَاسِدَةِ، وَغَيْرِهَا.

وَمِنْ مَقَاصِدِ الشَّرْعِ حِفْظُ الْمَالِ لِأَنَّهُ قَوَامُ الْحَيَاةِ، وَأَمَرَ بِالْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ بِأَقْوَمِ الطَّرِيقِ وَأَعَدَّهَا، وَمَنَعَ أَحْذَهُ بِغَيْرِ حَقٍّ شَرْعِيٍّ؛ كَمَا وَرَدَ النَّهْيُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ؛ وَكَمَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ، عَنْ عَمِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطَيْبِ نَفْسٍ مِنْهُ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِنْ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكٍ»<sup>٢</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٠٦٩٥، وأبو يعلى - حديث رقم: ١٥٧٠، بسند صحيح

٢ - رواه مسلم - كتاب الإيمان، باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمينه فاجرة بالنار، حديث رقم: ١٣٧



﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾.

والاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن التجارة ليست من جنس المستثنى منه، ومثاله في القرآن: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. [الأنعام: ١٥١]، فإن قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ ليس من جنس المستثنى منه، قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾. فإن قوله: ﴿سَلَامًا﴾ ليس من جنس المستثنى منه، ومنه قول جرير العود:

وَبَلَدَةٍ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسُ

\*\*\*\*\* إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَإِلَّا الْعَيْسُ

فَالْيَعْفِيرُ وَالْعَيْسُ لَيْسَتْ مِنْ جِنْسِ الْأُنَيْسِ.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستثناء المنقطع في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾؛ لأنَّ التِّجَارَةَ لَيْسَتْ مِنْ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، فَالْمَعْنَى: لَكِنَّ التِّجَارَةَ غَيْرُ مَنْهِيٍّ عَنْهَا. وحذف الاختصار في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً﴾، وتقدير الكلام: إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْأَمْوَالُ تِجَارَةً، أَيْ: أَمْوَالُ تِجَارَةٍ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يُفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٢٩، ٣٠

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقْتُلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَالَ الْحَسَنُ: الْمَعْنَى لَا تَقْتُلُوا إِخْوَانَكُمْ.

وَقَالَ: عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قَتَلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا.

وَأَيْمًا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ لِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفَسٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَالْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ، وَالزُّهْرِيُّ: فَلْيُسَلِّمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ.

وَهُوَ نَهْيٌ عَنْ قَتْلِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ مِنْ بَابِ أُولَى؛ فَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: احْتَلَمْتُ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ السُّلَاسِلِ فَأَشْفَقْتُ إِنْ اغْتَسَلْتُ أَنْ أَهْلِكَ فَتَيَمَّمْتُ، ثُمَّ صَلَّيْتُ بِأَصْحَابِي الصُّبْحَ فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟» فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي مَنَعَنِي مِنَ الْإِغْتِسَالِ وَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ يَقُولُ شَيْئًا<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

مِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِالْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ التَّشْرِيحَ الْعَظِيمَ الَّذِي أَتَى بِجَلْبِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَدَرِيءِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، وَمِنْهَا أَنَّهُ تَعَالَى حَرَّمَ دِمَاءَ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَكْلَ أَمْوَالِهِمْ بَيْنَهُمْ بِالْبَاطِلِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٧٨١٢، وأبو داود - كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أبتيمم، حديث رقم:

٣٣٤، والحاكم - كتاب الطهارة، حديث رقم: ٦٢٩، بسند صحيح



﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُذْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهِ نَارًا﴾.

قِيلَ: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾. إِشَارَةٌ إِلَى أَكْلِ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلِ النَّفْسِ؛ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ مَذْكُورٍ، وَقِيلَ: هُوَ عَامٌّ عَلَى كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الْمَحْرَمَاتِ الْمَذْكُورَةِ مِنْ أَوَّلِ السُّورَةِ، وَهُوَ أَوْلَى.

وَالْعُدْوَانُ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ، وَقَدْ يَكُونُ بِظُلْمٍ وَهُوَ الْعَالِبُ، وَقَدْ يَكُونُ بِحَقٍّ، وَالظُّلْمُ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَثَبَّتَ الْوَعِيدُ بِذِكْرِ الْعُدْوَانِ وَالظُّلْمِ لِيُخْرِجَ مَا وَقَعَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا وَالسَّهْوِ.

وَعَطْفُ الظُّلْمِ عَلَى الْعُدْوَانِ دَلَالَةٌ عَلَى تَعَايُرِهِمَا وَاحْتِلَافِهِمَا فِي الْمَعْنَى.

وَالصَّلِيُّ الْإِحْرَاقُ بِالنَّارِ؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَنَّه مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ...."<sup>١</sup>

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وَكَانَ ذَلِكَ الْعَذَابَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ الْأَطْعِمَةِ، بَابُ مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَأْكُلُونَ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٥٤١٤



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ٣١

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ الْوَعِيدَ عَلَى فِعْلِ بَعْضِ الْكَبَائِرِ وَمِنْهَا أَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَكَرَ هُنَا الْوَعْدَ عَلَى اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى الذُّنُوبَ إِلَى كَبَائِرٍ وَصَغَائِرٍ كَمَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ﴾. [النَّجْمُ: ٣٢] وَاللَّمَمُ صَغَائِرُ الذُّنُوبِ وَمُحْفَرَاتُ الْأَعْمَالِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَنْطَرٌ﴾ [الْقَمَرِ: ٥٣]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾<sup>١</sup>.

وَالكَبِيرَةُ: هِيَ كُلُّ مَعْصِيَةٍ يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، أَوْ عِقُوبَةٌ، أَوْ تَوْعِدٌ بِالنَّارِ، أَوْ عَذَابٌ، أَوْ لَعْنَةٌ، أَوْ غَضَبٌ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْكَبَائِرُ كُلُّ ذَنْبٍ حَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ، أَوْ لَعْنَةٍ، أَوْ عَذَابٍ.

وَقَدْ وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهْيُ عَنِ الْكَبَائِرِ وَبَيَانُهَا، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُبِيقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»<sup>٢</sup>.

١ - سورة الكهف: الآية / ٤٩

٢ - رواه البخاري - كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، حديث رقم: ٢٧٦٦، ومسلم - كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٩



وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنبئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ؟» ثَلَاثًا، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ - وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِنًا فَقَالَ - أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا حَتَّى قُلْنَا: لَيْتَهُ سَكَتَ.<sup>١</sup>

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكِبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: «يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ».<sup>٢</sup>

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾. دليل أن الكبائر لا بد لها من توبة خاصة، ولا تكفرها الطاعات، وأما قول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هُود: ١١٤]، فهو مقيد بما رواه مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «الصَّلَاةُ الْحُمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُعْشَ الْكِبَائِرُ».<sup>٣</sup>

وإذا مات مرتكب الكبيرة مصرًا عليها ولم يتب منها فهو في مشيئة الله، خلافًا للخوارج الذين يحكون له بالنار، ولا يسلب عنه اسم الإيمان خلافًا لهم كذلك فإنهم يكفرونه، وخلافًا للمعتزلة الذين يسلبونه اسم الإيمان ويجعلونه في منزلة بين المنزلتين.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ الشَّهَادَاتِ، بَابُ مَا قِيلَ فِي شَهَادَةِ الزُّورِ، حديث رقم: ٢٦٥٤، ومسلم - كِتَابُ الْإِيمَانِ،

بَابُ بَيَانِ الْكِبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، حديث رقم: ٨٧

٢ - رواه البخاري - كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ: لَا يَسُبُّ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، حديث رقم: ٥٩٧٣، ومسلم - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ

بَيَانِ الْكِبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، حديث رقم: ٩٠

٣ - رواه مسلم - كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ الصَّلَوَاتِ الْحُمْسِ وَالْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ

مَا اجْتُمِعَتْ الْكِبَائِرُ، حديث رقم: ٢٣٣



﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

وَالْمَدْخَلُ اسْمُ مَكَانِ الدُّخُولِ، وَالْمَعْنَى: نُدْخِلْكُمْ مَكَانًا كَرِيمًا، وَالكَرِيمُ هُوَ النَّفِيسُ الشَّرِيفُ.  
وَالْمُرَادُ بِهِ الْجَنَّةُ.

وَمَعْنَى الْآيَةِ: إِذَا اجْتَنَبْتُمْ كِبَائِرَ الْأَثَامِ الَّتِي تُهَيِّئُ عَنْهَا، كَفَرْنَا عَنْكُمْ الصَّغَائِرَ، وَأَدْخَلْنَاكُمْ الْجَنَّةَ.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية الاعتراض في قوله: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾، بَيْنَ ذَنْبَيْنِ كَبِيرَيْنِ: وَهُمَا قَتْلُ النَّفْسِ، وَأَكْلُ الْمَالِ بِالْبَاطِلِ.

وَالْمُقَابَلَةُ بَيْنَ الْكِبَائِرِ وَالسَّيِّئَاتِ، فَقَدْ قَسَمَ اللَّهُ تَعَالَى الذُّنُوبَ إِلَى قِسْمَيْنِ: كِبَائِرٍ وَصَّغَائِرٍ، وَقَدْ سُمِّيَتِ الصَّغَائِرُ هُنَا سَيِّئَاتٍ؛ لِأَنَّهَا ذُكِرَتْ فِي مُقَابِلِ الْكِبَائِرِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٣٢

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا مَا قَالَهُ الْقَقَالُ رَحِمَهُ اللهُ: إِنَّهُ تَعَالَى لَمَّا نَهَاهُمْ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنْ أَكْلِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ، وَعَنْ قَتْلِ النَّفْسِ، أَمَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا سَهَّلَ عَلَيْهِمْ تَرْكَ هَذِهِ الْمَنْهِيَّاتِ، وَهُوَ أَنْ يَرْضَى كُلُّ أَحَدٍ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ وَقَعَ فِي الْحَسَدِ، وَإِذَا وَقَعَ فِي الْحَسَدِ وَقَعَ لَا مُحَالَةَ فِي أَخْذِ الْأَمْوَالِ بِالْبَاطِلِ وَفِي قَتْلِ النَّفْسِ، فَأَمَّا إِذَا رَضِيَ بِمَا قَدَرَ اللهُ أَمَكْنَهُ الْإِحْتِرَازُ عَنِ الظُّلْمِ فِي النَّفْسِ وَفِي الْأَمْوَالِ.

### سبب نزول الآية:

سبب نزول هذه الآية ما ورد عن أم سلمة رضي الله عنها، أنها قالت: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيْغُزُو الرِّجَالَ وَلَا نَعُزُّو وَلَا نُقَاتِلُ فَنُسْتَشْهَدُ وَإِنَّمَا لَنَا نِصْفُ الْمِيرَاثِ. فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾<sup>١</sup>.

وَالْتَمَّتِي تَشَهِّي حُصُولِ الْأَمْرِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ، وَرَبْمَا لَا يَكُونُ.

نهى الله تعالى المؤمنين أن يتمنوا ما خصَّ الله تعالى به غيرهم من الفضل وربما لا يكون أبداً؛ تطهيراً للنفوس من الأخلاق الدميمة؛ لأنه ذريعة إلى الحسد والبخل والظلم.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٦٧٣٦، والترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم: ٣٠٢٢، والحاكم في مستدركه - كتاب التفسير، حديث رقم: ٣١٩٥، والطبراني في الكبير - حديث رقم: ٦٠٩، والبيهقي في السنن الكبرى - حديث رقم: ١٧٨٦٤، بسند صحيح



ومن شرف النفس الرضى بما قسمه الله تعالى؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَعْيَى النَّاسِ»<sup>١</sup>.

﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾.

مَعْنَاهُ: لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ عَلَى مَا اكْتَسَبُوا مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْآثَامِ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ عَلَى مَا اكْتَسَبْنَ مِنْ الطَّاعَاتِ وَالْآثَامِ كَالرِّجَالِ.

﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا يُصْلِحُهُمْ، وَهُوَ أَنْ يَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ كَرَمِهِ وَجُودِهِ فَإِنَّهُ كَرِيمٌ وَهَابٌ، وَيَتْرَكُوا التَّمَنِّيَّ فَإِنَّهُ لَا يُجْدِي شَيْئًا.

وَالْأَمْرُ بِسُؤَالِ اللَّهِ تَعَالَى هُنَا يَدُلُّ عَلَى الْوَجُوبِ؛ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَعْضَبْ عَلَيْهِ»<sup>٢</sup>.

وقد قيل:

لَا تَسْأَلَنَّ بُنَى آدَمَ حَاجَةً

\*\*\*\*\* وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحَجَّبُ

اللَّهُ يَعْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ

\*\*\*\*\* وَبُنَى آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَعْضَبُ

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أَيُّ: إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْلُحُ لَكُمْ مِنْ بَسْطِ الرِّزْقِ أَوْ تَقْصِيرِهِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٨٠٩٥، والترمذي - أبواب الرُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ: مَنْ اتَّقَى

المِحَارِمَ فَهُوَ أَعْبَدُ النَّاسِ، حديث رقم: ٢٣٠٥، بسند حسن

٢ - رواه الترمذي - أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مِنْهُ، حديث رقم: ٣٣٧٣، والبخاري في

الأدب المفرد - بَابُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَعْضَبْ عَلَيْهِ، حديث رقم: ٦٥٨، بسند حسن



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةُ / ۳۳

لما نهي الله تعالى عن التطلع إلى ما فضل الله به بعض الناس على بعض، وتمني ما عند الغير من الخير، بين سبحانه هنا أنه جعل لكل واحدٍ من الأقارب نصيباً مما تركه الوالدان والأقربون من الميراث.

والموالي جمع مولى والمولى لفظٌ مشتركٌ يُطلق ويرادُ به: المُعتقُ وهو السيد، ويرادُ به: المُعتقُ وهو العبد الذي حرَّر، ويرادُ به: النَّاصِرُ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾.

ويطلق ويرادُ به: الجارُ، ويطلق ويرادُ به: ابنُ العمِّ مولى؛ كما قال الفضلُ بنُ عباسٍ:

مَهْلًا بَنِي عَمَّنَا مَهْلًا مَوَالِينَا

\*\*\*\*\* لَا تُظْهَرَنَّ لَنَا مَا كَانَ مَدْفُونًا

ويطلق ويرادُ به: العصبَةُ؛ وهمُ الأولياءُ الأقاربُ، مأخوذٌ مِنَ الْوَلِيِّ، أي القُرْبُ، وهو المرادُ هنا؛ قَالَ قَتَادَةُ: الْمَوَالِي: أَوْلِيَاءُ الْأَبِ أَوْ الْأَخِ أَوْ ابْنِ الْأَخِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الْعَصْبَةِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْمَوَالِي: الْعَصْبَةُ، يَعْنِي: الْوَرِثَةَ.

﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

أي: وَلِكُلِّ تَارِكٍ مَالًا جَعَلْنَا وَرِثَةً يَرِثُونَ مِمَّا تَرَكَ سِوَاءَ كَانِ الْمُتَوَفَّى مِنَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ.

ويحتمل أن يكون المرادُ: وَلِكُلِّ مِيرَاثٍ تَرَكَهُ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ جَعَلْنَا وَرِثَةً يَرِثُونَ مِنْهُ.

﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾.

أي: وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ عَلَى الْمُحَالِفَةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ يُعَاقِدُ الرَّجُلَ فَيَقُولُ: دَمِي دَمُكَ، وَهَدَمِي هَدَمُكَ، وَثَأْرِي ثَأْرُكَ، وَحَرْبِي حَرْبُكَ، وَسِلْمِي سِلْمُكَ وَتَرْتِنِي وَأَرْثُكَ،



وَتَطَلَّبُ بِي وَأَطْلُبُ بِكَ، وَتَعْقِلُ عَنِّي وَأَعْقِلُ عَنْكَ، فَيَكُونُ لِلْحَلِيفِ السُّدُسُ مِنْ مِيرَاثِ الْحَلِيفِ فَأَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُعْطُوا الْخُلَفَاءَ أَنْصِبَاءَهُمْ مِنْ الْمِيرَاثِ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا حِلْفٌ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»<sup>١</sup>.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا حِدَّةً وَشِدَّةً»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْحِلْفِ، فَقَالَ: «مَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَمَسَّكُوا بِهِ، وَلَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ»<sup>٣</sup>.

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: جَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَتْحِ عَلَى دَرَجِ الْكَعْبَةِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ كَانَ لَهُ حِلْفٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، لَمْ يَزِدْهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً، وَلَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ»<sup>٤</sup>.

ثم نُسِحَ ذَلِكَ بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾<sup>٥</sup>.

١ - رواه مسلم - كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله تعالى عنهم، حديث رقم: ٢٥٣٠

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٩٠٩، بسند صحيح

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٠٦١٣، والطبراني في الكبير - حديث رقم: ٨٦٤، بسند صحيح

٤ - رواه أحمد - حديث رقم: ٦٦٩٢، والبخاري في الأدب المفرد - باب لا حلف في الإسلام، حديث رقم: ٥٧٠، وابن خزيمة - كتاب الزكاة المختصر من المختصر من المسند على الشريطة التي ذكرتها في أول الكتاب، باب التهي عن الجلب عند أخذ الصدقة من المواشي، والأمر بأخذ صدقة المواشي في ديار مالِكها من غير أن يؤمروا بجلب المواشي إلى الساعي ليأخذ صدقتهم، حديث رقم: ٢٢٨٠، بسند حسن

٥ - سورة الأنفال: الآية / ٧٥



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾.

أي: إِنَّ اللَّهَ مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ، عَلِيمٌ بِأَحْوَالِهِمْ، وَفِي الْكَلَامِ وَعْدٌ لِمَنْ أَطَاعَهُ وَوَفَى بِجَلْفِهِ، وَوَعِيدٌ لِمَنْ خَانَ عَهْدَهُ وَعَصَى رَبَّهُ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَحَافُونَ نَشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الْآيَةُ / ٣٣

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما نهى الله تعالى عن تمني ما عند الغير ومن ذلك تمني مساواة المرأة للرجل في الميراث؛ بيّن سبحانه وتعالى هنا أنه فضل الرجال على النساء وجعل لهم القوامة عليهن، فجعل الله تعالى ذلك سبباً لاستحقاق الرجال الزيادة في الميراث عن النساء.

### سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا وَرَدَ عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الْقِصَاصِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لَطَمَ رَجُلٌ امْرَأَتَهُ، فَانْطَلَقَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: إِنَّ زَوْجِي لَطَمَنِي فَالْقِصَاصُ، قَالَ: الْقِصَاصُ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَدْنَا أَمْرًا فَأَبَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا غَيْرَهُ، حُذِّ أَيْهَا الرَّجُلُ يَبِيدُ امْرَأَتَكَ.<sup>١</sup>

و(قَوَّامُونَ) جَمْعُ قَوَّامٍ، وَالْقَوَّامُ أَبْلَغُ وَهُوَ الْقَائِمُ بِالْمَصَالِحِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّأْدِيبِ، جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الرَّجَالَ قَوَّامِينَ عَلَى النِّسَاءِ بِالْحِمَايَةِ وَالرِّعَايَةِ وَالْوَلَايَةِ وَالْكَفَايَةِ وَالتَّأْدِيبِ، يَأْمُرُونَهُنَّ بِطَاعَةِ اللَّهِ، وَيَحْذَرُونَهُنَّ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

١ - رواه الطبري، والواحد في أسباب النزول (ص: ١٥٦)



﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

بين سبحانه أَنَّ الرِّجَالَ أَفْضَلُ مِنَ النِّسَاءِ، وَلِهَذَا جَعَلَ تَعَالَى التُّبُوءَةَ مُخْتَصَّةً بِالرِّجَالِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾<sup>١</sup>.  
وَجَعَلَ الْمُلْكَ لِلرِّجَالِ دُونَ النِّسَاءِ؛ لِقَوْلِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يُفْلِحَ قَوْمٌ وَلَوْ أَمَرَهُمْ امْرَأَةٌ»<sup>٢</sup>.

وَلَمْ يَصْرَحْ اللَّهُ تَعَالَى بِتَفْضِيلِ الرِّجَالِ عَلَى النِّسَاءِ لِأَنَّ الْأَمْرَ فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ، وَسَبَبُ تَفْضِيلِ الرِّجَالِ: كَمَالُ الْعَقْلِ، وَحَسْنُ التَّدْبِيرِ، وَرِزَانَةُ الرَّأْيِ، وَمَزِيدُ الْقُوَّةِ فِي الْأَعْمَالِ وَالطَّاعَاتِ؛ وَلِذَلِكَ حُصِّوا بِالنَّبُوَّةِ وَالْإِمَامَةِ وَالْوِلَايَةِ وَإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ وَالشَّهَادَةِ فِي جَمِيعِ الْقَضَايَا وَوُجُوبِ الْجِهَادِ وَالْجَمْعَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ<sup>٣</sup>.  
﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾.

أَيُّ: وَهُمْ الْفَضْلُ عَلَيْهِنَّ بِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمُهْرِ وَالنَّفَقَاتِ الَّتِي تَلْزِمُهُمْ لِنِسَائِهِمْ.  
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «فَضَّلَهُ عَلَيْهَا بِنَفَقَتِهِ وَسَعْيِهِ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾. الصَّدَاقُ الَّذِي أُعْطَاهَا، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ قَدَفَهَا لِاعْنَاهَا، وَلَوْ قَدَفْتَهُ جُلِدَتْ؟

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِنَفْسِهِنَّ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾.

أَيُّ: فَالْمُسْتَقِيمَاتُ عَلَى الدِّينِ مِنَ النِّسَاءِ مُطِيعَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ، فَقَدَّمَ حَقَّ اللَّهِ تَعَالَى، ثُمَّ اتَّبَعَ ذَلِكَ بِحَقِّ الزَّوْجِ.

١ - سُورَةُ يُوسُفَ: الْآيَةُ / ١٠٩

٢ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ الْمَعَاذِي، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ، حَدِيثَ رَقْمٍ: ٤٤٢٥، عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣ - تَفْسِيرُ أَبِي السَّعُودِ (١٧٣ / ٢)



وَمَعْنَى الثُّبُوتِ هُنَا الطَّاعَةُ، يَعْنِي: أَنَّ كُلَّ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ، فَلَا بُدَّ وَأَنَّ تَكُونَ قَانِتَةً مُطِيعَةً، فَإِنَّ الْأَلْفَ وَاللَّامَ تُفِيدُ الْعُمُومَ؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»<sup>١</sup>.

﴿حَافِظَاتُ لِلْعَيْبِ﴾.

يَعْنِي: حَافِظَاتُ لِأَنْفُسِهِنَّ عِنْدَ عَيْبَةِ أَزْوَاجِهِنَّ عَنْهُنَّ فِي فُرُوجِهِنَّ وَأَمْوَالِهِنَّ، قَالَ قَتَادَةُ: «حَافِظَاتُ لِمَا اسْتَوَدَعْنَهُنَّ اللَّهُ مِنْ حَقِّهِ، وَحَافِظَاتُ لِعَيْبِ أَزْوَاجِهِنَّ»<sup>٢</sup>.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «الَّتِي تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تُخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ»<sup>٣</sup>.

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «مَا اسْتَفَادَ الْمُؤْمِنُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةٍ صَالِحَةٍ، إِنْ أَمَرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرَّتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبْرَتْهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصَحَتْهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا»<sup>٤</sup>.

﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾. أَي: بِحِفْظِ اللَّهِ إِيَّاهُنَّ وَمَعُونَتِهِ وَتَسَدِيدِهِ لَهُنَّ.

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ حَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتَ»<sup>٥</sup>.

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَوَصَفَهُنَّ بِأَنَّهُنَّ الْمُطِيعَاتُ الْحَافِظَاتُ لِلْعَيْبِ، ذَكَرَ مُقَابِلَهُنَّ غَيْرَ الصَّالِحَاتِ، وَهُنَّ الْعَاصِيَاتُ لِأَزْوَاجِهِنَّ؛ فَقَالَ: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾.

١ - رواه مسلم - كتاب الرضاع، باب خَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، حديث رقم: ١٤٦٧

٢ - تفسير الطبري (٦/ ٦٩٢)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٩٦٥٨، والنسائي - كتاب النكاح، أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ، حديث رقم: ٣٢٣١، بسند صحيح

٤ - رواه ابن ماجه - كتاب النكاح، بَابُ أَفْضَلِ النِّسَاءِ، حديث رقم: ١٨٥٧، بسند فيه ضعف

٥ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٦٦١، والطبراني في الأوسط - حديث رقم: ٨٨٠٥، بسند صحيح



والمراءُ بالخَوْفِ هُنَا الظَّنُّ. والمعنى: وَاللَّائِي تَنْظُونُ نُشُوزَهُنَّ... كما قيل:

أَتَانِي كَلَامٌ مَنْ نُصِيبُ بِقَوْلِهِ

\*\*\*\*\* وَمَا خِفْتُ يَا سَلَامُ أَنْكَ عَاتِي

أَيُّ: وَمَا ظَنَنْتُ.....

وقيل: المرادُ بالخَوْفِ هُنَا ضِدُّ الْأَمْنِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَاللَّائِي تَتَوَقَّعُونَ نُشُوزَهُنَّ.

وقيل: المرادُ بالخَوْفِ هُنَا الْيَقِينُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: نَخَافُونَ بِمَعْنَى تَعْلَمُونَ وَتَتَيَقَّنُونَ.

ومنه قَوْلُ أَبِي مُحَمَّدٍ الثَّقَفِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وَلَا تَدْفِنِي بِالْفَلَاةِ فَإِنِّي

\*\*\*\*\* أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَذُوقَهَا

والراجح أن المرادُ بالخَوْفِ هُنَا الْيَقِينُ؛ لِأَنَّ الشَّرْعَ إِنَّمَا رَتَبَ الْأَحْكَامَ عَلَى وَقُوعِ النُّشُوزِ لَا عَلَى تَوَقُّعِهِ.

وَالنُّشُوزُ لُغَةً: هُوَ الْإِرْتِفَاعُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا﴾، [المُجَادَلَةُ: ١١]،

أَيُّ: ارْتَفَعُوا وَأَنْهَضُوا لِلْقِتَالِ.

فَالْمَرْأَةُ النَّاشِرُ هِيَ الْمُرْتَفَعَةُ عَلَى زَوْجِهَا، التَّارِكَةُ لِأَمْرِهِ، الْمَعْرِضَةُ عَنْهُ، الْمُبْغِضَةُ لَهُ.

وَالنُّشُوزُ فِي الشَّرْعِ: عِصْيَانُ الْمَرْأَةِ زَوْجِهَا، وَالتَّرْفُّعُ عَلَيْهِ، وَإِظْهَارُ كِرَاهِيَتِهِ.

وكما يَكُونُ النُّشُوزُ مِنَ الْمَرْأَةِ يَكُونُ مِنَ الرَّجُلِ كَذَلِكَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ

بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾<sup>١</sup>.

قَالَ ابْنُ فَارِسٍ: وَنَشَرَتِ الْمَرْأَةُ اسْتَصْعَبَتْ عَلَى بَعْلِهَا، وَكَذَلِكَ نَشَرَ بَعْلِهَا: جَفَّهَا وَضَرَبَهَا.<sup>٢</sup>

١ - سُورَةُ النِّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٢٨

٢ - مَقَائِسُ اللُّغَةِ (٥ / ٤٣١)



وَالنُّشُورُ قَدْ يَكُونُ بِالْقَوْلِ، وَقَدْ يَكُونُ بِالْفِعْلِ.

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُورَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾

إِذَا ظَهَرَ الزَّوْجُ مِنْ امْرَأَتِهِ أَمَارَاتِ النُّشُورِ فليَعْظُهَا؛ بَأَنْ يَقُولَ لَهَا: اتَّقِي اللَّهَ فَإِنَّ لِي عَلَيْكَ حَقًّا، وَارْجِعِي عَمَّا أَنْتِ عَلَيْهِ، وَاعْلَمِي أَنَّ طَاعَتِي فَرَضٌ عَلَيْكَ وَنَحْوُ هَذَا، وَلِيُحَوِّفَهَا عِقَابَ اللَّهِ فِي عَصْيَانِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْجَبَ عَلَيْهَا طَاعَةَ الزَّوْجِ، وَحَرَّمَ عَلَيْهَا مَعْصِيَتَهُ لِمَا لَهُ عَلَيْهَا مِنَ الْحَقِّ.

فَإِنْ أَصْرَتْ عَلَى النُّشُورِ بَعْدِ الْوَعْظِ، فَلَهُ أَنْ يَهْجُرَهَا فِي الْمَضْجَعِ، فَإِنْ أَصْرَتْ عَلَى النُّشُورِ فَلَهُ أَنْ يَضْرِبَهَا ضَرْبًا غَيْرَ مُبْرِحٍ، وَالْحِكْمَةُ فِي هَذَا التَّرْقِي مِنَ الْوَعْظِ إِلَى الْهَجْرِ إِلَى الضَّرْبِ، أَنَّ مِنَ النِّسَاءِ مَنْ تَتَأَثَّرُ بِالْمَوْعِظَةِ فَتَتُوبُ إِلَى اللَّهِ بِكَلِمَةِ اتَّقِي اللَّهَ، وَعِنْدَ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ لَهُ الْهَجْرُ وَلَا الضَّرْبُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَلِينُ عَرِيكَتُهَا، إِلَّا بِالْهَجْرِ فِي الْفِرَاشِ، فَإِنْ اسْتَجَابَتْ فَلَا يَحِلُّ لَهُ الضَّرْبُ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَا تَتُوبُ إِلَى رَشْدِهَا إِلَّا إِذَا ضَرَبَهَا الزَّوْجُ، وَالضَّرْبُ وَإِنْ كَانَ مُبَاحًا، إِلَّا أَنْ تَرَكَهُ أَفْضَلَ؛ لِمَا وَرَدَ عَنْ إِيَّاسِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي دُبَابٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّهِ» فَجَاءَ عُمَرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ذَرِّزْنَا النِّسَاءَ عَلَى أَرْوَاجِهِنَّ، فَرَحَّصَ فِي ضَرْبِهِنَّ، فَأَطَافَ بِآلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونَ أَرْوَاجِهِنَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَقَدْ طَافَ بِآلِ مُحَمَّدٍ نِسَاءً كَثِيرًا يَشْكُونَ أَرْوَاجِهِنَّ لَيْسَ أَوْلَيْكَ بِخِيَارِكُمْ».

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾

يَعْنِي: إِذَا اسْتَجَابَتِ الْمَرْأَةُ وَأَطَاعَتِ زَوْجَهَا فِي جَمِيعِ مَا يُرِيدُ مِنْهَا، مِمَّا أَبَاحَهُ اللَّهُ لَهُ مِنْهَا، فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا بَعْدَ ذَلِكَ، لَا بِالْهَجْرِ وَلَا بِالضَّرْبِ.

١ - رواه أبو داود - كتاب النِّكَاحِ، بَابُ فِي ضَرْبِ النِّسَاءِ، حَدِيثُ رَقْم: ٢١٤٦، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ



فَإِنَّ التَّأْدِيبَ فِي الْآيَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ، قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَعْظُمُهَا بِلِسَانِهِ، فَإِنْ انْتَهَتْ فَلَا سَبِيلَ لَهُ عَلَيْهَا، فَإِنْ أَبَتْ هَجَرَ مَضْجَعَهَا، فَإِنْ أَبَتْ ضَرْبَهَا، فَإِنْ لَمْ تَتَّعِظْ بِالضَّرْبِ بَعَثَ الْحَكَمِينَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾.

تذليلٌ فِيهِ تَهْدِيدٌ لِلرِّجَالِ إِذَا بَعَا عَلَى النِّسَاءِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، فَإِنَّ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْكَبِيرَ، سَيَنْتَقِمُ مِمَّنْ ظَلَمَهُنَّ وَبَعَى عَلَيْهِنَّ، فَهُوَ أَقْدَرُ عَلَيْكُمْ مِنْكُمْ عَلَيْهِنَّ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الطَّبَاقُ بَيْنَ: (الرِّجَالِ) (النِّسَاءِ)، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾.

وَصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ فِي: (قَوَّامُونَ) ؛ لِأَنَّ فِعَالَ مِنْ صِيغِ الْمُبَالَغَةِ.

وَالجُمْلَةُ الْإِسْمِيَّةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ لِإِفَادَةِ الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ.

وَالتَّرْقِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾، فَبَدَأَ بِالْوَعْظِ وَهُوَ أَخْفُ ثُمَّ الْهَجْرُ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ، ثُمَّ الضَّرْبُ وَهُوَ أَشَدُّ الثَّلَاثَةِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللهُ بَيْنَهُمَا إِنْ اللهُ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٣٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى نُشُوزَ الزَّوْجَةِ وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ مِنْ خِلَافٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، ذَكَرَ تَعَالَى الْحَالَ الثَّانِيَّ وَهُوَ: إِذَا كَانَ النُّشُورُ وَالْمُخَاصَمَةُ مِنَ الزَّوْجَيْنِ، وَلَيْسَ نُشُورًا مِنَ الْمَرْأَةِ؛ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا.....﴾.

وَالشِّقَاقُ مَصْدَرُ شَقَّ، وَهُوَ: الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّقِّ وَسُمِّيَ شِقَاقًا؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا قَصَدَ شِقًّا أَيْ: نَاحِيَةَ غَيْرِ شِقِّ صَاحِبِهِ.

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مُشْتَقًّا مِنَ الشَّقِّ - بِفَتْحِ الشَّيْنِ - وَهُوَ الصَّدْعُ وَالتَّفَرُّقُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: شَقَّ الْخَوَارِجُ عَصَا الْمُسْلِمِينَ أَيْ: فَرَّقُوا جَمَاعَتَهُمْ وَكَلَمَتَهُمْ، بَأَنَّ يَفْعَلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا يَشُقُّ عَلَى صَاحِبِهِ.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا.....﴾.

مَعْنَاهُ: وَإِنْ وَقَعَ الشِّقَاقُ بَيْنَهُمَا...، وَأُضِيفَ الْمَصْدَرُ: ﴿شِقَاقٌ﴾، إِلَى الظَّرْفِ: ﴿بَيْنَهُمَا﴾. لِحُصُولِهِ فِيهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾<sup>١</sup>.

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾.

الْحَكَمُ: هُوَ مَنْ يَصْلُحُ لِلْفَصْلِ بَيْنَ النَّاسِ وَالْإِصْلَاحِ.

وَالخِطَابُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَابْعَثُوا﴾. لِلْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّمَا جَعَلَ اللهُ تَعَالَى الْحَكَمَ مِنَ الْأَهْلِ؛ لِأَنَّهُ أَعْرَفُ بِأَحْوَالِهِمَا، وَتَسَكَّنُ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلِيَطَّلِعَ عَلَى مَا فِي نَفْسِ صَاحِبِهِ، مِنْ حُبٍّ وَبُغْضٍ وَإِرَادَةٍ صُحْبَةٍ وَفُرْقَةٍ.



﴿إِنَّ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾.

والاقتصار على ذكر الإصلاح والتوفيق دون التفريق ترغيباً فيه وحثاً عليه، فإنَّ للحَكَمَيْنِ الجَمْعَ والتَّفْرِقَ على الصحيح، وهو قولُ جُمُهورِ العُلَمَاءِ، وَقِيلَ: الحَكَمَانِ يُحَكَّمَانِ فِي الجَمْعِ وَلَا يُحَكَّمَانِ فِي التَّفْرِيقِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يَبْعَثُوا رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الرَّجُلِ، وَرَجُلًا مِثْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَرْأَةِ، فَيَنْظُرَانِ أَيُّهُمَا الْمُسِيءُ، فَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ هُوَ الْمُسِيءُ، حَجَبُوا عَنْهُ امْرَأَتَهُ وَقَصَرُوهُ عَلَى النِّفْقَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ هِيَ الْمُسِيئَةُ، قَصَرُوهَا عَلَى زَوْجِهَا وَمَنَعُوهَا النِّفْقَةَ. فَإِنْ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمَا عَلَى أَنْ يُفَرَّقَا أَوْ يُجْمَعَا، فَأَمْرُهُمَا جَائِزٌ. فَإِنْ رَأَى أَنْ يُجْمَعَا، فَرَضِيَ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ وَكَرِهَ ذَلِكَ الْآخَرَ، ثُمَّ مَاتَ أَحَدُهُمَا، فَإِنَّ الَّذِي رَضِيَ يَرِثُ الَّذِي كَرِهَ وَلَا يَرِثُ الْكَارِهُ الرَّاضِيَ.<sup>١</sup>

قال الراغب: وفي الآية دلالة على أن كُلَّ أمرٍ وقع فيه تنازع يجوز فيه التحكيم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَبِيرًا﴾.

أي: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ، حَبِيرًا بِمَا فِي نَفْسِهِمْ، حَكِيمًا فِي تَشْرِيْعِهِ لَهُمْ.

١ - زَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٣/ ٩٤٥)، وَابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ (٦/ ٧٢٣)



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَحُورًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٣٦

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَى النِّسَاءِ وَأَدَاءِ حَقُوقِهِنَّ، وَهِيَ أَحْكَامٌ خَاصَّةٌ، ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا جَمَلَةً مِنَ الْأَحْكَامِ الْعَامَةِ الَّتِي تَلْزِمُ كُلَّ مُسْلِمٍ، فَبَدَأَ بِالْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ تَعَالَى، وَالتَّهْيِي عَنِ الشَّرِكِ بِهِ تَعَالَى ثُمَّ أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى النَّاسِ عَامَةً، وَقَدَّمَ الْإِحْسَانَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عَلَى غَيْرِهِمَا لِمَا لِهَئِهِمَا مِنَ الْفَضْلِ.

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا...﴾.

تَعْرِفُ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةِ الْحَقُوقِ الْعَشْرَةِ؛ لِأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى عَشْرَةِ حَقُوقٍ بَدَأَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْأَمْرِ بِعِبَادَتِهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِالْحَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾<sup>١</sup>.

وَلِأَنَّهُ الْمُنْعَمُ الْعَظِيمُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾<sup>٢</sup>.

وَهُوَ الرَّازِقُ الْكَرِيمُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾<sup>٣</sup>.

وَلِأَنَّهُ الْخَالِقُ وَالرَّازِقُ وَالْمُنْعَمُ، فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ.

وَالْعِبَادَةُ هِيَ: اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ؛ كَمَا قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ رَحِمَهُ اللَّهُ.

١ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ١٧

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ٥٣

٣ - سُورَةُ فَاطِمٍ: الْآيَةُ / ٣



وهي: كمال الطاعة مع كمال الحب والذل؛ كما قال ابن ابن القيم رحمه الله.

ثم نَهَى تَعَالَى عَنِ الشَّرِكِ بِكُلِّ صُورِهِ؛ فَقَالَ: ﴿وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فَإِنَّ لَفْظَ: ﴿شَيْئًا﴾، نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَفِيدُ الْعُمُومَ، وَهَذَا حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ فَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا مُؤَخَّرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا»، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ، وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لَا يُعَدِّبَهُمْ»<sup>١</sup>.

ومن خطر الشرك أنه من أعظم أسباب حبوط الأعمال؛ كما قال الله تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ»<sup>٣</sup>.

وَمِنَ الشَّرِكِ الرِّبَا؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتَشْهَدَ، فَأَتَى بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتَشْهَدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ

١ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، حديث رقم: ٢٨٥٦، ومسلم - كتاب الإيمان،

باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، حديث رقم: ٣٠

٢ - سورة المؤمنون: الآية/ ١١٧

٣ - رواه مسلم - كتاب الزهد والرفائق، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم: ٢٩٨٥



وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَفَهُ نِعْمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»<sup>١</sup>.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ يُسْمِعِ يُسْمِعِ اللَّهُ بِهِ»<sup>٢</sup>.

عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَحَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ؟ قَالَ: "الرِّيَاءُ يُقَالُ لِمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فَاطْلُبُوا ذَلِكَ عِنْدَهُمْ»<sup>٣</sup>.

عَنْ يَعْلَى بْنِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: «كُنَّا نَعُدُّ الرِّيَاءَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ»<sup>٤</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾.

ثم أمر الله تعالى بالإحسان للوالدين لأنهما أولى الناس بالطاعة والشكر بعد الله تعالى، وأحقُّ الناس بالإحسان والرحمة لأنَّ الله تعالى جعلهما سبباً لوجود الولد، ولما يتصفان به من كمال الشفقة والرحمة به؛ لذلك قرن الله تعالى بين عبادته والإحسان إليهما في عدة مواضع من

١ - رواه مسلم - كتابُ الإمارة، بابُ مَنْ قَاتَلَ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، حديث رقم: ١٩٠٥

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ١١٣٥٧، والترمذي - أبوابُ الرُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، حديث رقم: ٢٣٨١، بسند صحيح

٣ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٤٣٠١

٤ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٧١٦٠، الأوسط - حديث رقم: ١٩٦، والبيهقي في شعب الإيمان - حديث

رقم: ٦٤٢٥



كتابه؛ كما في هذه الآية؛ وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾<sup>١</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾<sup>٢</sup>.

وَقَرَنَ بَيْنَ شُكْرِهِ وَشُكْرِهِمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾<sup>٣</sup>.

وقدّم تعالى الجارّ والمجرور في قوله: تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ لillahتمام بشأهما والمبالغة في رعايتهما.

وعُدّي الإحسان بالبناء لتضمينه معنى البرّ، والتقدير: وأحسنوا للوالدين برّاً بهما وعطفاً عليهما.

وقوله تعالى هنا: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ مجمل بيّنه تعالى بقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إمّا يبلعن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفّ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً (٢٣) واحفض لهما جناح الذلّ من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً<sup>٤</sup>.

وللإحسان بالوالدين صور كثيرة منها أن يقوم بخدمتهما، وأن يخفض صوته عندهما، وأن يسعى في طلب مرضاتهما، وأن يطيعهما فيما لا معصية لله فيه، وأن ينفق عليهما بقدر طاقته.

وفي الكلام حذف مقدر؛ قال الزمخشري: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ أي: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً.<sup>٥</sup>

١ - سورة البقرة: الآية/ ٨٣

٢ - سورة الإسراء: الآية/ ٢٣

٣ - سورة لقمان: الآية/ ١٤

٤ - سورة الإسراء: الآية/ ٢٣، ٢٤

٥ - تفسير الزمخشري (٢/ ٦٥٧)



قوله تعالى: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾.

أبي: وأمر الله تعالى بالبرِّ بِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فَقِيرًا؛ اسْتِبْقَاءً لِأَوْاصِرِ الْوَدِّ بَيْنَ الْأَقْرَابِ.

وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ﴾. [البقرة: ٨٣]، وقال هنا: ﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾. بزيادة الباء للتوكيد والمبالغة؛ لِأَنَّهَا فِي حَقِّ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَآيَةُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي حَقِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاعْتِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَىٰ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ أَكْثَرَ مِنْ اعْتِنَائِهِ بِغَيْرِهَا.<sup>١</sup>

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾.

ثم أمر الله تعالى بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَىٰ مَا يَتَصِفُونَ بِهِ مِنَ الصِّعْرِ، وَفَقْدِ مَنْ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ. وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ وَالْوُسْطَىٰ.<sup>٢</sup>

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَوْ لِعِيزِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ» وَأَشَارَ مَالِكٌ بِالسَّبَابَةِ وَالْوُسْطَىٰ.<sup>٣</sup>

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾.

الْمَسَاكِينُ هُمُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ، وَذَكَرَ الْمَسَاكِينَ يَشْمَلُ الْوَصِيَّةَ بِالْفُقَرَاءِ مِنْ بَابِ أُولَى، فَهَمُّ أَشَدُّ فَاقَةً، وَأَكْثَرُ احتياجًا ما الْمَسَاكِينِ، فففيه تنبيه بالأدنى على الأعلى.

وَقَدَّمَ اللَّهُ تَعَالَى الْيَتِيمَ فِي الدِّكْرِ عَلَى الْمَسْكِينِ؛ لِأَنَّ الْمَسْكِينِ قَدْ يَسْأَلُ النَّاسَ وَيَبِينُ لَهُمْ فَاقَتَهُ بِخِلَافِ الْيَتِيمِ.

١ - البحر المحيط في التفسير (٣ / ٦٣١)

٢ - رواه البخاري - كتاب الأدب، باب فضل من يعول يتيماً، حديث رقم: ٦٠٠٥

٣ - رواه مسلم - كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، حديث رقم: ٢٩٨٣



﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾.

ثم أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجار، والقيام بحقه، ومراعاة ذمته، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُورَّثُهُ»<sup>١</sup>.

﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾، يَعْنِي: الْقَرِيبَ، ﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾، يَعْنِي: الْعَرِيبَ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾، يَعْنِي: الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قُرَابَةٌ، ﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾، الَّذِي لَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قُرَابَةٌ.

وَقَالَ تَوْفُّ الْبِكَالِيِّ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى﴾، يَعْنِي: الْمُسْلِمَ، ﴿وَالْجَارِ الْجُنْبِ﴾، يَعْنِي: الْيَهُودِيَّ وَالنَّصْرَانِيَّ.

وَحَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ مِنْ ظَلَمِ الْجَارِ وَانْتِهَاكِ حَرَمَتِهِ؛ فَعَنْ الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَأَنْ يَزْنِيَ الرَّجُلُ بِعَشْرِ نِسْوَةٍ أَيْسُرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَزْنِيَ بِامْرَأَةِ جَارِهِ، وَلَأَنْ يَسْرِقَ مِنْ عَشْرَةِ أَبْيَاتٍ أَيْسُرُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَسْرِقَ مِنْ بَيْتِ جَارِهِ»<sup>٢</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: هُوَ جَلِيسُكَ فِي الْحَضَرِ، وَرَفِيقُكَ فِي السَّفَرِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هُوَ الرَّفِيقُ الصَّالِحُ. وَقَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هُوَ الَّذِي يَصْحَبُكَ وَيَلْزُمُكَ رَجَاءً نَفْعًا.

١ - رواه البخاري - كتاب الأدب - باب الوصاة بالجار، حديث رقم: ٦٠١٤، ومسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب

الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٥

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٣٨٥٤، والطبراني في الكبير - حديث رقم: ٦٠٥، والأوسط - حديث رقم: ٦٣٣٣،

والبرز - حديث رقم: ٢١١٥، والبخاري في الأدبي المفرد - باب حق الجار، حديث رقم: ١٠٣، بسند صحيح



وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ وَابِنٍ مَسْعُودٍ وَابْنُ أَبِي لَيْلَى: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾. الرَّوَجَةُ.

والراجح أنه يشمل ذلك كله؛ قال الزمخشري: وهو الذي صحبك بأن حصل بجانبك إما رفيقاً في سفر، وإما جارا ملاًصفاً، وإما شريكاً في تعلم علم أو حرفة، وإما قاعداً إلى جنبك في مجلس أو مسجد أو غير ذلك، من أدنى صحبة التآمت بينك وبينه، فعليك أن ترعى ذلك الحق ولا تنساه وتجعل ذريعة إلى الإحسان.<sup>١</sup>

﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

السَّبِيلُ الطَّرِيقُ، وَابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَسَافِرُ الَّذِي انْقَطَعَ عَنِ بَلَدِهِ، وَنُسِبَ إِلَى السَّبِيلِ لِمُرُورِهِ عَلَيْهِ وَلُزُومِهِ إِيَّاهُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ: هُوَ الَّذِي يَمُرُّ عَلَيْكَ مُجْتَازًا فِي السَّفَرِ.

وَوَصَّى اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ ضَعِيفُ الْحِيلَةِ، قَلِيلُ النَّصِيرِ.

قال القرطبي: وَمِنَ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ إِعْطَاؤُهُ وَإِرْفَاقُهُ وَهِدَايَتُهُ وَرُشْدُهُ.<sup>٢</sup>

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الضَّيْفُ. وَالرَّاجِحُ الْأَوَّلُ.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

يعني العبيد الأرقاء، ونُسبَ الملكُ إلى اليمين لأنها التي تكون للبطش والتملك عادةً.

وأمر الله تعالى بالإحسان إلى المماليك لقلة حيلتهم، وضعفهم وحاجتهم، وذلمهم بالرق.

وَالْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ يَكُونُ بَأَلَا يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ، وَأَلَا يُؤْذِيهِمْ بِالْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ، وَأَنْ يَطْعَمَهُمْ مِمَّا يَأْكُلُ، وَيَلْبَسَهُمْ مِمَّا يَلْبَسُ.

١ - تفسير الزمخشري (١ / ٥٠٩)

٢ - تفسير القرطبي (٥ / ١٨٩)



عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُؤَيْدٍ، قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ بِالرَّبَذَةِ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ، وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَحْوَهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبَسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَتْ عَامَةٌ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ، وَهُوَ يُعْرِضُ بِنَفْسِهِ «الصَّلَاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»<sup>٢</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

وَالْمُخْتَالُ ذُو الْخِيَلَاءِ، وَالْإِخْتِيَالُ: التَّكَبُّرُ. وَالْفَخُورُ: الَّذِي يَعُدُّ مَنَاقِبَهُ كِبْرًا.

هذا أعظم نهي عن الفخر والخيلاء، فإخبار الله تعالى عن عدم محبته لمن هذه صفته أعظم أثرًا، وأشدَّ وقعًا من مجرد النهي عن الفخر والخيلاء.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ ثَلَاثَةً، وَيُبْغِضُ ثَلَاثَةً: يُبْغِضُ الشَّيْخَ الرَّزِي، وَالْفَقِيرَ الْمُخْتَالَ، وَالْمُكْتَبِرَ الْبَخِيلَ، وَيُحِبُّ ثَلَاثَةً: رَجُلٌ كَانَ فِي كِتَابَةٍ، فَكَرَّ يَحْمِيهِمْ حَتَّى قُتِلَ، أَوْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ كَانَ فِي قَوْمٍ فَأَدْجُوا فَنَزَلُوا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَكَانَ النَّوْمُ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِمَّا يُعَدُّ بِهِ، فَنَامُوا وَقَامَ يَتْلُو آيَاتِي وَيَتَمَلَّقُنِي، وَرَجُلٌ كَانَ فِي قَوْمٍ فَأَتَاهُمْ

١ - رواه البخاري - كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بازتكائها إلا بالشرك، حديث رقم: ٣٠، ومسلم - كتاب الإيمان، باب إطعام المملوك مما يأكل، واللباسه مما يلبس، ولا يكلفه ما يغلبه، حديث رقم:

١٦٦١

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٢١٦٩، وابن ماجه - كتاب الوصايا، باب هل أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٦٩٧، والحاكم - كتاب المعاري والسرائيا، حديث رقم: ٤٣٨٨، بسند صحيح



رَجُلٌ يَسْأَلُهُمْ بِقَرَابَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَبَخِلُوا عَنْهُ، وَخَلَفَ بِأَعْقَابِهِمْ فَأَعْطَاهُ حَيْثُ لَا يَرَاهُ إِلَّا اللَّهُ  
وَمَنْ أَعْطَاهُ " ١ .

قال القرطبي: وَحَصَّ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ بِالذِّكْرِ هُنَا لِأَنَّهُمَا تَحْمَلَانِ صَاحِبَيْهِمَا عَلَى الْأَنْفَةِ مِنْ  
الْقَرِيبِ الْفَقِيرِ وَالْجَارِ الْفَقِيرِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ ذُكِرَ فِي الْآيَةِ فَيَضِيعُ أَمْرُ اللَّهِ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ.  
الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: تقديم الجارِّ والمجرور في قوله: تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛  
لِلْإِهْتِمَامِ بِشَأْنِهِمَا وَالْمَبَالِغَةِ فِي رِعَايَتِهِمَا.

والتضمين في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾؛ حيثُ عُدِّيَ الْإِحْسَانُ بِالْبَاءِ لِتَضْمِينِهِ مَعْنَى  
الْبِرِّ، وَالتَّقْدِيرُ: وَأَحْسِنُوا لِلْوَالِدَيْنِ بِرًّا بِهِنَّ وَعَطْفًا عَلَيْهِمَا.

وَالْإِجْمَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ بَيْنَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا  
إِيَّاهُ.....﴾.

وحذف الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وتقديره: وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.

١ - رواه أحمد- حديث رقم: ٢١٣٥٥، والنسائي- كتاب قيام الليل وتطوع النهار، فضل صلاة الليل في السفر،  
حديث رقم: ١٦١٥، والحاكم- كتاب الجهاد، حديث رقم: ٢٥٣٢، وابن خزيمة- كتاب الزكاة المختصر من المختصر  
من المسند على الشريعة التي ذكرتها في أول الكتاب، باب ذكر حب الله عز وجل المحفي بالصدقة، حديث رقم:  
٢٤٥٦، وابن حبان- كتاب الزكاة، باب صدقة التطوع، ذكر محبة الله جلَّ وعلا للمتصدق إذا تصدق لله سرًّا أو تهجد  
لله سرًّا، حديث رقم: ٣٣٤٩، والبيهقي- حديث رقم: ٤٠٢٧، بسند صحيح



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٣٧

مناسبة الآية لما قبلها:

مناسبة الآية لما قبلها أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالْإِحْسَانِ إِلَى الْوَالِدَيْنِ وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ وَالصَّاحِبِ وَابْنِ السَّبِيلِ، بَيَّنَّ هُنَا حَالَ مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ تَعَالَى وَأَنَّهُمْ يَنْقَسِمُونَ إِلَى قِسْمَيْنِ. الْأَوَّلُ: الْبُخْلَاءُ يَبْخُلُونَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ. وَالثَّانِي: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ...﴾، بَدَلَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا﴾، وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا وَلَا يُحِبُّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ.

وَالْبُخْلُ لُغَةً: مَنَعُ الْإِحْسَانِ، وَشَرَعًا: مَنَعُ بَذْلِ الْوَاجِبِ.

قَالَ طَاوُسُ الْبُخْلُ: أَنْ يَبْخُلَ الْإِنْسَانُ بِمَا فِي يَدَيْهِ، وَالشُّخُّ: أَنْ يَشِخَّ عَلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ. نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ لِأَنَّهُمْ كَتَمُوا اسْمَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتَهُ وَمَنْ يُبَيِّنُوهُ لِلنَّاسِ، وَهُمْ يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ. وَقِيلَ: هِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ يَبْخُلُ وَيَأْمُرُ غَيْرَهُ بِالْبُخْلِ، مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ.

وَنَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْبُخْلِ لِأَنَّهُ أَدْوَأُ دَاءٍ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي عُبَيْدٍ؟»، قَالُوا: الْجَدُّ بْنُ قَيْسٍ عَلَى أَنَّ فِيهِ بُخْلًا، قَالَ: «فَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ، بَلَّ سَيِّدُكُمْ بِشَرِّ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ»<sup>١</sup>.

١ - رواه الحاكم في المستدرک - ذَكَرَ مَنَاقِبَ بَشْرِ بْنِ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَدِيثَ رَقْمٍ: ٤٩٦٥، الطبراني في الكبير - حَدِيثَ رَقْمٍ: ١٢٠٣، والبيزار - حَدِيثَ رَقْمٍ: ٨٠٠٨، وقال الحاكم: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَمَنْ يُخْرِجَاهُ.



ولأنه ينافي الإيمان؛ فعن صفوان بن سليم، أنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ فَقَالَ: «نَعَمْ»، فَقِيلَ لَهُ: «أَيْكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟» فَقَالَ: «لَا».<sup>١</sup>

وَحَدَّثَ تَعَالَى مِنَ الشُّحِّ؛ لَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَلَاكِ الْأُمَمِ؛ عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ».<sup>٢</sup>

الْكِتْمَانُ: الْإِخْفَاءُ وَالسَّتْرُ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.<sup>٣</sup>

لما وصفهم الله تعالى بالبخل، ذكر لهم صفة ملازمة للبخل لا تنفك عنه وهي جحود النعمة، فالبخيل جحود لنعم الله فلا يظهر عليه شيء منها؛ والواجب على المؤمن أن يظهر عليه أثر نعم الله تعالى؛ كما ثبت عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ».<sup>٤</sup>

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

أَصْلُ أَعْتَدْنَا أَعْدَدْنَا، أُبْدِلَتِ الدَّالُ الْأُولَى تَاءً، لِثِقَلِ اجْتِمَاعِ الدَّالَيْنِ.

الْمُرَادُ بِالْكَفْرِ هُنَا كُفْرُ النِّعْمَةِ؛ لِأَنَّهُ أَثَرُ جِحُودِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقِيلَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْكَفْرِ لِكَتْمَانِهِمْ اسْمَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصِفَتِهِ، عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ أَهْلَ الْكِتَابِ. وَوَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَذَابَهُمُ بِالْمُهِينِ لِمَا اتَّصَفُوا بِهِ مِنَ الْفُخْرِ وَالْحَيْلَاءِ.

١ - رواه مالك في الموطأ - كتاب الكلام، باب ما جاء في الصدق والكذب، حديث رقم: ١٩، والبيهقي في شعب الإيمان - حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، حديث رقم: ٤٤٧٢  
٢ - رواه مسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث رقم: ٢٥٧٨  
٣ - سورة النساء: الآية/ ٤٢  
٤ - رواه الترمذي - أبواب الأدب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، حديث رقم: ٢٨١٩، بسند صحيح



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا (٣٨) وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾. سورة النساء: الآية / ٣٨، ٣٩

ولما ذكر الله تعالى البخلاء الأشحّة، وذمهم أبلغ ذمّ، ذكّر المرائين الذين ينفقون أموالهم ولا يقصدون بالإففاق وجه الله تعالى، بل يريدون الرياء والسّمعة، وأنّ يمدحوا بالكرم، وأعيد الاسم الموصول للدلالة على اختلاف الأصناف، مع تباین الحالين.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: يراءون الناس لأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر إيماناً حقيقياً، لأنهم منافقون، والعطف هنا عطف السبب على المسبب.

وفي الآية ترقى من القبح إلى الأقبح، فبدأً أولاً بالبخل، ثمّ بالأمر به، ثمّ بكتمان فضل الله، ثمّ بالإففاق رياءً، ثمّ بالكفر بالله وباليوم الآخر.

﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

ولما اجتمعت فيهم تلك الأوصاف المذمومة، من البخل، والشح، وكتمان فضل الله، والرياء، والكفر بالله وباليوم الآخر، دل ذلك على مقارنّة الشياطين لهم، استحواذها عليهم، وأنها هي التي تُزيّن لهم القبائح، وتؤزهم على الكفر أزا، فقال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾.

والقرين: هو المقارن، أي: الصاحب الملائم، وهو أعدى من الجرب؛ قال عدي ابن زيد:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَلَا تَسْأَلُ عَنْ قَرِينِهِ

\*\*\*\*\* فكلُّ قرينٍ بالمقارنِ يفتدي



﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

أَيُّ: وَأَيُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، تَلَطَّفَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الْكُفْرِ بِتَعَالَى، وَأَمَرَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾، سؤالُ الغرضِ منه الإنكارُ والتوبيخُ.

﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾.

أَيُّ: وَأَيُّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ لَوْ بَدَلُوا الْأَمْوَالَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهَا مِمَّا تَفَضَّلَ بِهِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾.

جَمَلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ الْغَرْضُ مِنْهَا التَّهْدِيدُ عَلَى سُوءِ اعْتِقَادِهِمْ، وَفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ، وَقَبِيحِ أَعْمَالِهِمْ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الترقِّي من القبيح إلى الأفتح في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، فَبَدَأَ أَوَّلًا بِالْبُخْلِ، ثُمَّ بِالْأَمْرِ بِهِ، ثُمَّ بِكَيْتَمَانِ فَضْلِ اللَّهِ، ثُمَّ بِالْإِنْتِقَاقِ رِئَاءَ، ثُمَّ بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

والاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾، الغرض منه التحذير من فساد حالهم.

والسؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، للإنكار والتوبيخ.

والسؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾، الغرض منه الإنكار والتوبيخ.

والاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾، الغرض منه التهديد على سوء اعتقادهم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤٠

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما أمر الله تعالى بالإحسان ورغب فيه، ونهى عن الكفر والنفاق وحدّر منه، أخبر تعالى عن كمال عدله، وأنه لا يظلم أحداً من خلقه شيئاً ولو بقدرٍ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ، بَلْ يُؤْفِقُهُ إِيَّاهَا وَيُضَاعِفْهَا لَهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾<sup>١</sup>.

والمِثْقَالُ مِثْقَالٌ مِنَ الثَّقَلِ كالميزانِ مِنَ الْوِزْنِ، والمِقْدَارُ مِنَ الْقَدْرِ، والذرة هي الهباءة التي ترى في شعاع الشمس، وهي أصغر ما يدرك من الأجسام.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾، تنبيه بالأدنى على الأعلى، وَالْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَظْلِمُ أَحَدًا قَلِيلًا وَلَا كَثِيرًا؛ وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ أَحَدٍ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا...﴾<sup>٢</sup>.

والأصل أن الفعل (يَظْلِمُ) يتعدى لمفعول واحد، وتعدى هنا لمفعولين؛ لأن تقدير الكلام: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ)؛ لِأَنَّهُ ضُمِّنَ الْفِعْلُ يَظْلِمُ مَعْنَى يَنْقُصُ؛ فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ أَحَدًا فَيُنْقِصُ أَجْرَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ).

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾.

أَصْلُ (تَكَ): (تَكُنُّ) حُذِفَتْ مِنْهَا النُّونُ لِكَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ، وَجَاءَ الْقُرْآنُ بِالْحَذْفِ وَالْإِثْبَاتِ.

وفي الكلام حذفٌ إيجازٍ تقديره: وَإِنْ تَكَ الذَّرَّةُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا.

ومضاعفة الحسنات من عظيم فضل الله تعالى، ومن تمام إحسانه بال صالحين من عباده؛ كما روى البخاري ومسلم عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا

١ - سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: الْآيَةُ / ٤٧

٢ - سُورَةُ يُونُسَ: الْآيَةُ / ٤٤



يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَّ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أضعافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمَلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

يَعْنِي: يُعْطِي مَنْ عِنْدِهِ أَجْرًا عَظِيمًا، والفرق بين (مِنْ لَدُنْهُ)، و (مِنْ عِنْدِهِ)، أَنَّ (مِنْ لَدُنْهُ) أَقْوَى فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قَوْلِهِمْ: (مِنْ عِنْدِهِ)؛ لِأَنَّهُ يُقَالُ: عِنْدِي مَالٌ وَقَدْ يَكُونُ الْمَالُ يَبْدَأُ آخَرَ، وَلَا يُقَالُ: لَدَيَّ مَالٌ إِلَّا إِذَا كَانَ حَاضِرًا.

وَالْأَجْرُ الْعَظِيمُ هُوَ الْجَنَّةُ؛ كَمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ.

#### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: تأكيد النفي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾؛ لتنزيه الله تعالى عن الظلم ولو كان قليلاً.

والتنبيه بالأدنى على الأعلى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾، فإن كان لا يظلم مثقال ذرة فهو لا يظلم ما هو أكبر منها من باب أولى.

وحذف الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾، وتقديره: وَإِنْ تَكُ الذَّرَّةُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾. سُورَةُ التَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤١، ٤٢

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما بين الله تَعَالَى أَنَّهُ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَأَنَّهُ يُجَازِي الْمُحْسِنَ عَلَى إِحْسَانِهِ وَيَزِيدُهُ مِنْ فَضْلِهِ، بَيَّنَّ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ يَجْرِي بِشَهَادَةِ الرَّسُولِ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَى الْخَلْقِ، لِتَكُونَ الْحُجَّةُ عَلَى الْمَسِيءِ أَبْلَغَ، وَالتَّبَكُّيْتُ لَهُ أَعْظَمَ وَحَسْرَتُهُ أَشَدَّ، وَيَكُونُ سُرُورٌ مَنْ قَبْلَ ذَلِكَ مِنَ الرَّسُولِ وَأَظْهَرَ الطَّاعَةَ أَعْظَمَ.<sup>١</sup>

يَخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَّةِ الْأَمْرِ فِيهِ، فيقول: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ...﴾. وفي الكلام حذفٌ تَقْدِيرُهُ: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ، أَي: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يَجِيءُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ يَشْهَدُ عَلَيْهِ؟ وَهُوَ سُؤَالُ الْعَرَضِ مِنْهُ التَّوْبِيحُ وَالتَّفْرِيعُ.

والمرادُ بِالْأُمَّةِ هُنَا أُمَّةُ الدَّعْوَةِ وَهُمْ مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ فيشملُ ذَلِكَ الْمُؤْمِنَ وَالْكَافِرَ.

وقد أخبر الله تعالى أن الأنبياء عليهم السلام يشهدون على أقوامهم يوم القيامة؛ كما ذكر الله تعالى هنا، وكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.<sup>٢</sup> وتشهدُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ بِالْبَلَاغِ، وَيَشْهَدُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأُمَّتِهِ بِالتَّصَدِيقِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.<sup>٣</sup>

١ - تفسير الرازي (١٠ / ٨٣)

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ٨٩

٣ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ١٤٣



وَقَاصَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شَفَقَةً عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ هَوْلِ ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَ قَرَأَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ هَذِهِ الْآيَةَ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اقْرَأْ عَلَيَّ، وَعَلَيْكَ أَنْزِلَ، قَالَ: «نَعَمْ» فَقَرَأْتُ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، قَالَ: «حَسْبُكَ الْآنَ» فَالْتَفَتُ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَيْنَاهُ تَدْرِفَانِ.<sup>١</sup>

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

في هذا اليوم يتمنى الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ سَوَّى بِهِمُ الْأَرْضَ فَكَانُوا عَلَى ظَهْرِهَا تَرَابًا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾.<sup>٢</sup>

وقال ابنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي: أَنَّ تُسَوَّى الْأَرْضُ بِالْجِبَالِ عَلَيْهِمْ.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾.

أي: ولا يستطيعون أن يكتموا حديثًا عن الله إذا سأهم، فإذا جَحَدَتْ أَفْوَاهُهُمْ نَطَقَتْ جَوَارِحُهُمْ وشهدت عليهم؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَّا قَوْلُهُ: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا أَهْلُ الْإِسْلَامِ قَالُوا: تَعَالَوْا فَلْنَجْحَدْ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ. فَحَتَمَ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ، وَتَكَلَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ، فَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا.

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾

[النساء: ٤١]، حديث رقم: ٤٥٨٣

٢ - سُورَةُ النَّبَأِ: الْآيَةُ / ٤٠



## الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: السؤال في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ...﴾، العَرَضُ مِنْهُ التَّوْبِيحُ وَالتَّفْرِيعُ.

وحذف الاختصار في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ...﴾. وتَقْدِيرُهُ: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ يَوْمَئِذٍ؟



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤٣

### مناسبة الآية لما قبلها:

لما الله تَعَالَى بِالْعِبَادَةِ فِيمَا تَقَدَّمَ وَقَرَّحَهَا بِالْإِحْسَانِ لِعِبَادِهِ فَقَالَ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا...﴾. [النِّسَاءِ: ٣٦]، أَمْرٌ هُنَا بِالْإِحْسَانِ فِي الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ.

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: "صَنَعَ لَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ طَعَامًا فَدَعَانَا وَسَقَانَا مِنَ الْخَمْرِ، فَأَخَذَتِ الْخَمْرُ مِنَّا، وَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَقَدَمُونِي فَقَرَأْتُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] وَنَحْنُ نَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ". قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾."

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾، هَذِهِ آيَةٌ مِنْ الْآيَاتِ الَّتِي ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ الْخَمْرَ، وَهُوَ يَمْهَدُ تَعَالَى لِتَحْرِيمِهَا؛ فَقَدْ نَزَلَ أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي شَأْنِ الْخَمْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾<sup>١</sup>.

ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾<sup>٢</sup>.

ثُمَّ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

١ - سُورَةُ النَّخْلِ: الْآيَةُ / ٦٧

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢١٩



وبعد كل آية ينتظر المؤمنون بياناً شافياً في الحمر حتى نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. [المائدة: ٩٠، ٩١]. فقال المؤمنون: «انتَهينا انتهينا».

وعن أبي ميسرة، عن عمر رضي الله عنه قال: لما نزل تحريم الخمر قال عمر: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً» فنزلت الآية التي في البقرة فدعي عمر فقرأت عليه، فقال عمر: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً»، فنزلت الآية التي في النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة نادى: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾ [النساء: ٤٣] فدعي عمر فقرأت عليه فقال: «اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً»، فنزلت الآية التي في المائدة فدعي عمر فقرأت عليه، فلما بلغ ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. [المائدة: ٩١] قال عمر رضي الله عنه: «انتَهينا انتهينا»<sup>١</sup>.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى﴾.

سكاري جمع سكران، ويجمع جمع أسماء ذوي العاهات فيقال: (سكرى) وبها قرأ النحوي؛ لأن السكر آفة تلحق العقل فجرى مجرى صرعى جمع صريع، وكسرى جمع كسير، وجرى جمع جريح.

السكر هو اختلال العقل، وهو مشتق من السكر وهو العلق، لأن السكر يعلق العقل.

والمراد بالسكر هنا السكر من الشراب، خلافاً للضحك الذي قال: لم يعن بها سكر الخمر، وإنما عني بها سكر النوم؛ لأن الأصل في الكلام حملهُ على الحقيقة، والسكر من النوم مجاز.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٣٧٨، والترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة المائدة، حديث رقم: ٣٠٤٩، والنسائي - كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر، حديث رقم: ٥٥٤٠، بسند صحيح



لما نهي الله تعالى المؤمنين عن الصلاة حال السكر، ضيق عليهم وقت الشرب؛ لأنَّهم مَأْمُورُونَ بِالصَّلَاةِ فِي الْحَمْسَةِ الْأَوْقَاتِ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَلَا يَتِمَّكَتُّ مِنْ أَرَادَ شُرْبَ الْحَمْرِ مِنْ شَرِبَهَا إِلَّا لَيْلًا؛ لَيْسَهَلْ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ تَرْكُهَا إِذَا أَتَى الْأَمْرَ الْقَاطِعُ بِالنَّهْيِ عَنْهَا.

﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾.

أي: حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَهُ فِي صَلَاتِكُمْ، فَإِذَا كَانَ أَحَدُهُمْ لَا يَعْلَمُ مَا يَقُولُ فَلَا تَصِحُّ صَلَاتُهُ وَإِنْ صَلَّى قَضَى.

وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إذا كان في حالة لا يدري فيها ما يقول؛ فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ، حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ، لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبُّ نَفْسَهُ»<sup>١</sup>. وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ، فَلْيَنْصِرْفْ، فَلْيَنْمَ حَتَّى يَعْلَمَ مَا يَقُولُ»<sup>٢</sup>.

﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

قَالَ الرَّمَّحَشَرِيُّ: وَالْجُنُبُ يَسْتَوِي فِيهِ الْوَاحِدُ وَالْجَمْعُ، الْمَذَكَّرُ وَالْمُؤَنَّثُ، لِأَنَّهُ اسْمٌ جَرَى مَجْرَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ الْإِجْتَابُ.

وَقِيلَ لِلَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ الْعُسْلُ: جُنُبٌ، لِأَنَّهُ يَجْتَنِبُ الصَّلَاةَ وَالْمَسْجِدَ وَقِرَاءَةَ الْقُرْآنِ حَتَّى يَتَطَهَّرَ.

١ - رواه البخاري- كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم، ومن لم ير من النعسة والتعسيتين، أو الحفقة وضوءاً، حديث رقم: ٢١٢، ومسلم- كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، أو استعجم عليه القرآن، أو الذكركر بأن يرقد، أو يفعد حتى يذهب عنه ذلك، حديث رقم: ٧٨٦

٢ - رواه أحمد- حديث رقم: ١١٩٧١، بسند صحيح



وَعَابِرُ السَّبِيلِ هُوَ الْمَارُّ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ غَيْرِ لُبْثٍ فِيهِ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ: إِذَا لَمْ يَجِدْ طَرِيقًا إِلَّا الْمَسْجِدَ يَمُرُّ فِيهِ.<sup>١</sup>

وتقديم الاستثناء هنا لبيان أنّ حكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق كما في صورة السكر، تشويهاً إلى البيان وروماً لزيادة تقررّه في الأذهان.<sup>٢</sup>

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى﴾.

لما ذكر الله تعالى الجنابة ذكر بعدها ما يتعلق بها من أحكام ومنها بعض الأحوال، التي يتعدّد استعمال الماء، ثم ذكر تعالى حالات أربع: المرض والسفر وقضاء الحاجة والجماع.

وقوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾، وإن كان يفيد الإطلاق، إلا أنه مقيد بالمرض الذي يُخَافُ مَعَهُ إِذَا اسْتَعْمَلَ الْمَاءَ زِيَادَةَ الْمَرَضِ أَوْ تَأَخَّرَ الْبُرء.

والمراد بالسفر ما يطلق عليه في عرف الناس سفراً.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾. الْغَائِطُ: هُوَ الْمَكَانُ الْمُنْحَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ قِضَاءِ الْحَاجَةِ، وَالْمَرَادُ بِهَا الْحَدِيثُ الْأَصْغَرُ.

قال أبو السعود: وإسناد المجيء منه إلى واحد منهم من المخاطبين دونهم للتفادي عن التصريح بنسبتهم إلى ما يُستحيا منه، أو يُستهجن التصريح به.<sup>٣</sup>

﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَرِضَةٌ مِمَّا فَرَضْتُمْ﴾.<sup>٤</sup>

١ - تفسير الطبري (٧ / ٥٦)

٢ - تفسير أبي السعود (٢ / ١٨٠)

٣ - تفسير أبي السعود (٢ / ١٨٠)

٤ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٣٧



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْمَلَامَسَةُ: الْجِمَاعُ، وَلَكِنَّ اللَّهَ كَرِيمٌ يُكْتَبِي بِمَا يَشَاءُ.

وَقَرَأَ حَمْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾. بِالْقَصْرِ، وَالْمَرَادُ بِهِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مَسُّ الْبَشَرَةِ الْبَشَرَةَ، فَأَفَادَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ حِكْمًا زَائِدًا وَهُوَ مَجْرَدُ اللَّمَسِ، وَاللَّمَسُ إِنْ كَانَ بِشَهْوَةٍ نَقَضَ الْوُضُوءَ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِشَهْوَةٍ فَلَا يَنْتَقِضُ؛ لَمَا ثَبَتَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَبَّلَ بَعْضَ نِسَائِهِ، ثُمَّ حَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، وَمَ يَتَوَضَّأُ» قُلْتُ: مَا هِيَ إِلَّا أَنْتِ «فَضَحِكَتْ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُقَبِّلُ بَعْضَ أَزْوَاجِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي وَلَا يَتَوَضَّأُ»<sup>٢</sup>.  
﴿فَلَمَّ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾.

التَّيْمُّمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَصْدُ، يُقَالُ تَيَمَّمْتُ فُلَانًا وَتَيَمَّمْتُهُ وَتَيَمَّمْتُهُ وَأَيُّ قَصْدَتَهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْحَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾. [البقرة: ٢٦٧]، أَي: وَلَا تَقْصِدُوا.  
وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرْضًا \*\*\*\*\* أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي  
الْخَيْرُ الَّذِي أَنَا أَبْتَغِيهِ \*\*\*\*\* أَمْ الشَّرُّ الَّذِي هُوَ يَبْتَغِينِي

وَفِي الشَّرْعِ: هُوَ الْقَصْدُ إِلَى الصَّعِيدِ لِلطَّهَارَةِ بِهِ عِنْدَ عَدَمِ الْمَاءِ، أَوْ الْعَجْزِ عَنْ اسْتِعْمَالِهِ.  
وَالصَّعِيدُ: هُوَ كُلُّ مَا صَعَدَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ التُّرَابُ، وَمَا كَانَ مِنْ جِنْسِهِ كَالرَّمْلِ، وَالْحَجَرِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٥٧٦٦، والترمذي - أبواب الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ تَرْكِ الْوُضُوءِ مِنَ الْقُبْلَةِ، حديث رقم: ٨٦، وابن ماجه - كِتَابُ الطَّهَارَةِ وَسُنَنِهَا، بَابُ الْوُضُوءِ مِنَ الْقُبْلَةِ، حديث رقم: ٥٠٢، بسند صحيح

٢ - رواه النسائي - كِتَابُ الطَّهَارَةِ، تَرْكِ الْوُضُوءِ مِنَ الْقُبْلَةِ، حديث رقم: ١٧٠، بسند صحيح



وَالطَّيِّبُ هُنَا الطَّاهِرُ الَّذِي لَيْسَ بِنَجَسٍ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ الصَّعِيدَ الطَّيِّبَ طَهُورُ الْمُسْلِمِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدِ الْمَاءَ عَشْرَ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدَ الْمَاءَ فَلَيْمَسَهُ بِشَرَّتِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ»<sup>١</sup>.

قوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

### سَبَبُ نُزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيْمُمِ:

سَبَبُ نُزُولِ مَشْرُوعِيَّةِ التَّيْمُمِ مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، حَتَّى إِذَا كُنَّا بِالْبَيْدَاءِ - أَوْ بِذَاتِ الْجَيْشِ - انْقَطَعَ عِقْدٌ لِي، «فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى التَّمَاسِهِ، وَأَقَامَ النَّاسُ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَأَتَى النَّاسُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى مَا صَنَعْتَ عَائِشَةُ؟ «أَقَامَتْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِالنَّاسِ مَعَهُ، وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ»، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ " وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعُ رَأْسِهِ عَلَى فَخِذِي قَدْ نَامَ، فَقَالَ: حَبَسَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالنَّاسَ وَلَيْسُوا عَلَى مَاءٍ، وَلَيْسَ مَعَهُمْ مَاءٌ «، قَالَتْ فَعَاتَبَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَجَعَلَ يَطْعُنُ بِيَدِهِ فِي حَاصِرَتِي، « فَلَا يَمْنَعُنِي مِنَ التَّحَرُّكِ إِلَّا مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى فَخِذِي، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَصْبَحَ عَلَى غَيْرِ مَاءٍ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ التَّيْمُمِ فَتَيَمَّمُوا " فَقَالَ أُسَيْدُ بْنُ الْحَضِرِ: - وَهُوَ أَحَدُ النُّبَخَاءِ - « مَا هِيَ بِأَوَّلِ بَرَكَتِكُمْ يَا آلَ أَبِي بَكْرٍ » فَقَالَتْ عَائِشَةُ: « فَبَعَثْنَا الْبَعِيرَ الَّذِي كُنْتُ عَلَيْهِ فَوَجَدْنَا الْعِقْدَ تَحْتَهُ »<sup>٢</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾.

الباء لها عدة استعمالات وهي في قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾، للإلصاق على الصحيح.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢١٣٧١، وأبو داود - كتاب الطهارة، باب الجنب يتيمم، حديث رقم: ٣٣٢، والترمذي - أبواب الطهارة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب التيمم للجنب إذا لم يجد الماء، حديث رقم: ١٢٤، والنسائي - كتاب الطهارة، باب الصلوات يتيمم واحد، حديث رقم: ٣٢٢، بسند صحيح

٢ - رواه البخاري - كتاب التيمم، حديث رقم: ٣٣٤، ومسلم - كتاب الحوض، باب التيمم، حديث رقم: ٣٦٧



﴿وَأَيْدِيكُمْ﴾، من المطلق الذي قيده السنة، فإن لفظ اليد يطلق على الذراع إلى المنكب، ويطلق على الكف والساعد إلى المرفق؛ كما في آية الوضوء، ويطلق على الكفين كما في هذه الآية، والذي قيد هذا الإطلاق ما ثبت في السنة؛ فعن سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ: إِنِّي أَجَنَّبْتُ فَلَمْ أُصِبِ الْمَاءَ، فَقَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: أَمَا تَذْكُرُ أَنَا كُنَّا فِي سَفَرٍ أَنَا وَأَنْتَ، فَأَمَّا أَنْتَ فَلَمْ تُصَلِّ، وَأَمَّا أَنَا فَتَمَعَّكَتُ فَصَلَّيْتُ، فَذَكَرْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ هَكَذَا» فَضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكَفِّهِ الْأَرْضَ، وَنَفَخَ فِيهِمَا، ثُمَّ مَسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ وَكَفَّيهِ.<sup>١</sup>

قَالَ مَكْحُولٌ: اجْتَمَعْتُ أَنَا وَالزُّهْرِيُّ فَتَدَاكَّرْنَا التَّيْمَمَ فَقَالَ الزُّهْرِيُّ: الْمَسْحُ إِلَى الْآبَاطِ. فَقُلْتُ: عَمَّنْ أَخَذْتَ هَذَا؟ فَقَالَ: عَنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ فَهِيَ يَدٌ كُلُّهَا. قُلْتُ لَهُ: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾. فَمِنْ أَيْنَ تُقَطِّعُ الْيَدُ؟ قَالَ: فَحَصَمْتُهُ.

وفي هذا أبلغ ردٍّ على من يزعم أنه يمكنه الاستغناء عن السنة والاكْتِفَاءُ بِالْقُرْآنِ؛ فإن السنة بيان للقرآن كما قال تَعَالَى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.<sup>٢</sup>

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.<sup>٣</sup>

وَقَاسَ بَعْضُهُمُ التَّيْمَمَ عَلَى الْوُضُوءِ فَأَوْجَبُوهُ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَلَا يَجُوزُ الْقِيَاسُ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ التَّيْمَمِ، بَابُ: الْمَتَيْمِمُ هَلْ يَنْفَعُ فِيهِمَا؟ حديث رقم: ٣٣٨، ومسلم - كِتَابُ الْحُضْرِ، بَابُ

التَّيْمَمِ، حديث رقم: ٣٦٨

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ/ ٤٤

٣ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ/ ٦٤



وَاحْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ هَلْ يَكْفِي فِي التَّيْمُمِ ضَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ أَمْ لَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ:

الأول: التَّيْمُمُ ضَرْبَةٌ وَاحِدَةٌ وَبِهِ قَالَ عَلِيُّ، وَعَمَّارٌ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالشَّعْبِيُّ، وَعَطَاءٌ، وَمَكْحُولٌ وَهُوَ مَذْهَبُ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ.

والثاني: التَّيْمُمُ ضَرْبَتَانِ: ضَرْبَةٌ لِلْوَجْهِ وَضَرْبَةٌ لِلْيَدَيْنِ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ، وَجَابِرٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَالْحَسَنُ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَوْزَاعِيِّ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِمْ، وَالثَّوْرِيِّ وَاللَيْثِ. قَالَ وَقَالَ مَالِكٌ: إِنْ تَيَمَّمَ بِضَرْبَةٍ وَاحِدَةٍ أَجْرَاهُ.

وَالرَّاجِحُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ لِحَدِيثِ عَمَّارٍ.

والتَّيْمُمُ لِلْجَنَابَةِ مِثْلُ التَّيْمُمِ لِلْوُضُوءِ، لِحَدِيثِ عَمَّارٍ الْمَتَّقِمِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾.

تَدْبِيرٌ يَنَاسِبُ الرُّحْمَةَ وَالتَّيْسِيرَ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ وَعِنْدَ الْمَرَضِ، فَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ فَلَمْ يُكَلِّفْهُمْ الْعُسْلَ أَوْ الْوُضُوءَ عِنْدَ الْمَرَضِ، غَفُورًا لِمَنْ أَخْطَأَ أَوْ قَصَرَ.

قَالَ الزَّمَخَشَرِيُّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾. كِنَايَةٌ عَنِ التَّرْخِيسِ وَالتَّيْسِيرِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَتْ عَادَتُهُ أَنْ يَغْفُوَ عَنِ الْخَطَائِنِ وَيَعْفِرَ لَهُمْ، آتَرَ أَنْ يَكُونَ مَيْسِرًا غَيْرَ مُعْسِرٍ.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا﴾.

وَالكِنَايَةُ عَنِ قِضَاءِ الْحَاجَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

وَالكِنَايَةُ عَنِ الْجَمَاعِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

وَالإِطْلَاقُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَيِّدِيكُمْ﴾، قِيدَتَهُ السَّنَةُ بِالْكَفِينِ.



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

وَالْكَنَايَةُ عَنِ التَّرْخِيصِ وَالتَّيْسِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾؛ فَإِنَّ التَّرْفِيَةَ  
وَالْمَسَاحَةَ مِنْ رَوَادِفِ الْعَفْوِ وَتَوَابِعِ الْغُفْرَانِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٤٤، ٤٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ اللهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ أَحْوَالَ الْأُمَّمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَذَكَرَ حَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللهُ حَدِيثًا﴾. [النساء: الآية/ ٤١]، بين هنا صنفاً منهم كفروا عمداً، وعصوا الرسول قصداً، وهو اليهود، وجاهروا بعداوته وعداوة أتباعه المؤمنين.

المراد بالَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ هنا الْيَهُودَ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللهِ الْمُتَتَابِعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ لَضَالِّهِمْ عَنِ الْحَقِّ وَبَعْدَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ، يُرِيدُونَ لَوْ يَكْفُرُ الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَيَزِيغُوا عَنِ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَيَتْرَكُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ تَعَالَى مِنَ الْهُدَى، حَتَّى يَكُونُوا كَالْوَثْنِينَ.

ولما كان أمرهم عجباً قال اللهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾، وهو سؤال الغرض منه التّعجب من شأنهم؛ لأن من كان مؤمناً بالله تعالى لا يحبُّ لغيره أن يكون كافراً ضالاً عن سبيل الله تعالى.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾، أي: أَلَمْ يَنْتَهَ عِلْمُكَ إِلَى هَؤُلَاءِ؟

والتعبير بقوله: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ...﴾، بصيغة الفعل المضارع يوحي بتكرار هذا الفعل منهم واستمراره.

والتعبير بقوله: ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾، يدل على قلة علمهم وضعف تمسكهم بكتاب الله تعالى التوراة.

ومعنى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾، أي: يؤثرون الضلالة على الهدى، والكفر على الإيمان.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: اسْتَبَدَّلُوا الضَّلَالََةَ بِالْإِيمَانِ.



وَقَالَ مُقَاتِلٌ: اسْتَبَدَلُوا التَّكْذِيبَ بِالنَّبِيِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ بِإِيمَانِهِمْ بِهِ قَبْلَ ظُهُورِهِ وَاسْتَنْصَارِهِمْ بِهِ.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾.

أي: وَاللَّهُ أَعْلَمُ مِنْكُمْ بِعَدَاوَةِ الْيَهُودِ، فَاحْذَرُوا غَوَائِلَهُمْ، وَلَا تَأْمَنُوا غَدْرَهُمْ.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾.

وَحَسْبُكُمْ اللَّهُ يَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ، وَيَدْبِرُ لَكُمْ وَيَحْفَظُكُمْ مِنْ كَيْدِ أَعْدَائِكُمْ، فَثِقُوا بِهِ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَحَسْبُكُمْ اللَّهُ نَاصِرًا لَكُمْ عَلَى مَنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا مِنْ أَعْدَائِكُمْ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة عن العلم بالرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾؛ لأنَّ العلم اليقيني يُشبهُ الرؤية.

والسؤال في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا...﴾، الغرض منه التعجيب من شأنهم.

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾، حيث استعار الشراء المُحتَصَّ بالسِّلَعِ للضَّلالة لرغبتهم فيها وشدَّةِ حرصهم عليها.

وحذف الاختصار في قوله تعالى: ﴿يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ﴾، وتقديره: يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ بِالْهُدَى.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعِ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِاللِّسَانِ وَأَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَأَلْوَأْتَهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعِ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةُ / ٤٦

يُحَرِّفُ تَعَالَى عَنِ كُفْرِ الْيَهُودِ عَلَيْهِمْ لَعْنُ اللَّهِ الْمُتَتَابِعَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَعَنْ تَحْرِيفِهِمْ لِلْكَلامِ، وَتَلَاعِبِهِمْ بِالْأَلْفَاظِ، وَ (مَنْ) هُنَا لِيَبَيِّنَ الْجِنْسَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، وَقِيلَ: (مَنْ) تَبْعِيضِيَّةٌ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرُهُ: مَنْ الَّذِينَ هَادُوا قَوْمٌ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.

وَالْتَحْرِيفُ: الْمَيْلُ بِالشَّيْءِ إِلَى حَرْفِهِ وَحَافَتِهِ، وَالْمَرَادُ بِهِ هُوَ هُنَا الْمَيْلُ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَعْنَى.

وَمِنْ تَحْرِيفِهِمْ لِلْكَلامِ مَا كَانُوا يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَهَلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ".<sup>١</sup>

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

وَمِنْ تَحْرِيفِهِمْ لِلْكَلامِ قَوْلُهُمْ: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، أَي: سَمِعْنَا مَا قُلْتَهُ يَا مُحَمَّدُ وَلَا نُطِيعُكَ فِيهِ. عِنَادًا مِنْهُمْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، اسْتِهْزَاءً بِهِ.

١ - رواه البخاري - كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، حديث رقم: ٦٠٢٤



﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾.

ومن تحريفهم للكلام كذلك قولهم: ﴿وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾، أي: اسْمَعُ مَا نَقُولُ، لَا سَمِعْتَ، وَيُوهَمُونَ أَنَّهُمْ قَصَدُوا الْمَعْنَى الظَّاهِرَ الْمُتَبَادِرَ وهو اسْمَعُ غَيْرَ مَأْمُورٍ بِأَنْ تَسْمَعَ؛ كما يقال: ليس عليك أمرٌ.

﴿وَرَاعِنَا﴾.

ومن تحريفهم للكلام كذلك وسوء أدبهم قولهم: رَاعِنَا، يقصدونه وصفه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالرُّعُونَةِ، ويتوهم مَنْ يَسْمَعُهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: رَاعِنَا سَمْعَكَ.

وقد أدب الله تعالى المؤمنين بترك استعمال هذا اللفظ مع رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإن كان مقصودهم حسناً حتى لا يشابهوا اليهود أعداء الله.

﴿لَيَّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾.

اللِّي أَصْلُهُ الْإِنْتِنَاءُ، أي: يَلُؤُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بهذه الألفاظ لإرادة المعاني القبيحة، ويفعلون ذلك طَعْنَا فِي الدِّينِ، لأنهم يَقُولُونَ: إِنَّمَا نَشْتُمُهُ وَلَا يَعْرِفُ، وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا لَعَلِمَ مَا أَرَدْنَا، فَلِذَلِكَ فَضَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى، وَكَشَفَ حُبْثَ ضَمَائِرِهِمْ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ﴾.

أي: لَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا بَدَلْ قَوْلِهِمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا، سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا لَعَلِمَهُمْ بِصِدْقِهِ وَبَدَلْ قَوْلِهِمْ: وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمَعٍ قَوْلَهُمْ: وَأَسْمَعُ، وَبَدَلْ قَوْلَهُمْ: رَاعِنَا قَوْلَهُمْ: أَنْظُرْنَا لَكَانَ قَوْلُهُمْ هَذَا خَيْرًا لَهُمْ عِنْدَ اللهِ وَأَعْدَلُ فِي نَفْسِهِ وَأَسَدُّ.

﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾.

أي: وَلَكِنْ طَرَدَهُمُ اللهُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْهُدَى بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ.



﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِهِ التَّقْلِيلُ الْمُقَابِلُ لِلتَّكْثِيرِ، وَالْمَعْنَى: إِلَّا أَقْوَامٌ قَلِيلُونَ، كَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ. وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ بِالتَّقْلِيلِ النَّفْيُ الْمَحْضُ، وَالْقِلَّةُ تُسْتَعْمَلُ وَيُرَادُ بِهَا مَعْنَى النَّفْيِ؛ كَقَوْلِهِمْ: أَرْضٌ قَلَّمَا تُنْبِتُ كَذَا، وَهِيَ لَا تُنْبِتُهُ جُمْلَةً، وَقَوْلِهِمْ: فُلَانٌ قَلِيلُ الْحَيَاءِ. وَمُرَادُهُمْ لَيْسَ عِنْدَهُ حَيَاءٌ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الطباق في: (سَمِعْنَا) وَ (عَصَيْنَا)، وَ (اسْمَعْ) وَ (غَيْرَ مُسْمَعٍ) أي: اسْمَعْ، لَا سَمِعْتَ.

والتهكم بهم في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾، على القول بأن (أَقْوَمَ) أفعال تفضيل؛ لأن قولهم الذي قالوه ليس فاضلاً.

وحذف الإيجاز في مواضع منها قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾. أي: ولكن لم يقولوا ذلك واستمروا على كفرهم فطردهم الله تعالى من رحمته، وأبعدهم عن الهدى وخذلم بسبب كفرهم.

وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا﴾. يعني: إذا سمعوا أمراً من الله تعالى، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والتكرار للفظ: (سَمِعْنَا)، مع أنهم أقرؤا به؛ للتنبيه على أن سماعهم كالعدم؛ لأنه سماع الرد لا انتفاع لهم به، إنما الاعتبار بالسماع الذي يفضي إلى الاستجابة والطاعة. واستعمال القلة مَعْنَى النَّفْيِ الْمَحْضِ في قوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤٧

### مناسبة الآية لما قبلها:

لما أخبر الله تعالى عن كُفْرِ الْيَهُودِ وتحريفهم للكلام عن مواضعه، وسوء أدبهم مع رسول الله تعالى، أردف ذلك بموعظة تردعهم عن غيهم، وتنبيههم عن كفرهم، لو استمعوا إليها، وعملوا بمقتضاها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ الْكِتَابِ - والمراد بهم هُنَا الْيَهُودُ - بِالْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ الَّذِي نَزَّلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لما يشتمل عليه من تصديق ما بأيديهم من البشارات برسول الله مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا﴾.

الطَّمْسُ مَحْوُ مَعَالِمِ الشَّيْءِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾<sup>١</sup>.

أَيُّ: مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْحُوَ مَعَالِمَهَا مِنَ الْأَعْيُنِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْأَنْوْفِ، وَأَثَارَهَا فَنُتَسَوِّبَهَا كَالْأَقْفَاءِ.

وقيل المراد مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ أَبْصَارَهَا وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ﴾<sup>٢</sup>.

قَالَ قَتَادَةُ وَالضَّحَّاكُ: مَعْنَاهُ نُعْمِي أَعْيُنَهَا. وَذَكَرَ الْوُجُوهَ وَأَرَادَ الْعُيُونَ، مِنْ بَابِ اِطْلَاقِ الْكَلِمِ عَلَى الْجُزْءِ.

١ - سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ: الْآيَةُ / ٨

٢ - سُورَةُ يَسْ: الْآيَةُ / ٦٦



وقيل: هُوَ وَعِيدٌ بِزَوَالِ وَجَاهَةِ الْيَهُودِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ، وَرَمِيهِمْ بِالْمَذَلَّةِ بَعْدَ أَنْ كَانُوا هُنَاكَ أَعِزَّةً ذَوِي مَالٍ وَعُدَّةٍ، وَالرَّدُّ عَلَى الْأَدْبَارِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ: هُوَ رُدُّهُمْ مِنْ حَيْثُ أَتَوْا، أَيْ إِجْلَاؤُهُمْ مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّامِ.<sup>١</sup>

﴿أَوْ نَلَعْنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

اللَّعْنَةُ فِي اصْطِلَاحِ الشَّرْعِ: الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْمَسْحُ مِنْ أَكْبَرِ أَنْوَاعِ الطَّرْدِ وَالْإِبْعَادِ؛ أَي: فَجَعَلْنَاهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرَ.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

وَأَي: وَكَانَ قِضَاءُ اللَّهِ نَافِذًا لَا مَرَدَّ لَهُ.

١ - التحرير والتنوير بتصريف (٧٩ / ٥)



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ التَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٤٨

### سبب نزول الآية:

روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر أنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الْآيَةُ، قَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: وَالشِّرْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ. فَكَّرَهُ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>١</sup>.

ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَالْكَلَامُ هُنَا مُطْلَقٌ وَقِيْدُهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَمًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>٢</sup>.

فَإِنَّ الْأَسْتِثْنَاءَ رَاجِعٌ لِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، وَمَا عَطَفَ عَلَيْهِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾. [الأنفال: ٣٨]، أَي: إِنْ يَنْتَهُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنَ الْكُفْرِ، يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَخَطَايَاهُمْ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، مَشْرُوطٌ بِالتَّوْبَةِ، فَمَنْ تَابَ مِنْ أَيِّ ذَنْبٍ وَإِنْ تَكَرَّرَ مِنْهُ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَدَخَلَ الشِّرْكَ فِيهِ، وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ حَكَمَ هَاهُنَا بِأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ الشِّرْكَ، وَحَكَمَ بِأَنَّهُ يَغْفِرُ مَا عَدَاهُ لِمَنْ يَشَاءُ<sup>٣</sup>.

١ - تفسير الطبري (١٢٢ / ٧)

٢ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الْآيَةُ / ٦٨ - ٧٠

٣ - تفسير ابن كثير (٣٣١ / ٢)



﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

أي: يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ لِمَنْ يَشَاءُ تَعَالَى وَمِنْ ذَلِكَ الْكِبَائِرُ وَفِي الْآيَةِ رَدُّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ الَّذِينَ حَكَمُوا عَلَى مَرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ بِالْخُلُودِ فِي النَّارِ إِذَا لَمْ يَتَبْ مِنْهَا، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ عَلَى أَنَّ مَرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ فِي مَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ، وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، مَا لَمْ يَكُنْ ذَنْبُهُ شِرْكًَا بِاللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾.

أي: وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ احْتَلَقَ إِثْمًا عَظِيمًا، وَإِثْمًا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مُفْتَرِيًّا؛ لِأَنَّهُ قَالَ زُورًا وَإِفْكًَا بِجُحُودِهِ وَخَدَائِنِيَّةِ اللَّهِ، وَمَنْ جَعَلَ لِلَّهِ شَرِيكًا مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ، وَكُلُّ كَاذِبٍ مُفْتَرٍ. وَالشِّرْكَ أَعْظَمُ ذَنْبٍ يَلْقَى الْعَبْدُ بِهِ رَبَّهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ لُقْمَانَ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ يَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ» قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»<sup>٢</sup>.

١ - سُورَةُ لُقْمَانَ: الْآيَةُ/ ١٣

٢ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٤٤٧٧، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ كَوْنِ الشِّرْكِ أَفْبَحَ الذُّنُوبِ، وَبَيَانَ أَعْظَمَهَا بَعْدَهُ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٦



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرْكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ٤٩

### سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْيَهُودِ حِينَ زَعَمُوا أَنََّّهُمْ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ وَأَهْلُ طَاعَتِهِ، وَأَنََّّهُمْ سَيِّدُ خُلُوقِ الْجَنَّةِ.

قَالَ الْحَسَنُ وَفَتَادَةُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، فِي الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حِينَ قَالُوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ﴾<sup>١</sup>.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاءُهُ﴾ [الْمَائِدَةُ: ١٨]، وَفِي قَوْلِهِمْ: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾<sup>٢</sup>.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، قَالُوا: إِنَّا نَعْلَمُ أَبْنَاءَنَا التَّوْرَةَ صِعَارًا فَلَا تَكُونُ لَهُمْ ذُنُوبٌ، وَذُنُوبُنَا مِثْلُ ذُنُوبِ أَبْنَائِنَا، مَا عَمِلْنَا بِالنَّهَارِ كُفِّرَ عَنَّا بِاللَّيْلِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا: إِنَّ أَبْنَاءَنَا قَدْ تُوفُّوا وَهُمْ لَنَا قُرْبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ، وَسَيَشْفَعُونَ وَيُرْكُونَنَا.

﴿بَلِ اللَّهُ يُرْكِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

بَلْ: تَفِيدُ الْإِضْرَابَ، وَمَعْنَاهَا إِبْطَالُ تَرْكِيَّتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِذَلِكَ. وَلِأَنَّ التَّرْكِيَّةَ شَهَادَةٌ، وَلَا تَصِحُّ شَهَادَةُ أَحَدٍ لِنَفْسِهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ، إِلَّا أَنَّ حِكْمَهَا يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ زَكِيَ نَفْسِهِ، وَقَدْ نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَرْكُوا أَنْفُسَهُمْ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تُرْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾<sup>٣</sup>.

١ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: آيَةٌ / ١٨

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ١١١

٣ - سُورَةُ النَّجْمِ: آيَةٌ / ٣٢



وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا، عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ: «وَيَحْكُكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مِرَارًا «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحًا صَاحِبَهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيُثِقِلْ: أَحْسِبُ فَلَانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُرْكَبِي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا أَحْسِبُهُ، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ، كَذَا وَكَذَا»<sup>١</sup>.

عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، قَالَ: قَامَ رَجُلٌ يُثْنِي عَلَى أَمِيرٍ مِنَ الْأَمْرَاءِ، فَجَعَلَ الْمِقْدَادُ يَحْتِي عَلَيْهِ التُّرَابَ، وَقَالَ: «أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ نَحْتِي فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»<sup>٢</sup>.

وقد روى الإمام أحمد في مسنده أن الممدوح هو سعيد بن العاص أمير عثمان رضي الله عنه على العراق عن ميمون بن أبي شبيب، قال: جعل رجل يمدح عاملاً لعثمان فعمد الممدوح فجعل يحنو التراب في وجهه، فقال له عثمان: ما هذا؟ قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْتُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»<sup>٣</sup>.

وروى البيهقي أنه كان يمدح عثمان رضي الله عنه؛ فعن همام بن الحارث قال: جعل رجل يثني على عثمان فقام الممدوح فجعل يحنو التراب وقال: «أَمَرْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَحْتِي فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ»<sup>٤</sup>.

وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: «الْمَدْحُ دَبْحٌ». قَالَ مُحَمَّدٌ: يَعْنِي إِذَا قَبَلَهَا<sup>٥</sup>.

١ - رواه البخاري - كتاب الشَّهَادَاتِ، بَابُ: إِذَا زَكِيَ رَجُلٌ رَجُلًا كَفَّاهُ، حديث رقم: ٢٦٦٢، ومسلم - كتاب الرُّهْدِ

وَالرَّقَائِقِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ، إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ فِتْنَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ، حديث رقم: ٣٠٠٠

٢ - رواه مسلم - كتاب الرُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ، إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ فِتْنَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ،

حديث رقم: ٣٠٠٢

٣ - رواه مسلم - كتاب الرُّهْدِ وَالرَّقَائِقِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْمَدْحِ، إِذَا كَانَ فِيهِ إِفْرَاطٌ وَخِيفَ مِنْهُ فِتْنَةٌ عَلَى الْمَمْدُوحِ،

حديث رقم: ٣٠٠٢

٤ - رواه البيهقي في الآداب - بَابُ الرَّجُلِ يَمْدَحُ فَيُفْرِطُ فِي الْمَدْحِ، حديث رقم: ٣٠٩

٥ - رواه البخاري في الأدب المفرد - بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّمَادِحِ، حديث رقم: ٣٣٦، بسند صحيح



﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أي: وليس هذا ظلماً لهم؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَنْ يَسْتَحِقُّ التَّزْكِيَةَ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا.  
وَالْفَتِيلُ: يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقِلَّةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ بِهِ. وَهُوَ يَشْبَهُ الْحَيْطَ فِي شِقِّ نَوَاةِ التَّمْرِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾. سورة النساء: الآية/

٥٠

الإفتراء هو: اختلاق الكذب، ولا يكون إلا عمدًا، ومنه: افتري فلان على فلان أي رماه بما ليس فيه.

وَهُوَ تَعَجِيبٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ جُرْأَتِهِمْ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَافْتِرَائِهِمْ عَلَيْهِ، وَهِيَ تَزْكِيَّتُهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَافْتِرَائُهُمْ عَلَيْهِ، فِي تَزْكِيَّتِهِمْ أَنْفُسَهُمْ وَدَعْوَاهُمْ أَنَّهُمْ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاءُهُ بِقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾<sup>١</sup>.

وَقَوْلِهِمْ: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾<sup>٢</sup>.

ولما شاع لك عنهم وانتشر بين الناس صار كأنه أمر مرئي ينظر إليه الناس بأعينهم، قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾.

﴿وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾.

أي: وحسبهم باختلاق ذلك الكذب والافتراء على الله إثمًا ظاهرًا، والمراد بيان خطر ذلك الذنب، ومدى قبحه وشناعته.

١ - سورة البقرة: الآية/ ١١١

٢ - سورة البقرة: الآية/ ٨٠



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٥١، ٥٢

يذكر الله تعالى جملة أخرى من أسباب كفر اليهود، وانحرافهم عن منهج الله تعالى، ولما كانوا يزعمون الإيمان بالله تعالى، وبما أنزل إليهم، ذكر الله تعالى ذلك لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليتعجب من شأنهم، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ...﴾، يعني: ألا ترى يا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إلى كفر هؤلاء اليهود الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ، وإلى صدهم عن سبيل الله تعالى، مع زعمهم الإيمان، وتزكيتهم أنفسهم!

الْجِبْتُ قِيلَ: السِّحْرُ، وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ، وَالطَّاغُوتُ هُوَ: كُلُّ مَا عُبدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَضِيَ بِذَلِكَ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾.

وقيل: الطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ، وَقِيلَ: الْكَاهِنُ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ.

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الْجِبْتُ السِّحْرُ وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: الْجِبْتُ السَّاحِرُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ، وَالطَّاغُوتُ الْكَاهِنُ.

وَقَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ: الطَّاغُوتُ: هُوَ كُلُّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ولعل تفسير الطَّاغُوتِ بأنه كُلُّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَضِيَ بِذَلِكَ أَشْمَلُ وَأَعَمُّ، وَالطَّاغُوتُ: اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ.

﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

أَيُّ: وَيَقُولُونَ لِمَشْرِكِي قَرِيشِ الْوَثْنِينَ أَنْتُمْ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا. فَيُفَضِّلُوهُمْ وَهُمْ وَثْنُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَخَالَفُوا كِتَابَ اللَّهِ الَّذِي بَأْيَدِيهِمْ، وَكَفَرُوا بِهِ.



وسبب ذلك ما رواه ابنُ أبي حاتمٍ بسنده عنِ عكرمةَ قال: جاء حُيَيُّ بْنُ أَحْطَبَ وَكَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ إِلَى أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالُوا لَهُمْ: أَنْتُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ وَأَهْلُ الْعِلْمِ، فَأَخْبَرُونَا عَنَّا وَعَنْ مُحَمَّدٍ، فَقَالُوا: مَا أَنْتُمْ وَمَا مُحَمَّدٌ. فَقَالُوا: نَحْنُ نَصِلُ الْأَرْحَامَ، وَنَنْحِرُ الْكُومَاءَ، وَنَسْقِي الْمَاءَ عَلَى اللَّبَنِ، وَنَفُكُ الْعُنَاةَ، وَنَسْقِي الْحَجِيجَ وَمُحَمَّدٌ صُنْبُورٌ، فَطَعَّ أَرْحَامَنَا، وَاتَّبَعَهُ سَرَّاقُ الْحَجِيجِ بَنُو غِفَارٍ، فَنَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هُوَ؟ فَقَالُوا: أَنْتُمْ خَيْرٌ وَأَهْدَى سَبِيلًا. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾.

وفائدة ذكر الاسم الموصول هنا التخصيص، والمراد أنه إذا سمعتم بقوم لعنهم الله فهم هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم من اليهود.

﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾.

أي: ومن لعنه الله فلن يجد له نصيراً. ويجول بينه وبين عذاب الله تعالى.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: السؤال في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾. للتعجيب من شأن اليهود.

الإشارة بـ (أولئك) من قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾، التي للبعيد إيداناً ببعدهم عن رحمة الله تعالى.

والإطناب في قوله: ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ﴾، لتأكيد ثبوت اللعن عليهم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا (٥٣) أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٥٤) فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٥٣، ٥٤

(أَمْ) هُنَا لِلإِضْرَابِ، وَالْمُرَادُ بِالِإِضْرَابِ: الْإِنْتِقَالَ مِنْ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْإِيمَانِ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ، وَتَفْضِيلِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، إِلَى تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْبُخْلِ وَالشُّحِّ وَالْأَثَرَةِ وَالْحَسَدِ.

فِيكُونُ الْمَعْنَى: بَلْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَلَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا.

وَقِيلَ: هِيَ عَاطِفَةٌ عَلَى مَحذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: أَهْمُ أَوْلَىٰ بِالنُّبُوَّةِ مِمَّنْ أَرْسَلْتُهُ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ؟

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ..﴾. سَوَالُ الْغَرَضِ مِنْهُ التَّوْبِيخُ وَالتَّقْرِيعُ، وَالنَّصِيبُ: الْحِظُّ، وَالتَّقْرِيعُ: التَّقْطِيعُ الَّذِي فِي ظَهْرِ التَّوَاتُؤِ. وَالْقَطِيعُ وَالتَّقِيرُ وَالْقَطْمِيرُ، يُضْرَبُ بِهَا الْمَثَلُ لِلشَّيْءِ الْحَقِيرِ، أَيْ: لَيْسَ لَهُمْ حِظٌّ مِنَ الْمُلْكِ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ لَمْ يُعْطُوا أَحَدًا مِنْهُ شَيْئًا لِيُحْلِلَهُمْ وَحَسَدِهِمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ حَشِيَّةَ الْإِنْفَاقِ﴾<sup>١</sup>.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

(أَمْ) لِلِإِضْرَابِ أَيْضًا؛ لِإِنْتِقَالِ مِنْ تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْبُخْلِ، إِلَى تَوْبِيخِهِمْ عَلَى الْحَسَدِ.

وَهَذَا مِنَ الْعَامِ الَّذِي يَرَادُ بِهِ لِحْصُوصٍ، فَإِنَّ الْمُرَادَ بِالنَّاسِ هُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَالْمُرَادُ بِالْفَضْلِ هُنَا النُّبُوَّةُ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ حَسَدُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مِنَ الْعَرَبِ وَلَيْسَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالنَّاسِ هُنَا أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَسَدُوهُمْ عَلَى الْهُدَى الْإِيمَانِ بِهِ.

١ - سُورَةُ الْإِسْرَاءِ: الْآيَةُ/ ١٠٠



وَالْحَسَدُ: تَمَيُّ زَوَالِ النِّعْمَةِ عَنْ صَاحِبِهَا الْمُسْتَحِقِّ لَهَا. وَهُوَ أَوَّلُ ذَنْبِ عِصِيَّ اللَّهِ بِهِ فِي السَّمَاءِ، وَأَوَّلُ ذَنْبِ عِصِيَّ بِهِ فِي الْأَرْضِ، فَأَمَّا فِي السَّمَاءِ فَحَسَدُ إِبْلِيسَ لِآدَمَ، وَأَمَّا فِي الْأَرْضِ فَحَسَدُ قَائِلِ لَهَايِلَ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾. وَصَفُ لِلْيَهُودِ بِالْحَسَدِ.

﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾.

تَعْلِيلٌ لِلانْكَارِ وَالزَّامِ لِلْيَهُودِ بِمَا هُوَ مُسَلَّمٌ عِنْدَهُمْ؛ فَهُمْ يَعْلَمُونَ بِمَا آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ، وَهُمْ أَسْلَافُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمُلْكِ الْعَظِيمِ.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.

أَيُّ: فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهَذَا الْإِيْتَاءِ وَهَذَا الْفَضْلِ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ، وَسَعَى فِي صَدِّ النَّاسِ عَنْهُ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَكَيْفَ بِكَ يَا مُحَمَّدُ وَلَسْتَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾. بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ يَهُودٍ  
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾.

أَيُّ: وَحَسْبُكُمْ بِنَارِ جَهَنَّمَ تُوقَدُ عَلَيْكُمْ، أَيُّهَا الْمُكَدِّبُونَ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالسَّعِيرُ: الْوُقُودُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾<sup>١</sup>.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: السُّؤَالُ الْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيحُ وَالتَّقْرِيعُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

وَالتَّعْرِيفُ بِشِدَّةِ بُخْلِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.

١ - سُورَةُ التَّكْوِينِ: الْآيَةُ / ١٢



والعام الذي يراد به لخصوص في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾، فإن المراد بالناس هنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والتَّفْسِيرُ فِي: قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٥٦، ٥٧

### مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا تَوَعَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْيَهُودَ بِالْعَذَابِ لِكُفْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِهِ، ذَكَرَ هُنَا مِنْ الْوَعِيدِ مَا يَعْمُ الْكَافِرِينَ جَمِيعًا، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا...﴾، فَهِيَ أَعْمٌ مِمَّا قَبْلَهَا.

﴿سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا﴾، نُصَلِّيهِمْ مِنَ الْإِصْلَاءِ، وَهُوَ شَيْءُ اللَّحْمِ عَلَى النَّارِ، أَيْ: سَوْفَ نَشْوِي أَجْسَامَهُمْ بِنَارٍ تُحِيطُ بِجَمِيعِ أَجْسَادِهِمْ.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

أَي: كُلَّمَا احْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَتَجَدَّدَ عَذَابُهُمْ، وَلَا يَفْتَرِ عَنْهُمْ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُحْيَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾، [فَاطِرٌ: ٣٦]، وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾<sup>١</sup>.

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: إِذَا احْتَرَقَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا بِيضًا أَمْثَالَ الْقَرَّاطِيسِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أَي: إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا فِي انْتِقَامِهِ مِمَّنْ خَالَفَ أَمْرَهُ وَعَبَدَ غَيْرَهُ، لَا يَمْتَنِعُ مِنْهُ أَحَدٌ أَرَادَهُ بِضُرٍّ، حَكِيمًا فِي تَدْبِيرِهِ وَقَضَائِهِ.

وهذه الآية من دلائل الإعجاز العلمي فقد كان الاعتقاد السائد قديماً أنّ الجسم كله حساس للآلام، ثم اكتشف علماء التشريح في زماننا أن الجلد من أهم أجزاء الجسم إحساساً بالآلم

١ - سورة الرُّحْفِ: الْآيَةُ / ٧٤، ٧٥



لأنه الجزء الأغنى بنهايات الأعصاب الناقلة للألم والحرارة، فإذا احترق الجلد توقف الألم؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿كَلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾.

ذكر الله تعالى في مقابلة عذاب الكفار حال أهل الإيمان في رياض الجنات، وما أعده الله تعالى لهم من النعيم المقيم، ومن ذلك تلك القصور التي تجري من تحتها الأنهار، والخلود الدائم في النعيم، والأزواج المُطَهَّرَةُ مِنَ الْحَيْضِ وَالنِّفَاسِ وَالْأَذَى وَالْأَخْلَاقِ الرَّذِيئَةِ، وَالصِّفَاتِ النَّاقِصَةِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مُطَهَّرَةٌ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَذَى.

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

أي: نُدْخِلُهُمْ ظِلًّا غَزِيرًا طَيِّبًا، فمن تمام نعيم أهل الجنة الاستظلال بأشجار الجنة مع رُؤْيَةِ النَّوْرِ فِيهَا وَانْتِفَاءِ الْحَرِّ؛ فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ، لَا يَقْطَعُهَا»<sup>١</sup>.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿وَوَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، حديث رقم: ٤٨٨١، ومسلم - كِتَابُ الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّكَّابُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، حديث رقم:



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. سورة التَّسَاء: الآية / ٥٨

مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى خِيَانَةَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَنَّهُمْ كَتَمُوا الْحَقَّ حِينَ قَالُوا لِلَّذِينَ كَفَرُوا: هُوَ لَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا، أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَسْلُكُوا سَبِيلَهُمْ، فَأَمَرَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِإِدَاءِ الْأَمَانَاتِ فِي جَمِيعِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ.

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: "نَزَلَتْ فِي عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، فَبَضَّ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَ الْكَعْبَةِ، وَدَخَلَ بِهَا الْبَيْتَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ، فَدَعَا عُثْمَانَ فَدَفَعَ إِلَيْهِ الْمِفْتَاحَ. قَالَ: وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ لَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ: فِدَاؤُهُ أَبِي وَأُمِّي، مَا سَمِعْتُهُ يَتْلُوهَا قَبْلَ ذَلِكَ".<sup>١</sup>

وهذه الآية وإن كانت نزلت في عُثْمَانَ بْنِ طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَنَّ الْعَبْرَةَ بَعْمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ، فَهِيَ كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هِيَ مُبْهَمَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هِيَ مُسَجَّلَةٌ لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِدَاءِ الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا، وَالْأَمَانَاتُ جَمْعُ: الْأَمَانَةِ وَلِغَةِ: مَعْنَاهَا سُكُونُ الْقَلْبِ، وَهِيَ ضِدُّ الْخِيَانَةِ، وَفِي الشَّرْعِ هِيَ كُلُّ مَا يُؤْتَمَّنُ عَلَيْهِ.

١ - رواه الطبري (٧/ ١٧١)، والأزرقي في أخبار مكة (١/ ٢٦٥)



وحفظ الأمانة من دلائل الإيمان، كما أن تضيعها من دلائل انتفائه؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: «ما حطبتنا النبي صلى الله عليه وسلم إلا قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»<sup>١</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يجتمع الإيمان والكفر في قلب امرئ ولا يجتمع الصدق والكذب جميعاً ولا يجتمع الحيانة والأمانة جميعاً»<sup>٢</sup>.  
ومن الأمانات عدل الحكام ومنها الودائع، والعواري، والشهادات، والفرائض والعبادات، فهي أشمل وأعم من أن تكون مجرد ودائع يحفظها من استؤمن عليها؛ فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وزكوعهن وسجودهن ومواقبتهن وصام رمضان وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه وأدى الأمانة». قالوا يا أبا الدرداء وما أداء الأمانة قال العسل من الجنابة<sup>٣</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أعظم الأمانة عند الله يوم القيامة، الرجل يفضي إلى امرأته، وتفضي إليه، ثم ينشر سرها»<sup>٤</sup>.  
وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حدث الرجل حديثاً، فالتفت فهي أمانة»<sup>٥</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٢٣٨٣، وابن حبان - كتاب الإيمان، باب فرض الإيمان، ذكر خير يدل على أن المراد بجزء الخبر نفي الأمر عن الشيء للنقص عن الكمال، حديث رقم: ١٩٤، والطبراني في الأوسط - حديث رقم: ٢٦٠٦، والبزار - حديث رقم: ٧١٩٦، بسند حسن  
٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٨٥٩٣، وابن وهب في جامعه - حديث رقم: ٤٦٤، بسند حسن  
٣ - رواه أبو داود - كتاب الصلاة، باب في المحافظة على وقت الصلوات، حديث رقم: ٤٢٩، بسند حسن  
٤ - رواه مسلم - كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سير المرأة، حديث رقم: ١٤٣٧  
٥ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٤٤٧٤، وأبو داود - كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، حديث رقم: ٤٨٦٨، والترمذي - أبواب البر والصلوة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء أن المجالس أمانة، حديث رقم: ١٩٥٩، بسند حسن



وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: الْأَمَانَةُ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهِوا عَنْهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمْ يُرَخِّصِ اللَّهُ لِمُعْسِرٍ وَلَا لِمُوسِرٍ أَنْ يُمْسِكَ الْأَمَانَةَ.

والأمانة من المبادئ الثابتة والأخلاق الراسخة التي لا يجوز للمسلم المعاملة فيها بالمثل؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»<sup>١</sup>.

قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ: وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَمَانَاتِ مَرْدُودَةٌ إِلَى أَرْبَابِهَا، الْأَبْرَارِ مِنْهُمْ وَالْفُجَّارِ.<sup>٢</sup>  
قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

هَذَا خِطَابٌ لِلْوَلَاةِ وَالْأَمْرَاءِ، وَالْحُكَّامِ، وَالْقُضَاةِ، وَكُلِّ مَنْ تَصَدَّرَ لِلْحَكْمِ بَيْنَ النَّاسِ، أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ حَاكِمًا وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْكُمَ بِالْعَدْلِ.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ الْعَدْلِ فِي الْأَحْكَامِ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾.<sup>٣</sup>  
ومن ذلك التحذير من مغبة الظلم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.<sup>٤</sup>

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الصَّامِتِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ أَمِيرٍ عَشْرَةَ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا لَا يَفُكُّهُ مِنْهَا إِلَّا عَدْلُهُ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ نَسِيَهُ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَجْدَمٌ».<sup>٥</sup>

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٥٤٢٤، وأبو داود - أبواب الإجارة، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، حديث رقم: ٣٥٣٤، بسند صحيح

٢ - الإجماع لابن المنذر دون قوله: (الأبْرَارِ مِنْهُمْ وَالْفُجَّارِ) (ص: ١٠٧)، والإشراف على مذاهب العلماء لابن المنذر (٣٣٠ / ٦)

٣ - سُورَةُ النَّحْلِ: الآيَةُ / ٩٠

٤ - سُورَةُ الصَّافَّاتِ: الآيَةُ / ٢٢

٥ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٢٧٥٨، بسند صحيح



﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾.

الْوَعْظُ: هُوَ النَّصْحُ وَالتَّذْكِيرُ وَيَكُونُ بِالْتَرغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ، أَي: نِعْمَ الَّذِي يَعِظُكُمْ بِهِ، وَهُوَ الْمَأْمُورُ بِهِ مِنْ أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ.

ومما يدل على فضيلة العدل الذي أمر الله تعالى به ما ثبت عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُفْسِدِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنْابِرٍ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكَلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»<sup>١</sup>.

وفي الكلام إيجازٌ بالحذف؛ فَإِنَّ الْمَحْضُوصَ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ، وَتَقْدِيرُهُ: نِعْمَ شَيْءٌ يَعِظُكُمْ بِهِ ذَلِكَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

تذليلٌ يشتمل على الوَعْدِ لِلْمُطِيعِينَ، وَالْوَعِيدِ لِلْعَصَاةِ الْمُعَانِدِينَ، بَأَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ الْعِبَادِ، سَمِيعٌ لِأَقْوَالِهِمْ، بَصِيرٌ بِأَعْمَالِهِمْ، عَلِيمٌ بِنِيَاتِهِمْ.

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ فَضِيلَةِ الْإِمَامِ الْعَادِلِ، وَغُفُوبَةِ الْجَائِرِ، وَالْحَثِّ عَلَى الرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ، وَالتَّنْهِي عَنْ إِدْخَالِ الْمُشَقَّةِ عَلَيْهِمْ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٨٢٧



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٥٩

### مناسبة الآية لما قبلها:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ الْأُمَّةَ بِالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. [النِّسَاءِ: ٥٨]، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا بِطَاعَتِهِ تَعَالَى وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ، وَكُلٌّ مَنْ كَانَتْ لَهُ وِلَايَةٌ شَرْعِيَّةٌ، لَا وِلَايَةٌ طَاغُوتِيَّةٌ.

### سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ثَبَتَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾، قَالَ: «نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَدَافَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ عَدِيٍّ إِذْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ»<sup>١</sup>.

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ الْحَدِيثَ تَامًّا عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَلَيْسَ فِيهِ اسْمُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَدَافَةَ، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هُمُ بِالْدُحُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَنَدْخُلُهَا؟ فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ حَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. [النساء: ٥٩]: دَوِي الْأَمْرِ، حديث رقم: ٤٥٨٤، ومسلم - كتاب الإمامة، باب وجوب طاعة الأئمة في غير مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٣٤



عَضْبُهُ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ»<sup>١</sup>.

ورواه الإمام أحمد في مسنده وفيه فائدة أن الأمر كان دُعَابَةً من عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُدَافَةَ وهو أشبهه، وَأَنَّهُ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلْقَمَةَ بْنَ مُجَرِّزٍ عَلَى بَعْثِ أَنَا فِيهِمْ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَأْسِ غَزَاتِنَا، أَوْ كُنَّا بِنَعُضِ الطَّرِيقِ أَذِنَ لِطَائِفَةٍ مِنَ الْجَيْشِ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ حُدَافَةَ بْنَ قَيْسِ السَّهْمِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ، وَكَانَتْ فِيهِ دُعَابَةٌ - يَعْنِي مُزَاحًا - وَكُنْتُ مِمَّنْ رَجَعَ مَعَهُ، فَانزَلْنَا بِنَعُضِ الطَّرِيقِ، قَالَ: وَأَوْقَدَ الْقَوْمُ نَارًا لِيَصْنَعُوا عَلَيْهَا صَنِيعًا لَهُمْ، أَوْ يَصْطَلُونَ قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ لِي عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: فَمَا أَنَا بِأَمْرِكُمْ بِشَيْءٍ إِنْ صَنَعْتُمُوهُ؟ قَالُوا: بَلَى. قَالَ: أَعَزِمُ عَلَيْكُمْ بِحَقِّي وَطَاعَتِي، لَمَا تَوَاتَبْتُمْ فِي هَذِهِ النَّارِ، فَقَامَ نَاسٌ فَتَحَجَّرُوا، حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُمْ وَائِيُونَ، قَالَ: أَحْسِبُوا أَنفُسَكُمْ، فَإِنَّمَا كُنْتُ أَضْحَكُ مَعَكُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ أَنْ قَدِمُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَمَرَكَ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَةٍ، فَلَا تُطِيعُوهُ"<sup>٢</sup>.

هذه الآية العظيمة تلقب بجامعة الشرائع؛ لأنها تشتمل على أصول التشريع الإسلامي، فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾، دلالة على القرآن وهو الأصل الأول. وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾. دلالة على الأصل الثاني وهو السنة النبوية. وقوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. دلالة على الأصل الثالث وهو الإجماع.

١ - رواه البخاري - كتاب الأحكام، باب السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِلْإِمَامِ مَا لَمْ تُكُنْ مَعْصِيَةً، حديث رقم: ٧١٤٥، ومسلم -

كتاب الإمارة، باب وُجُوبِ طَاعَةِ الْأُمَرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٤٠

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ١١٦٣٩، وابن ماجه - كتاب الجهاد، باب لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، حديث رقم:

٢٨٦٣، بسند حسن



وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾. دلالة على الأصل الرابع وَهُوَ الْقِيَاسُ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله، وقد كتبت منذ مدة طويلة في تفسير هذه الآية رسالة اسميتها: (القول الرائع في تفسير جامعة الشرائع).

قَالَ عَلِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (حَقُّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَحْكُمَ بِالْعَدْلِ وَيُؤَدِّيَ الْأَمَانَةَ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَحَقُّ عَلَى الرَّعِيَّةِ أَنْ يَسْمَعُوا وَيُطِيعُوا).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾.

أَيُّ: أَطِيعُوا رَبَّكُمْ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ وَفِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، وَاتَّبِعُوا كِتَابَهُ بِتَنْفِيذِ أَحْكَامِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ. قال القرطبي: وَحَقِيقَةُ الطَّاعَةِ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، كَمَا أَنَّ الْمَعْصِيَةَ ضِدُّهَا وَهِيَ مُخَالَفَةُ الْأَمْرِ. وَالطَّاعَةُ مَأْخُودَةٌ مِنْ أَطَاعَ إِذَا انْقَادَ، وَالْمَعْصِيَةُ مَأْخُودَةٌ مِنْ عَصَى إِذَا اشْتَدَّ.<sup>١</sup>

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾.

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَيَاتِهِ فِيمَا أَمَرَ وَنَهَى، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ؛ فَعَنْ عَطَاءٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ قَالَ: طَاعَةُ الرَّسُولِ: اتِّبَاعُ سُنَّتِهِ. وَطَاعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.<sup>٢</sup>

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي».<sup>٣</sup>

١ - تفسير القرطبي (٥ / ٢٦١)

٢ - سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ٨٠

٣ - رواه البخاري - كِتَابُ الْأَحْكَامِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَ ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، حديث رقم: ٧١٧٣، ومسلم - كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حديث رقم: ١٨٣٥



وَطَاعَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلامَةُ الْهُدَى وَدَلِيلُ الْإِسْتِقَامَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾<sup>١</sup>.

وَطَاعَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَبُ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أْبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أْبَى»<sup>٢</sup>.

﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ وَهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ، فِيمَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمُخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَوَهَّمَنَّ أَنْ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ مَطْلُوقَةٌ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التَّوْبَةُ: ٣١]، وَلَمَّا قَالَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْأَيْسَ يُحْرَمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحْرَمُونَهُ، وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»<sup>٣</sup>.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَأَمَرَ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ إِعْلَامًا بِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ بَجْبِ اسْتِثْلَالًا مِنْ غَيْرِ عَرْضٍ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ، بَلْ إِذَا أَمَرَ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا، سِوَاةً كَانَ مَا أَمَرَ بِهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ، فَإِنَّهُ أَوْيَ الْكِتَابِ وَمِثْلُهُ مَعَهُ، وَلَمْ يَأْمُرْ بِطَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ اسْتِثْلَالًا، بَلْ حَذَفَ الْفِعْلَ وَجَعَلَ طَاعَتَهُمْ فِي ضِمْنِ طَاعَةِ الرَّسُولِ؛ إِيدَانًا بِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُطَاعُونَ تَبَعًا لِطَاعَةِ الرَّسُولِ، فَمَنْ أَمَرَ مِنْهُمْ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ، وَمَنْ أَمَرَ بِخِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَلَا سَمْعَ لَهُ وَلَا طَاعَةَ كَمَا صَحَّ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ

١ - سُورَةُ التَّوْرَةِ: الْآيَةُ / ٥٤

٢ - رواه البخاري - كِتَابُ الْإِعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ الْإِقْتِدَاءِ بِسُنَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٧٢٨٠

٣ - رواه الترمذي - أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابٌ: وَمِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٣٠٩٥، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ - حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢١٨، وَاللَّفْظُ لَهُ، بِسُنْدٍ حَسَنٍ



قَالَ: «لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ» وَقَالَ: «إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ» وَقَالَ فِي وِلَاةِ الْأُمُورِ: «مَنْ أَمَرَكَ مِنْهُمْ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلَا سَمْعَ لَهُ وَلَا طَاعَةَ»<sup>١</sup>.

﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾.

التَّنَازُعُ: التَّجَادُبُ، وَمِنْهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ هَذَا الَّذِي يُنَازِعُنِي الْقُرْآنُ»<sup>٢</sup>.

وَالْمُنَازَعَةُ: مُجَادَبَةُ الْحُجَجِ، أَيْ: إِنْ بَجَادَلْتُمْ وَاحْتَلَفْتُمْ، فَكَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يَنْتَرِعُ حُجَّةَ الْآخَرِ وَيُدْهِبُهَا.

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَطَاعَةَ أَوْلِي الْأَمْرِ، أَمَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالرُّجُوعِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عِنْدَ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكِّمُوهُ إِلَى اللَّهِ﴾<sup>٣</sup>.

وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ الْقِيَاسُ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ فَإِنْ اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ حُكِّمُهُ غَيْرُ مَنْصُوصٍ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ، أَيْ: رُدُّوا حُكْمَهُ إِلَى الْأَحْكَامِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ فِي الْوَقَائِعِ الْمُشَاهِدَةِ لَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْقِيَاسُ، فَالْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى الْأَخْذِ بِالْقِيَاسِ، فِيمَا لَيْسَ فِيهِ نَصٌّ مِنَ الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ وَفِيمَا لَيْسَ فِيهِ إِجْمَاعٌ.

وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ فَإِنْ اخْتَلَفْتُمْ فِي شَيْءٍ حُكِّمُهُ مَنْصُوصٌ عَلَيْهِ فِي الْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ أَوْ الْإِجْمَاعِ، لَكَانَ دَاخِلًا تَحْتَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وَهُوَ تَكَرَّرٌ لَغَيْرِ حَاجَةٍ يُنَزَّهُ عَنْهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى.

١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (١ / ٣٨)

٢ - رواه أبو داود- أبواب تَفْرِيعِ اسْتِفْتَاكِ الصَّلَاةِ، بَابُ مَنْ تَرَكَ الْقِرَاءَةَ فِي صَلَاتِهِ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٢٤، وَالحَاكِمُ- كِتَابُ الطَّهَارَةِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٨٧١، وَالدَّارِقُطِيُّ- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ وَجُوبِ قِرَاءَةِ أَمِّ الْكِتَابِ فِي الصَّلَاةِ وَخَلَفَ الْإِمَامُ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٢٢٢، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، بِسَنَدٍ فِيهِ ضَعْفٌ

٣ - سُورَةُ الشُّورَى: آيَةٌ / ١٠



وفي الآية دليل على أنّ الكتاب والسنة مُقدَّمان على الإجماع والقياس، فعن معاذ بن جبل، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال: «كيف تفضي إذا عرض لك قضاء؟»، قال: أقضي بكتاب الله، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟»، قال: فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي، ولا ألو فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول، رسول الله لما يرضي رسول الله».<sup>١</sup>

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

أي: إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فلا يحل لكم الرجوع في فصل النزاع إلا إلى الكتاب والسنة، ودليل على أنّ من لم يرجع عند التنازع إلى الكتاب والسنة، لا يكون مؤمناً؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.<sup>٢</sup>

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

أي: ردكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب والسنة خير من التنازع، وأحسن عاقبة ومآلاً.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٢٠٠٧، وأبو داود - كتاب الأفضية، باب اجتهاد الرائي في القضاء، حديث رقم: ٣٥٩٢، والترمذي - أبواب الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في القاضي كيف يفضي، حديث رقم: ١٣٢٧، بسند فيه ضعف

٢ - سورة النساء: الآية/ ٦٥



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾. سُورَةُ التَّسَاءِ: الآيَةُ / ٦٠، ٦٣

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِطَاعَتِهِ تَعَالَى، وَطَاعَةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَ هُنَا حَالٍ مِنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا، وَهَمَّ مَعَ ذَلِكَ لَا يُطِيعُونَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا يَرْتَضُونَ حُكْمَهُ، وَإِنَّمَا يُرِيدُونَ حُكْمَ غَيْرِهِ.

### سَبَبُ النَّزُولِ:

قِيلَ سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ أَبُو بُرْدَةَ الْأَسْلَمِيُّ كَاهِنًا يَفْضِي بَيْنَ الْيَهُودِ فِيمَا يَتَنَافَرُونَ إِلَيْهِ، فَتَنَافَرَ إِلَيْهِ أَنَسٌ مِنْ أَسْلَمَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾. إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَوْفِيقًا﴾<sup>١</sup>.

وَقِيلَ سَبَبُ نَزُولِهَا مَا رُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ بِشْرٌ، وَفِي رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ فِي مُدَارَاةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمَا فِي حَقِّ، فَتَدَارَاةٍ بَيْنَهُمَا فِيهِ، فَتَنَافَرَ إِلَى كَاهِنٍ بِالْمَدِينَةِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا، وَتَرَكَ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَعَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَلِكَ. وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْيَهُودِيَّ كَانَ يَدْعُوهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنْ يَجُورَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ الْأَنْصَارِيُّ يَأْتِي عَلَيْهِ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُسْلِمٌ وَيَدْعُوهُ إِلَى الْكَاهِنِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا تَسْمَعُونَ، فَعَابَ ذَلِكَ

١ - رواه الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٦١)



عَلَى الَّذِي زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ، وَعَلَى الْيَهُودِيِّ الَّذِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَقَالَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صُدُودًا﴾<sup>١</sup>.

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ حُصُومَةٌ، فَدَعَا الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ، وَدَعَا الْمُنَافِقُ الْيَهُودِيَّ إِلَى حَاكِمِهِمْ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ فِي أَحْكَامِهِمْ، فَلَمَّا اخْتَلَفَا اجْتَمَعَا عَلَى أَنْ يُحْكَمَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾، يَعْني الْمُنَافِقَ ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يَعْني الْيَهُودِيَّ، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾<sup>٢</sup>.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ...﴾، سَوَالُ الْغَرَضِ مِنْهُ الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعني الْقُرْآنَ، وَمَا أُنزِلَ مِنَ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُتَحَاكَمُ عِنْدَ النَّزَاعِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَإِلَى غَيْرِ سُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الرَّعْمُ فِي اللُّغَةِ هُوَ الْقَوْلُ الَّذِي لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ؛ قَالَ اللَّيْثُ: أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ يَقُولُونَ زَعَمَ فُلَانٌ إِذَا شَكَّوْا فِيهِ فَلَمْ يَعْرِفُوا أَكْذَبَ أَوْ صَدَقَ؛ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «بِئْسَ مَطْيِئَةٌ الرَّجُلُ زَعَمُوا»<sup>٣</sup>.

وَأَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْكُذْبِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾<sup>٤</sup>.

١ - رواه الطبري في التفسير (٧/ ١٩١)

٢ - رواه الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٦١)

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٧٠٧٥، وأبو داود - كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زعموا، حديث رقم: ٤٩٧٢،

بسند صحيح

٤ - سُورَةُ التَّعَابُثِ: الْآيَةُ / ٧



وَيُسْتَعْمَلُ أحيانًا فِي الْحَقِّ وَالصِّدْقِ؛ قَالَ أُمِّيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ:

وَإِنِّي أَدِينُ لَكُمْ أَنَّهُ

\*\*\*\*\* سَيُنْجِزُكُمْ رَبُّكُمْ مَا زَعَمَ

وَالْمُرَادُ بِالزَّعَمِ هُنَا الْكَذِبُ؛ لِأَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

وَالْآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ عَلَى سَبَبٍ خَاصٍّ، فَإِنَّ الْعِبْرَةَ بَعْمومِ الْفِظِ لَا بِخِصِصِ السَّبَبِ، فَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَاحْتَكَمَ إِلَى غَيْرِهِمَا.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾.

الطَّاغُوتُ مِبَالِغَةٌ مِنَ الطُّغْيَانِ، وَيَطْلُقُ وَيُرَادُ بِهِ عِدَّةٌ مَعَانٍ وَهُوَ هُنَا كُلُّ مَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالْمَعْنَى: يَرِيدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ الْإِيمَانَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَعَ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَفْرِ الطَّاغُوتِ، وَأَنَّ الْإِحْتِكَامَ إِلَيْهِ يَنَافِي الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾<sup>١</sup>.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾<sup>٢</sup>.

وَمَعْنَى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ هُنَا: يُجِبُونَ، أَيْ: يُجِبُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥٦

٢ - سُورَةُ النَّحْلِ: الْآيَةُ / ٣٦



﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

وَالضَّلَالُ الْبَعِيدُ هُوَ الْكُفْرُ، أَي: وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَصْرِفَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَيُلْقِي بِهِمْ فِي مَهَاوِي الْكُفْرِ، وَيَجْعَلُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْحَقِّ مَسَافَةً بَعِيدَةً، وَوَصَفَهُ بِالْبَعِيدِ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهُمْ مَطْمَعٌ فِي الرَّجُوعِ إِلَى الْإِيمَانِ؛ لِعَدَمِ اهْتِدَائِهِمْ إِلَى السَّبِيلِ الْمُوَصِّلِ إِلَيْهِ.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ حَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ احْتَكَمُوا إِلَى الطَّاعُوتِ وَأَحْبَبُوا ذَلِكَ وَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ لَهُ، إِذَا قَالَ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ تَعَالَوْا تَحَاكَمُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ لِيَفْصَلَ بَيْنَكُمْ فِيمَا تَنَازَعْتُمْ فِيهِ، ﴿رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، أَي: بِالْغَاوِ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ وَيَصُدُّونَ عَنْهُ مِنْ أَرَادَ الْإِحْتِكَامَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأَصْلُ الصَّدِّ: الْإِعْرَاضُ وَالْمَنْعُ، كَالسَّدِّ: إِلَّا أَنْ السَّدَّ بِحَائِلٍ مَحْسُوسٍ. وَالصَّدُّ بِحَائِلٍ مَعْنَوِي كَالْكَرَاهِيَةِ.

وَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمَفْعُولَ الْمَطْلُوقَ: ﴿صُدُّودًا﴾؛ لِلتَّوْكِيدِ وَالْمُبَالَغَةِ.

﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾.

أَي: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمْ نِقْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمُ الَّتِي سَلَفَتْ مِنْهُمْ، فَاحْتَجَّجُوا إِلَيْكَ بِأَيِّ وَجْهٍ يَأْتُوكَ، وَقَدْ كَانُوا يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا، سِيحْلِفُونَ لَكَ بِاللَّهِ: مَا أَرَدْنَا بِتَحَاكُمِنَا إِلَى غَيْرِكَ، إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ، أَي: الْمُدَارَاةَ وَالْمُصَانَعَةَ، وَالتَّوْفِيقَ بَيْنَ الْحُصُومِ. وَهَذَا دَأْبُهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِيَخْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾<sup>١</sup>.

١ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الْآيَةُ / ١٠٧



﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: أُولَئِكَ قَوْمٌ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُمْ مُنَافِقُونَ.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾.

أي: فَدَعَاهُمْ فَلَا تُعْنَفُهُمْ وَلَا تُعَاقِبُهُمْ.

﴿وَعِظَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

أي: ذَكَرَهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى وَأَنْصَحَهُمْ، وَأَنْذَرَهُمْ مَغْبَةَ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ اللَّهِ عِزِّ وَجَلِّ، وَقُلْ لَهُمْ فِي مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ كَلَامًا بَلِيغًا رَادِعًا لَهُمْ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: السُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾. المراد به التَّعْجِيبُ مِنْ شَأْنِهِمْ.

والتكرار في قوله تَعَالَى: ﴿يَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، للتأكيد على صدق إيمانهم، وسلامة معتقدتهم.

والإستِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، حَيْثُ اسْتَعَارَ الْبُعْدَ الْمُخْتَصَّ بِالْأَزْمَنَةِ وَالْأَمْكِنَةَ لِلْمَعَانِي الْمُخْتَصَّةِ بِالْقُلُوبِ لِذَوَامِ الْقُلُوبِ عَلَيْهَا.

السُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ﴾؛ للتقريع والتوبيخ.

والتَّرْقِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعِظَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾.

التَّأْكِيدُ وَالْمَبَالِغَةُ بِذِكْرِ الْمَصْدَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾، كَأَنَّهُ قِيلَ: يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا أَيَّ صُدُودٍ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٦٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِطَاعَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي قَوْلِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...﴾. [النِّسَاءِ: ٥٩]، وَذَمَّ مِنْ تَعَمُّدِ مَخَالَفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِالِاحْتِكَامِ إِلَى غَيْرِهِ، بَيَّنَّ هُنَا مَكَانَةَ الرِّسَالِ عَلَيْهِمُ السَّلَامِ وَمِنْهُمْ رَسُولُنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُمْ يَجِبُ طَاعَتُهُمْ لِأَنَّهَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، وَيَجِبُ تَوْقِيرُهُمْ لِأَنَّهُ مِنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

أَيُّ: وَمَا أَرْسَلَ اللَّهُ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا وَفَرَضَ عَلَيَّ مَنْ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ طَاعَتَهُ، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، أَيُّ: بِأَمْرِهِ تَعَالَى وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْأَمْرُ الشَّرْعِيُّ.

وقوله: ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾. لِلْمُبَالَغَةِ، أَيُّ: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ هَذَا الْجِنْسِ أَحَدًا إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَمِنْ الْخَطَأِ الزَّعْمُ أَنَّ (مِنْ) هُنَا زَائِدَةٌ فَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ شَيْءٌ زَائِدٌ، وَلَا يَسْتَوِي أَبَدًا قَوْلَ الْقَائِلِ: (وَمَا أَرْسَلْنَا رَسُولًا إِلَّا)، مَعَ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا﴾ فَإِنَّ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى تَعْظِيمِ الرِّسَالِ مَا لَيْسَ فِي الْجُمْلَةِ الْأُخْرَى.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾.

هَذَا مِنْ لَطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَصَاةِ الَّذِينَ أَرَادُوا التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاعُوتِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى التَّوْبَةِ بَعْدَمَا بَدَرُ مِنْهُمْ مَا بَدَرُ، لِعَظِيمِ رَحْمَتِهِ، وَكَمَالِ إِحْسَانِهِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ جَاءُوا الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَابُوا مِمَّا فَعَلُوا عَنْهُ، وَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ مِنْهُ، وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَعَفَرَ لَهُمْ، وَرَحِمَهُمْ.



## الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الحصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وزيادة حرف (من) في قوله تعالى: ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾. للاستغراق، وزيادة الحرف لزيادة المعنى، ولو لم تدخل لأوهم أنه رسول واحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، جملة معترضة بين الخبر عن الذين يزعمون أنهم آمنوا وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وما يجب عليهم من التوبة إلى الله والاستغفار.

والإلتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾. ولو جرى على الأصل لكان تقديره في غير كلام الله تعالى: جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَتْ لَهُمْ.

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، تعظيماً لشأن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتنويهاً بفضل استغفاره.

والإطناب في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾، لبيان فضل استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٦٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا، فَهِيَ فِي سِيَاقِ التَّحْذِيرِ مِنَ التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى، وَبَيَانِ حَالِ مَنْ تَرَكَ شَرَعَ الرَّحْمَنِ، وَتَحَاكَمَ إِلَى الطَّوَاغِيتِ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

قِيلَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ثَبَتَ عَنْ عُرْوَةَ، قَالَ: حَاصِمَ الزُّبَيْرِ رَجُلًا مِّنَ الْأَنْصَارِ فِي شَرِيحٍ مِّنَ الْحَرَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ كَانَ ابْنُ عَمَّتِكَ، فَتَلَوْنَ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «اسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ»، وَاسْتَوْعَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلزُّبَيْرِ حَقَّهُ فِي صَرِيحِ الْحُكْمِ حِينَ أَحْفَظُهُ الْأَنْصَارِيُّ، كَانَ أَشَارَ عَلَيْهِمَا بِأَمْرٍ هُمَا فِيهِ سَعَةٌ، قَالَ الزُّبَيْرُ: فَمَا أَحْسَبُ هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَّا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾<sup>١</sup>.

وَقِيلَ سَبَبُ نُزُولِهَا مَا كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِّنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِّنَ الْيَهُودِ حُصُومَةً، فَدَعَا الْيَهُودِيُّ الْمُنَافِقَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ الرِّشْوَةَ. وَتَقَدَّمَ ذَكَرَهُ.

وَلَا مَانِعَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي الْأَمْرَيْنِ مَعًا، وَالْعِبْرَةُ بَعْمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

افْتَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَةَ بِ (لَا) النَّافِيَةِ، لِأَنَّهُ يُرِيدُ نَفْيَ أَمْرٍ سَبَقَ فَيَكُونُ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَهُمْ يُخَالِفُونَ حُكْمَكَ، ثُمَّ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَاتِهِ الْكَرِيمَةِ عَلَى نَفْيِ إِيمَانٍ مَنْ لَمْ يُحَكِّمُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، أَي: لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾، حديث رقم:

٤٥٨٥، ومسلم - كتاب الفضائل، باب وجوب اتباعه صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٢٣٥٧



يَجْعَلُوكَ حَكْمًا بَيْنَهُمْ فِيمَا التَّبَسَّ عَلَيْهِمْ حُكْمُهُ فَاحْتَلَفُوا فِيهِ، وَتَنَازَعُوا، يُقَالُ: شَجَرَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْأَمْرِ، إِذَا احْتَلَفُوا فِيهِ، وَاشْتَجَرُوا: تَنَازَعُوا.

وَأَتَى بِحَرْفِ النَّفْيِ قَبْلَ الْقَسَمِ لِلِاهْتِمَامِ بِالنَّفْيِ؛ كَقَوْلِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ:

فَلَا وَاللَّهِ أَشْرُبُهَا صَحِيحًا

\*\*\*\*\* وَلَا أَشْفَى بِهَا أَبَدًا سَقِيمًا

ثُمَّ كَرَّرَ النَّفْيَ بَعْدَ الْقَسَمِ تَأْكِيدًا لِلِاهْتِمَامِ بِالنَّفْيِ.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

أي: ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ضَيْقًا مِمَّا قَضَيْتَ بِهِ، وَيُدْعُونَ لِقَضَائِكَ وَحُكْمِكَ إِذْعَانًا.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: التأكيد بالنفي قبل القسم للاهتمام بالمقسم عليه في قوله:

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾.

والتأكيد كذلك بتكرار النفي بعد القسم مبالغة في النفي.

ثم التوكيد اللفظي في قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

والترقي في قوله: ﴿حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، فبدأ بالتحاكم إلى الشرع، ثم ترقى إلى نفي الحرج من أحكامه وهو أبلغ

من مجرد التحاكم، ثم ترقى إلى التسليم وهو أعظم وأبلغ في الطاعة منهما.

والجناس المعايير في قوله: ﴿وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا (٦٦) وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا (٦٧) وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٦٦ - ٦٨

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

قِيلَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ثَبَتَ عَنِ السُّدِّيِّ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. افْتَحَرَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ وَرَجُلٌ مِنْ يَهُودٍ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْنَا أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ، فَقَتَلْنَا أَنْفُسَنَا. فَقَالَ ثَابِتٌ: وَاللَّهِ لَوْ كَتَبَ عَلَيْنَا أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ لَقَتَلْنَا أَنْفُسَنَا. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي هَذَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾.<sup>١</sup>

فَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَّصِلَةٌ بِمَا قَبْلَهَا، وَالْمَرَادُ: لَوْ أَنَّ اللهُ تَعَالَى فَرَضَ عَلَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، كَمَا أَمَرَ أَصْحَابُ مُوسَى، أَوْ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ مُهَاجِرِينَ مِنْهَا، مَا قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ، وَلَا خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ، مَا كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ إِلَّا طَاعَةَ الرَّسُولِ وَالرِّضَى بِحُكْمِهِ، ثُمَّ اسْتَشَى الْقَلِيلَ فَقَالَ: إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ.

عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبَّيْعِيِّ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. قَالَ رَجُلٌ: لَوْ أَمَرْنَا لَفَعَلْنَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانَا. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «إِنَّ مِنْ أُمَّتِي لَرِجَالًا الْإِيمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي».<sup>٢</sup>

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثِيئًا﴾.

أَي: وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، وَهُمْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الطَّاعُوتِ، فَعَلُوا مَا يُؤْمَرُونَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ

١ - رواه الطبري في التفسير (٧/ ٢٠٧)، وابن أبي حاتم (٣/ ٩٩٦)

٢ - تفسير الطبري (٧/ ٢٠٧)



الإِعْرَاضِ وَالصِّدِّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَجَمَعَ اللَّهُ لَهُم بَيْنَ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكَانَ أَشَدَّ تَنْبِيئًا لَهُمْ عَلَى الْحَقِّ.

وَسُمِّيَتْ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى مَوَاعِظَ لِاقْتِرَانِهَا بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

عَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي لَفَعَلْتُ. قَالَ: صَدَقْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ<sup>١</sup>. وَسُئِلَ سُفْيَانُ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ نَزَلَتْ كَانَ ابْنُ أُمِّ عَبْدِ مِنْهُمْ<sup>٢</sup>. ﴿وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وَالْأَجْرُ كِنَايَةٌ عَنِ الثَّوَابِ عَلَى الطَّاعَةِ، وَالْمَرَادُ بِهِ هُنَا الْجَنَّةُ، وَوَصَفُهُ بِالْعَظِيمِ؛ لِأَنَّ الْجَنَّةَ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ لَدُنَّا﴾. تَفْخِيمٌ لِشَأْنِ ذَلِكَ الْعَطَاءِ؛ لِأَنَّ الْعَظِيمَ لَا يَنْسَبُ لِنَفْسِهِ إِلَّا الْعَظِيمِ، وَتَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ يَدُلُّ عَلَى التَّخْصِيسِ.

﴿وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾.

أَيُّ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَا يَنْجُو عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ اهْتَدَى عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فِي الدُّنْيَا.

١ - رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٣/ ٩٩٥)

٢ - رواه ابن أبي حاتم في التفسير (٣/ ٩٩٦)



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ٦٩ - ٧٠.

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَاللَّهِ إِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَإِنَّكَ لَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَهْلِي وَمَالِي، وَأَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وَلَدِي، وَإِنِّي لَأَكُونُ فِي الْبَيْتِ فَأَذْكُرُكَ فَمَا أَصْبِرُ حَتَّى آتِيكَ فَأَنْظُرَ إِلَيْكَ، وَإِذَا ذَكَرْتُ مَوْتِي وَمَوْتَكَ عَرَفْتُ أَنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ رُفِعَتْ مَعِ النَّبِيِّينَ، وَإِنِّي إِذَا دَخَلْتُ الْجَنَّةَ حَشِيتُ أَنْ لَا أَرَكَ، فَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا حَتَّى نَزَلَ جَبْرِيْلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِهَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾<sup>١</sup>.

وورد التصريح باسم هذا الصحابي المهم في حديث عائشة عند الواحدي في أسباب النزول، قَالَ الْكَلْبِيُّ: نَزَلَتْ فِي ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ شَدِيدَ الْحُبِّ لَهُ قَلِيلَ الصَّبْرِ عَنْهُ، فَأَتَاهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَدْ تَعَيَّرَ لَوْنُهُ وَنَحَلَ جِسْمُهُ يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْحُزْنَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: "يَا ثَوْبَانُ مَا عَيَّرَ لَوْنُكَ؟" فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا بِي مِنْ ضُرٍّ وَلَا وَجَعٍ غَيْرَ أَنِّي إِذَا لَمْ أَرَكَ اشْتَقْتُ إِلَيْكَ وَاسْتَوْحَشْتُ وَحَشَنَةً شَدِيدَةً حَتَّى أَلْقَاكَ، ثُمَّ ذَكَرْتُ الْآخِرَةَ وَأَخَافُ أَنْ لَا أَرَكَ هُنَاكَ، لِأَنِّي أَعْرِفُ أَنَّكَ تُرْفَعُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَأَنِّي وَإِنْ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ كُنْتُ فِي مَنْزِلَةٍ أَدْنَى مِنْ مَنْزِلَتِكَ، وَإِنْ لَمْ أَدْخُلِ الْجَنَّةَ فَذَاكَ أَحْرَى أَنْ لَا أَرَكَ أَبَدًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ<sup>٢</sup>.

وَقَالَ مُقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَيْدِ بْنِ عَبْدِ رَبِّهِ الْأَنْصَارِيِّ وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْأَذَانَ فِي الْمَنَامِ مَعَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١ - رواه الطبراني في الأوسط - حديث رقم: ٤٧٧، والصغير - حديث رقم: ٥٢، بسند حسن

٢ - رواه الواحدي في أسباب النزول (ص: ١٦٥)



وهذه الآية وإن نزلت على سبب خاص فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهي تشمل كل مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَأَطَاعَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾.

لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَ الْمُتَنَافِقِينَ وَإِعْرَاضِهِمْ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ذَكَرَ هُنَا ثَوَابَ مَنْ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَيُّ: مَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَاجْتَنَبَ مَا نَهَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْهُ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْعَلُهُ مُرَافِقًا لِلْأَنْبِيَاءِ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ.

وَالصِّدِّيقُونَ هُمُ الَّذِينَ بَادَرُوا إِلَى تَصَدِيقِ الْأَنْبِيَاءِ، مِثْلَ الْحَوَارِيِّينَ وَالسَّابِقِينَ الْأَوْلِيَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالشُّهَدَاءِ هُمُ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالصَّالِحُونَ الَّذِينَ لَزِمُوا سَبِيلَ الْإِسْتِقَامَةِ.

﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

ثم أثنى الله تعالى عليهم، أَيُّ: وَمَا أَحْسَنَ هَؤُلَاءِ الرَّفِيقَاءِ، وَالرَّفِيقُ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ تَفْسِيرٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.

﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

أَيُّ: ذَلِكَ الْفَضْلُ الَّذِي يَنْبَغِي الْحِرْصُ عَلَى تَحْصِيلِهِ، وَأَحْبَرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا تِلْكَ الدَّرَجَةَ بِطَاعَتِهِمْ بَلْ نَالُوهَا بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَمِهِ.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾.

أَيُّ: وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا بَمَنْ أَطَاعَهُ، وَالْمَرَادُ بِذَلِكَ وَعْدُ اللَّهِ بِإِكْرَامِهِ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حُذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا (٧١) وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا (٧٢) وَلَكِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٧١ - ٧٣

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، أمر هنا بأشد التكاليف وهو الجهاد في سبيله، ليكون ذلك تربية للمؤمنين على ما هو دونه، فمن ذل نفسه في الجهاد في سبيل الله هان عليه كل أمر بعدها.

أمر الله تعالى المؤمنين بأخذ الحيطة والحذر من عدوهم، وذلك يستلزم بث العيون التي تأتي الأخبار؛ حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة، ويستلزم التأهب للقتال كل حين بإعداد الأسلحة وتجهيز الجيوش، وتدريبهم على فنون القتال، وغرس معاني الجهاد في نفوسهم.

الحذر هو التحرز، يُقال: أخذ حذره إذا احتزر واحتاط مما يخاف، كأنه جعل الحذر آتته التي يتقي بها ويعتصم، والمعنى: احتزروا من العدو.

وأخذ الحذر: الاستعداد بكل ما يستعد به للقاء العدو من السلاح وغيره.

﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾.

أي: اخرجوا في سرايا متفرقين سرية بعد سرية، والثبات جماعات واحدها ثبة، وهي الجماعة من الرجال فوق العشرة.

﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾.

أي: أو اخرجوا مجتمعين كلكم مع النبي صلى الله عليه وسلم.



﴿وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لِيُبْطِنَنَّ﴾.

أَي: وَأَنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ يَتَأَخَّرُ، وَلِيَتَنَاقَلَ عَنِ الْجِهَادِ، وَهُمْ الْمَنَافِقُونَ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿مِنْكُمْ﴾؛ لِمَخَالَطَتِهِمْ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ، وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ، فَهَمَّ مِنْهُمْ فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ لَا فِي حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ، وَالتَّبْطِئَةُ: التَّأَخُّرُ عَنِ الْأَمْرِ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُبْطِنَنَّ﴾. أَنَّهُ يَتَبَاطَأُ، وَيُبْطِئُ غَيْرُهُ عَنِ الْجِهَادِ كَمَا كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سَلُولٍ يَفْعَلُ، يَتَأَخَّرُ عَنِ الْجِهَادِ وَيَتَّبِطُ النَّاسَ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ.

وَأَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى تَأَخُّرَهُمْ عَنِ الْجِهَادِ بِثَلَاثِ تَأْكِدَاتٍ لِيَبِينَنَّ أَنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَأَخَّرُونَ قَصْدًا، الْأَوَّلُ بـ (إِنَّ)، والثاني: بلام التوكيد في ﴿لَمَنْ﴾. والثالث: بلام القسم في ﴿لِيُبْطِنَنَّ﴾.

﴿فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾.

أَي: فَتُلَّ وَهَزِيمَةٌ.

﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾.

أَي: قَالَ فَرِحًا بِفَعْلِهِ وَمَعْجَبًا بِرَأْيِهِ: قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِالْفُجُودِ، إِذْ لَمْ أَكُنْ حَاضِرًا مَعَهُمْ تِلْكَ الْمَعْرَكَةَ فَيُصِيبُنِي مَا أَصَابَهُمْ.

﴿وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أَي: فَتُحَّ وَعَنِيمَةٌ.

﴿لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أَي: لَيَقُولَنَّ نَادِمًا عَلَى قَعُودِهِ، وَمَتَحَسِّرًا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ الْعَنِيمَةِ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فِي تِلْكَ الْعَزَاةِ، لِأَخْذِ نَصِيبًا وَافِرًا مِنَ الْعَنِيمَةِ.

وقوله: ﴿كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾، جملة معترضة لبيان أن تمنيته لمعية المؤمنين لم يكن لنصرتهم ولا لتكثير سوادهم بل لحرصه على المال، وذكر المودة هنا على سبيل التهكم.



## الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاعتراض في قوله: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

والمقابلة بين (ثبات) و(جميعاً) في قوله: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.

والإطناب في قوله: ﴿فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ اَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٧٤

مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا دَمَّ اللهُ تَعَالَى الْمُبْطِئِينَ فِي الْجِهَادِ أَمَرَ هُنَا بِالْتَّرْغِيبِ فِيهِ وَوَعَدَ الْمُجَاهِدِينَ بِالْأَجْرِ الْعَظِيمِ سِوَاءِ مَنْهُمْ مَنْ قُتِلَ وَمَنْ انْتَصَرَ وَغَنِمَ فَقَالَ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾.

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، ثُمَّ مَدَحَ اللهُ تَعَالَى مَنْ امْتَثَلَ أَمْرَهُ زِيَادَةً فِي حُضِّهِ عَلَى الْجِهَادِ وَتَرْغِيبًا لَهُ فِيهِ فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾، أَي: الْمُخْلِصُونَ الَّذِينَ يَبْذُلُونَ أَنْفُسَهُمْ لِنَصْرَةِ دِينِ اللهِ، وَيَبِيعُونَ حَيَاتَهُمُ الدُّنْيَا بِثَوَابِ الْآخِرَةِ. وَشَرَى أَي: بَاعَ، وَابْتَاعَ يَعْنِي: اشْتَرَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾. [البقرة: ٢٠٧]، أَي: يَبِيعُهَا.

وَالَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا هُمُ الَّذِينَ يَبْذُلُونَهَا رَحِيصَةً، رَغْبَةً مِنْهُمْ فِي الْفَوْزِ بِالْآخِرَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ الْجَنَّةَ...﴾.

وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ إِنَّ لَمْ يُقَاتِلْ هُوَ لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ الْمَذْكُورِينَ أَنْفَاءً.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

هَذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِلْمُقَاتِلِينَ فِي سَبِيلِهِ بِأَنَّهُ سَيُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا سِوَاءِ مَا فِي ذَلِكَ مَنْ قُتِلَ وَمَنْ انْتَصَرَ وَغَنِمَ؛ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتْتَدَبَ اللهُ لِمَنْ حَرَجَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا إِيمَانًا بِي وَتَصَدِيقًا بِرُسُلِي، أَنْ أَرْجِعَهُ بِمَا نَالَ مِنْ



أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ، أَوْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَيَّ أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ حَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوْ دِدْتُ أَنِّي  
أُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ<sup>١</sup>.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: آثروا  
الدنيا على الآخرة، استعير لفظ الشراء للمبادلة وهو من لطف الاستعارة.

الاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، استعير لفظ الإيتاء لما يناله من النعيم  
في الآخرة.

الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، استعير لفظ السبيل وهو الطريق لإتباع  
منهج الله تعالى.

والطباق بين: (الدنيا) ، و (الآخرة).

١ - رواه البخاري- كتاب الإيمان، باب: الجهاد من الإيمان، حديث رقم: ٣٦، ومسلم- كتاب الإمارة، باب فضل  
الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم: ١٨٧٦



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٧٥

من مقاصد الجهاد في سبيل الله تعالى إعلاء كلمة الله وإظهار دينه، واستنقاذ المستضعفين من المؤمنين من أيدي الكفار الذين يسومونهم سوء العذاب، ليفتنوهم عن دينهم، ومن أجل ذلك حض الله تعالى على الجهاد في سبيله، فعن مجاهد قال: أمر المؤمنين أن يقاتلوا عن مستضعفين مؤمنين كانوا بمكة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هم أناس مسلمون كانوا بمكة لا يستطيعون أن يخرجوا منها ليهاجروا، فعذرهم الله، وفيهم نزل قوله: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾ فهي مكة.

وفي شأن مكة يقول تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا ناصِرَ لَهُمْ﴾<sup>١</sup>.

وقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ أي: ما يمنعكم من القتال، والعرض من السؤال الإنكار عليهم إذا تركوا القتال في سبيل الله مع ما فيه من إعلاء كلمة الله، ومع حاجة المستضعفين إلى نصرتهم، وفائدة الإنكار عليهم: توكيد الأمر بالجهاد.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾.

قوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾. يحتل أمرين: الأول: أن يكون معطوفاً على سبيل الله، فيكون المعنى: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وفي خلاص المستضعفين. والثاني: أن يكون معطوفاً على اسم الله عز وجل، فيكون المعنى: فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ الْمُسْتَضْعَفِينَ.

١ - سورة محمد: الآية/ ١٣



وَالْمُرَادُ بِالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بَفُوا بِمَكَّةَ وَعَجَزُوا عَنْ  
الهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانُوا يَلْقَوْنَ مِنْ كُفَّارِ مَكَّةَ أذى شديداً.

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُوا بِالنَّجَاةِ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ فَيُسَمِّيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ، فَيَقُولُ:  
«اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَسَلْمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بْنَ أَبِي رَيْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ بِمَكَّةَ».<sup>١</sup>

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِمَّنْ عَدَرَ اللَّهُ».<sup>٢</sup>

﴿وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾.

سَأَلُوا اللَّهَ وَلِيًّا مِنْ عِنْدِهِ تَوَلَّى إِخْرَاجَهُمْ مِنْ مَكَّةَ، وَنَصِيرًا يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ، فَاسْتَجَابَ اللَّهُ  
تَعَالَى دُعَاءَهُمْ، فَجَعَلَ لَهُمْ مِنْ لَدُنْهُ حَيَّرَ وَوَلِيًّا وَنَاصِرًا، وَهُوَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،  
فَتَوَلَّاهُمْ أَحْسَنَ التَّوَلَّى، وَنَصَرَهُمْ أَقْوَى النَّصْرِ. وَلَمَّا خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ وَوَلَّى عَلَيْهِمْ عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ  
فَكَانَ يُنْصِفُ الضَّعِيفَ مِنَ الْقَوِيِّ.

الفرق بين الوَلِيِّ والنَّصِيرِ أَنَّ الْوَلِيَّ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى حِفْظَ الشَّيْءِ فِي كُلِّ حَالٍ، وَالنَّصِيرُ هُوَ الَّذِي  
يَنْصُرُهُ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ.

وَالآيَةُ وَإِنْ كَانَتْ نَزَلَتْ فِي أَهْلِ مَكَّةَ إِلَّا أَنَّهَا تَعْمُ الْمَشْرِكِينَ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ  
عَصْرِ وَمِصْرٍ؛ قَالَ ابْنُ عَطِيَّةَ: وَالآيَةُ تَتَنَاوَلُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْأَسْرَى، وَحَوَاضِرَ الشِّرْكِ إِلَى يَوْمِ  
الْقِيَامَةِ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: السُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.  
الغَرَضُ مِنَ الْإِنْكَارِ وَفَائِدَتُهُ: تَوْكِيدُ الْأَمْرِ بِالْجِهَادِ.

١ - رواه البخاري - كتاب الأدب، باب تسمية الوليد، حديث رقم: ٦٢٠٠، ومسلم - كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الفئوت في جميع الصلوة إذا نزلت بالمسلمين نازلة، حديث رقم: ٦٧٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه

٢ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ [النساء: ٧٥] الآية، حديث رقم: ٤٥٨٨



والطباق بين: (الرِّجَالِ)، وَ (النِّسَاءِ).

والترقي في الضعف في قوله تعالى: ﴿مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، فالنساء أضعف من الرجال ولولدان أضعف حالاً من النساء.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٧٦

لما حَضَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ عَلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، لِنُصْرَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، بَيَّنَّ هُنَا غَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْقِتَالِ، فَإِنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ تَدَفَعَهُ الْحِمِيَّةُ لِنُصْرَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَيَغْفِلُ عَنِ الْمَقْصِدِ الْأَصْلِيِّ مِنَ الْقِتَالِ، وَهِيَ إِعْلَاءُ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ؛ فَعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ حِمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ رِبَاءً، أَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»<sup>١</sup>.

وبين تعالى غاية الكفار من القتال فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾؛ ليكون ذلك ترغيباً للمؤمنين في القتال بعد الترغيب الأول، والمراد بالطاغوت هنا الشيطان بقرينة ذكره بعد ذلك.

﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

ثم حَرَّضَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ أَعْدَائِهِ، فوصفهم أنهم أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ، ثم قَوَّى عَزَائِمَهُمْ فِي مَقَاتِلَةِ الْمُشْرِكِينَ فَقَالَ: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، وفيه إشارة إلى ضعف كيد المشركين من باب أولى، إذا وليهم الذي يقاتلون في سبيله ضعيف الكيد فهم أشدُّ ضعفاً.

وَحَرَّضَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى قِتَالِ الْكُفَّارِ لِيَعْبُدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامَةَ الْعَدْلِ فِي الْأَرْضِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾<sup>٢</sup>.

١ - رواه البخاري - كتاب العلم، باب مَنْ سَأَلَ، وَهُوَ قَائِمٌ، عَالِمًا جَالِسًا، حديث رقم: ١٢٣، مسلم - كتاب الإمامة،

باب مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حديث رقم: ١٩٠٤

٢ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ / ٢٥١



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلَامِ الْغُيُوبِ

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيَعٍ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>١</sup>.

وَأَمَّا كَانَ كَيْدُ الشَّيْطَانِ ضَعِيفًا؛ لِأَنَّهُ غُرُورٌ وَأَمَانِي كَاذِبَةٌ، وَتَزْيِينٌ لِلْبَاطِلِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾<sup>٢</sup>.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: المقابلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾، اسْتِعَارَ الطَّرِيقَ لِلِاتِّبَاعِ وَالْمُحَالَفَةِ.

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، لتهييج النفوس على عداوته، وتشجيعها على محاربة أوليائه.

والتذييل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾، لتأكيد ضعفه، وتقوية قلوب المؤمنين لمحاربة أوليائه.

١ - سُورَةُ الْحُجِّجِ: الْآيَةُ/٤٠.

٢ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/١٢٠.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٧٧

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ، وَأَصْحَابًا لَهُ أَتَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي عِزٍّ وَحُرِّ مُشْرِكُونَ، فَلَمَّا آمَنَّا صِرْنَا أَذِلَّةً، فَقَالَ: «إِنِّي أُمِرْتُ بِالْعَفْوِ، فَلَا تُقَاتِلُوا» فَلَمَّا حَوَّلَنَا اللَّهُ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرْنَا بِالْقِتَالِ، فَكُفُّوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾<sup>١</sup>.

اقتضت حكمة الله تعالى ألا يكون تشريع الجهاد في مكة، مع اشتداد أذى المشركين على المؤمنين، وكانوا يشتكون لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ما يلقونه من المشركين من الأذى الشديد، ويقولون: ائذن لنا في قتالهم. فيقول لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ فَإِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِقِتَالِهِمْ، وَأَدُوا مَا أُمِرْتُمْ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، وَكَانَ يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ وَالْعَفْوِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.

فلما ترسخت العقيدة في قلوب المؤمنين، وقويت شوكتهم، أذن الله تعالى لهم في الهجرة، ثم أذن لهم في القتال لردِّ عدوان المشركين، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>٢</sup>.

١ - رواه النسائي - كتاب الجهاد، باب: وجوب الجهاد، حديث رقم: ٣٠٨٦، والحاكم - كتاب التفسير، تفسير سورة

النساء، حديث رقم: ٣٢٠٠، بسند صحيح

٢ - سورة الحج: الآية / ٣٩



فَلَمَّا أَمُرُوا بِالْقِتَالِ الَّذِي كَانُوا يَسْأَلُونَهُ، وَيَحْرِصُونَ عَلَيْهِ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾، خَافَ بَعْضُهُمْ مِنْ مُوَاجَهَةِ الْمُشْرِكِينَ خَوْفًا شَدِيدًا، وَمَالُوا إِلَى الدَّعَاةِ، وَرَكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾.

أَيُّ: هَلَّا أَخَّرْتَ فِرْضَ الْقِتَالِ إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ، وَإِنَّمَا قَالُوا ذَلِكَ فِرَارًا مِنَ الْقِتَالِ، كَمَا يَقُولُ مَنْ يَطْلُبُ مِنْهُ أَمْرٌ شَاقٌّ عَلَى نَفْسِهِ: أَمْهَلْنِي قَلِيلًا. وَهُوَ لَا يَرِيدُ فِعْلَهُ، وَليْسَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِمْ لَكَ الْمَوْتِ، إِنَّمَا التَّسْوِيفُ رَغْبَةً فِي الْحَيَاةِ.

وَمَا كَانَ أَمْرُهُمْ عَجِيبًا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ...﴾. تَعَجِيبًا مِنْ شَأْنِهِمْ، وَتَوْبِيحًا لَهُمْ، فَلَيْسَ هَذَا شَأْنٌ مِنْ يَرِيدُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، بَلْ هَذَا شَأْنٌ مِنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَيَحْرِصُ عَلَيْهَا.

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾.

أَيُّ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَرِهُوا الْقِتَالَ رَغْبَةً فِي الْبَقَاءِ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ: بِقَاوُكُمْ فِي الدُّنْيَا قَلِيلٌ، وَتَمْتَعُكُمْ بِهَا زَائِلٌ؛ لِأَنَّهَا فَانِيَةٌ.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

أَيُّ: وَثَوَابُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِمَنِ أَطَاعَ اللَّهُ تَعَالَى، ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾. أَيُّ: وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ بِمَقْدَارِ فَتِيلِ النَّوَاةِ.

وَقِيلَ: الْمُرَادُ لَا تُنْقِصُونَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ سَاعَةً، وَالْمُرَادُ بِالظُّلْمِ هُنَا النِّقْصَانُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ أَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الْكَهْفُ: ٣٣]، أَيُّ: وَلَمْ تَنْقُصْ مِنْهُ شَيْئًا.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: السُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، لِلتَّعَجِيبِ، حَيْثُ تَعَجَّلُوا الْقِتَالَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ أَوَانِهِ، وَنَكَصُوا عَنْهُ حِينَ أَمُرُوا بِهِ.



والاستعارة في قوله تعالى: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾، أَطْلَقَ كَفَّ الْيَدِ الَّذِي هُوَ مُحْتَصٌّ بِالْأَجْرَامِ عَلَى  
الإمساكِ عَنِ الْقِتَالِ.

والتشبيه في قوله تعالى: ﴿كَحَشِيَةِ اللَّهِ﴾.

والطباق في: (الدُّنْيَا)، وَ (الْآخِرَةُ).

والجناس المغاير في: (يَخْشَوْنَ)، وَ (كَحَشِيَةِ).

والالتهاف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾، على قراءة ابن كثيرٍ وَحَمَزَةٍ وَالْكَسَائِيِّ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٧٨

لما حكى الله تعالى حال فريق من المؤمنين الذين مالوا إلى الدعة، وركنوا إلى الدنيا، وكرهوا القتال خوفاً من القتل، وأملاً في طول البقاء، ذكر سبحانه وتعالى هنا أن الموت مصير كل مخلوق، ومورد كل حي؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾<sup>١</sup>.  
وَلَا يَنْجُو مِنْهُ أَحَدٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾<sup>٢</sup>.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾.

(أَيْنَمَا) تَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، وَمَعْنَاهَا: حَيْثُمَا تَكُونُوا يَبْلُغْكُمْ الْمَوْتُ، وَقَوْلُهُ: ﴿يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ﴾. يشعرُ باجتهادهم في الهرب من الموت، وهو يسعى في طلبهم سعياً حثيثاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾<sup>٣</sup>.  
﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾.

الْبُرُوجُ الْمَشَيَّدَةُ هِيَ: الْحُصُونُ الْمُرْتَفَعَةُ الْمَنِيَعَةُ؛ وَأَصْلُ الْبُرُوجِ فِي اللَّعَةِ الظُّهُورُ؛ وَمِنْهُ التَّبْرُجُ وَهُوَ إِظْهَارُ الْمَرَأَةِ مَحَاسِنَهَا، وَتُطْلَقُ الْبُرُوجُ عَلَى الْكَوَاكِبِ؛ لظهورها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْبُرُوجُ: الْحُصُونُ وَالْأَكَامُ وَالْقَلَاعُ.

و (لَوْ) هُنَا بِمَعْنَى (إِنْ) وَجَاءَتْ لِدْفَعِ تَوْهَمِ النَّجَاةِ مِنَ الْمَوْتِ، وَإِظْهَارِ اسْتِقْصَاءِ الْعُمُومِ فِي (أَيْنَمَا).

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ١٨٥

٢ - سُورَةُ الرَّحْمَنِ: الْآيَةُ / ٢٦، ٢٧

٣ - سُورَةُ ق: الْآيَةُ / ١٩



﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

هذا بيان من الله تعالى لحال هؤلاء الذين لم يتمكن الإيمان في قلوبهم أنهم كانوا يقولون إن أصابتهُمْ حَسَنَةٌ، أَي: خِصْبٌ وَرِزْقٌ وَسَلَامَةٌ وَأَمْنٌ وَأَوْلَادٌ: هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

أَي: إِنْ أَصَابَهُمْ فَحْطٌ وَجَدْبٌ وَخَوْفٌ وَفَقْرٌ وَنَقْصٌ فِي الثَّمَارِ وَمَوْتُ الْأَوْلَادِ، يَقُولُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا الَّذِي أَصَابَنَا بِشَوْمِكَ وَبِسَبَبِ اتِّبَاعِنَا لَكَ وَاعْتِنَا لِدِينِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمٍ فِرْعَوْنَ: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾<sup>١</sup>.

﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾.

أَي: الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ، وَالشَّدَّةُ وَالرَّخَاءُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالْكُلُّ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ لَهُ دَفْعًا؛ فَلَا رَادَّ لِأَمْرِهِ، وَلَا مَعْقَبَ لِحُكْمِهِ.

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾.

أَي: مَا شَأْنُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ قَوْلًا يُقَالُ لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامٍ مَنْ لَا يَعْقِلُ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾، استعارة الإدراك الذي هو صفة من فيه حياة الخلود الموت.

والطباق في: (حَسَنَةٌ)، و (سَيِّئَةٌ).

والسؤال في قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، والغرض منه التفریع.

١ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ١٣١



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٧٩

لما بين الله تعالى أَنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ الْكُلَّ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، بَيْنَ تَعَالَى لِعِبَادِهِ هُنَا مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ نِسْبَةُ الْخَيْرِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَنِسْبَةُ الشَّرِّ لِلنَّفْسِ، لَا عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَادِ لِلْعِبَادِ بَلْ تَأْدِبًا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى؛ فَقَالَ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾. أَي: مَا أَصَابَكَ مِنْ خَيْرٍ وَرَحَاءٍ وَنِعْمَةٍ وَعَافِيَةٍ، فَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْكَ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْكَ. ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾.

أَي: وَمَا أَصَابَكَ مِنْ شَرٍّ وَبَلَاءٍ وَشِدَّةٍ، فَبِدَنْبِكَ، وَمَا كَسَبْتَ يَدُكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.<sup>١</sup>

وَلَا تَعَارِضُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾، كَمَا ذَكَرْنَا.

وَالكَلَامُ إِلَى هُنَا خَاصٌّ يَرَادُ بِهِ الْعُمُومُ وَإِنَّمَا وَجَّهَ الْخِطَابُ لِلرَّسُولِ لِيَكُونَ رَدًّا عَلَى مَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ كَوْنِهِ مَصْدَرًا لِلسَّيِّئَاتِ الَّتِي تُصِيبُهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

لِتُبَلِّغَهُمْ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْعُمُومُ فِي لَفْظِ: (النَّاسِ) يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.<sup>٢</sup>

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.<sup>٣</sup>

١ - سُورَةُ الشُّورَى: الْآيَةُ / ٣٠

٢ - سُورَةُ الْأَعْرَافِ: الْآيَةُ / ١٥٨

٣ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الْآيَةُ / ١



وثبت ذلك بالسنة المتواترة؛ ومن ذلك ما ثبت عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أُعْطِيَتْ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ حَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ».<sup>١</sup>

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾.

رَدُّ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ رِسَالَتَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَيُّ: عَلَى أَنَّهُ أَرْسَلَكَ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.<sup>٢</sup>

١ - رواه البخاري - كِتَابُ التَّيْمَمِ، حَدِيثُ رَقْم: ٣٣٥، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، حَدِيثُ رَقْم: ٥٢١

٢ - سُورَةُ الرَّعْدِ: آيَةُ / ٤٣



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا (٨٠) وَيَتَوَلَّوْنَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٨٠، ٨١

مناسبة الآية لما قبلها:

لما قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾. [النساء: ٧٩]، بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ مِنْ لَوَازِمِ بَرَسَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، طَاعَتِهِ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ وَالِانْتِهَاءَ عَنْ كُلِّ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ؛ لِأَنَّهُ مُبَلِّغٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَلِأَنَّهُ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى؛ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾<sup>١</sup>.

وَلَا يَتَحَقَّقُ إِيمَانٌ إِلَّا بِذَلِكَ، فَمَنْ أَطَاعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ تَعَالَى، وَمَنْ عَصَاهُ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ تَعَالَى؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي»<sup>٢</sup>.

وَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ التَّنْوِيهِ بِشَرَفِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعُلُوقِ شَانِهِ وَارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَرَنَ طَاعَتَهُ بِطَاعَتِهِ، فَقَالَ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

كَمَا قَرَنَ بَيْعَتَهُ بِبَيْعَتِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾<sup>٣</sup>.

وَقَرَنَ عِزَّتَهُ بِعِزَّتِهِ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾<sup>٤</sup>.

١ - سُورَةُ النَّجْمِ: الآيَةُ / ٤

٢ - رواه البخاري - كِتَابُ الْأَحْكَامِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، حَدِيثِ رَقْمٍ: ٧١٣٧، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ وُجُوبِ طَاعَةِ الْأَمْرَاءِ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ، وَتَحْرِيمِهَا فِي الْمَعْصِيَةِ، حَدِيثِ رَقْمٍ: ١٨٣٥

٣ - سُورَةُ الْفَتْحِ: الآيَةُ / ١٠

٤ - سُورَةُ الْمُتَافِقُونَ: الآيَةُ / ٨



وَقَرَنَ رِضَاهُ بِرِضَاهُ فَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾<sup>١</sup>.

وَقَرَنَ إِجَابَتَهُ بِإِجَابَتِهِ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أَيُّ: وَمَنْ أَعْرَضَ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ اللَّهُ رَقِيبًا عَلَيْهِمْ، وَمُحَاسِبًا لَهُمْ، إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ، وَفِيهِ تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُ سَيَتَوَلَّى حِسَابَهُمْ.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى ضَعْفَ هَؤُلَاءِ الْمُخَالَفِينَ لِأَمْرِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْمَجَاهِرَةَ بِمُخَالَفَتِهِ، بَلْ يُظْهِرُونَ الطَّاعَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالُوا طَاعَةٌ، أَيُّ: أَمَرْنَا طَاعَةً، فَإِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِهِ، تَأَمَّرُوا عَلَيْهِ سِرًّا وَأَضْمَرُوا مُخَالَفَتَهُ، وَإِنَّمَا قَالَ ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ﴾؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْتَمِعُونَ لَيْلًا لِأَنَّهُ أَحْفَى لَهُمْ وَأَكْتَمَ لِسِرِّهِمْ.

﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾.

أَيُّ: يَأْمُرُ الْحَفِظَةَ الْكَاتِبِينَ بِكِتَابَتِهِ، وَهُوَ تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُ مَطَّلَعٌ عَلَيْهِمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَكْرَهُمْ.

﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أَيُّ: اتْرَكْهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ، وَلَا تَهْتَمْ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا، وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ.

١ - سُورَةُ التَّوْبَةِ: الْآيَةُ / ٦٢

٢ - سُورَةُ الْأَنْفَالِ: الْآيَةُ / ٢٤



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٨٢

### مناسبة الآية لما قبلها:

لما أخبر الله تَعَالَى في الآيات السابقة عن إعراض طائفة من الناس عن أسباب الإيمان، دعاهم الله تعالى هنا إلى تَدَبُّرِ الْقُرْآنِ والنظر فيه بعين الْمُتَأَمِّلِ؛ ليستدلوا بالتدبر على صدق رسولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.

التَّدَبُّرُ عِبَارَةٌ عَنِ النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَأَذْبَارِهَا.

وَتَدَبُّرُ الْقُرْآنِ تَأَمُّلٌ دَلَالَةٌ تَفَاصِيلِ آيَاتِهِ عَلَى مَقَاصِدِهِ الَّتِي أَرَشَدَ إِلَيْهَا، وَتَأَمُّلٌ فَصَاحَتِهِ الَّتِي هِيَ فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ، وَبِلاغته التي هي في أرفع المقامات، والاستدلال بها على أنه كلام الله تعالى، وتأمل تشريعاته التي هي أسمى مراتب التشريع على أنه تنزيل من حكيم حميد.

والسؤال هنا للإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَلِلتَّعْجِيبِ مِنْ شَأْنِهِمْ فِي إِصْرَارِهِمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ؛ مَعَ ظُهُورِ دَلَالَتِ صِدْقِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

أَي: لَوْ كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِصْطِرَابًا كَثِيرًا فِي سَبْكِهِ وَنَظْمِهِ، كَمَا يَعْضُرُ لِأَرْبَابِ الْبِلاغَةِ، وَأَسَاطِينِ الْفِصَاحَةِ مِنْ حَسَنِ السَّبْكِ حِينًا وَضَعْفِهِ وَرَكَائِطِهِ أَحْيَانًا، وَلَوْجَدُوا فِيهِ إِصْطِرَابًا كَثِيرًا فِي ثَنَائِهِ، فَمَا أَثْبَتَ فِي مَوْضِعٍ يَنْفَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَا يَمْدَحُ هُنَا يَذُمُّ هُنَاكَ، وَلَوْجَدُوا فِيهِ إِصْطِرَابًا كَثِيرًا فَمَا يَنْسَبُ زَمَنًا لَا يَنْسَبُ أَزْمَانًا، لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا عَنِ الْحَقَائِقِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْمَسَلَّمَاتِ الْعَقْلِيَّةِ.

ولكن شيئاً من ذلك لا يوجد في القرآن، بل هو كما قال الله تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. [هُود: ١]، أَي: أُحْكِمَتْ أَلْفَاطُهُ وَفُصِّلَتْ مَعَانِيهِ، فَلَا يُجَارَى فِي فَصَاحَتِهِ، وَلَا يُدَانَى فِي بِلَاغَتِهِ.



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

ولا يتطرق إليه شكٌ ولا ارتيابٌ في أخباره وتشريعاته، فهو حقٌّ لا يخالطه باطلٌ، وصدقٌ لا يشوبه كذبٌ؛ ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾<sup>١</sup>.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: السؤال في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، والغرض منه الإنكار عليهم، والتعجب من شأنهم.

والحذف في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، والتقدير: وَلَوْ تَذَكَّرُوهُ لَعَلِمُوا أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ.

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةُ ٢ /



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة النساء: الآية/ ٨٣

ثم أخبر الله تعالى عن نوع آخر من أعمالهم القبيحة التي يريدون منها الإرجاف ونشر الخوف في قلوب ضعاف المسلمين، والطعن في صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو أنهم إذا سمعوا شيئاً يتعلق بالأمن أو الخوف نشره بين الناس بلا تثبت، ولا رجوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيدب الخوف في نفوس الضعفاء من الناس، بسبب ذلك الإرجاف الذي حدث من نشر الأخبار بلا تثبت، وقد لا يكون لها أساس من الصحة.

وعدي الفعل: (أذاع) بالباء في قوله: ﴿أَدَّعَوْا بِهِ﴾، لتضمنه معنى الإعلان؛ أي: لبثوه في الناس معلنين به، وهنا يتجلى معنى آخر وهو أن بعض الأخبار قد يكون من الأسرار الحربية التي لا يجوز نشرها وإذاعتها، حتى لا يعلم بها جواسيس أعداء الإسلام.

وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم، من نقل الكلام بلا تثبت، وحذر من التحدث بكل ما يقال؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع»<sup>١</sup>.

وعن أبي مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «بئس مطية الرجل زعموا»<sup>٢</sup>.

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾.

أي: ولو أن هؤلاء الذين يذيعون الأخبار بلا تثبت ردوها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أولي الأمر وهم كبار المسلمين وأهل الرأي لعلموا ما ينبغي أن يذاع منها، لما يترتب عليها من المصالح، وما ينبغي أن يكتتم منها لما يترتب على إذاعتها من المفساد.

١ - رواه مسلم - المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، حديث رقم: ٤

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٧٠٧٥، وأبو داود - كتاب الأدب، باب في قول الرجل: زعموا، حديث رقم: ٤٩٧٢،

والبخاري في الأدب المفرد - باب ما يقول الرجل إذا رُئي، حديث رقم: ٧٦٢، بسند صحيح



وَالِاسْتِنْبَاطُ فِي اللُّغَةِ: الْإِسْتِحْرَاجُ، مَاخُودٌ مِّنْ اسْتَنْبَطْتُ الْمَاءَ إِذَا اسْتَحْرَجْتُهُ، لِأَنَّ أَهْلَ الرَّأْيِ يَسْتَحْرِجُونَ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا يَصْلِحُ لِلنَّشْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَمَا لَا يَصْلِحُ مِنْهَا.

قال الجصاص: وَفِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى تَسْوِيعِ اجْتِهَادِ الرَّأْيِ فِي الْأَحْكَامِ وَأَنَّهُ أَصْلٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ فِي أَحْكَامِ الْحَوَادِثِ وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَى مَعَانِي الْأَيِّ الْمُتَشَابِهَةِ وَبِنَائِهَا عَلَى الْحَكْمِ.<sup>١</sup>

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

هَذَا خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ؛ أَي: لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ فِي كَيْدِهِ وَإِغْوَائِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ، كَمَا اتَّبَعْتُهُ تِلْكَ الطَّائِفَةُ الَّتِي تُذِيعُ الْأَخْبَارَ بِلَا تَبْتُّ فَتَضْرِبُ أَحْوَالَ النَّاسِ، وَيَنْفِرُ عَقْدُ نِظَامِهِمْ.

#### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الطباق في (الأمن) و (الخوف) من قوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ﴾.

والتضمين في قوله تعالى: ﴿أَدَاعُوا بِهِ﴾. عُدِّي الفعل: (أذاع) بالباء لتضمنه معنى الإعلان، والتقدير: أذاعوا معلنين به.

وحذف الإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾. والتقدير: لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ.

١ - أحكام القرآن للجصاص (٣/ ١٩)



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٨٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ نَكَلُوا عَنِ الْجِهَادِ، ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾. أَمَرَ رَسُولُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْجِهَادِ فَقَالَ: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، تَعْرِضًا بِهَوْلَاءِ النَّاكِلِينَ، وَإِعْرَاضًا عَنْهُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يُبَاشِرَ الْقِتَالَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ، حَرَجَ مَعَهُ مَنْ حَرَجَ، وَنَكَلَ عَنْهُ مَنْ نَكَلَ، وَهُوَ تَعْرِضٌ بِالْمُتَّبِعِينَ عَنِ الْقِتَالِ، وَتَحْرِيزٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ لَهُمْ، لِيَسْتَشْعِرُوا خَطَرَ تَخْلُفِهِمْ عَنِ نَصْرَةِ الدِّينِ.

﴿وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

التَّحْرِيزُ: التَّحْضِيضُ؛ أَي: حُضِّمَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَرَغَّبَهُمْ فِيهِ، قَالَ الرَّجَّاجُ: وَتَأْوِيلُ التَّحْرِيزِ فِي اللَّعَةِ: أَنْ تَحْتَّ الْإِنْسَانُ حَتَّى يَعْلَمَ مَعَهُ أَنَّهُ حَارِضٌ إِنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ؛ وَالْحَارِضُ: الَّذِي قَدِ قَارَبَ الْهَلَاقَ، وَذَكَرَهُمْ بِوَصْفِ الْإِيمَانِ لِيَكُونَ أَدْعَى لِإِثَارَةِ حِمَاةِهِمْ، لِلْجِهَادِ وَنَصْرَةِ الدِّينِ.

وَمِنْ تَحْرِيزِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْجِهَادِ مَا ثَبَتَ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ رَجُلٍ مُسْلِمٍ فُوقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ نُكْبَةً، فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَعْزَرَ مَا كَانَتْ لَوْ أَنَّهَا الرِّعْفَرَانُ وَرِيحُهَا كَالْمِسْكِ»<sup>١</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٢٠١٤، وأبو داود - كتاب الجهاد، باب فيمن سأل الله تعالى الشهادة، حديث رقم: ٢٥٤١، والترمذي - أبواب فضائل الجهاد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء فيمن يكلم في سبيل الله، حديث رقم: ١٦٥٧، والنسائي - كتاب الجهاد، ثواب من قاتل في سبيل الله فوق ناقه، حديث رقم: ٣١٤١، وابن ماجه - كتاب الجهاد، باب القتال في سبيل الله سبحانه وتعالى، حديث رقم: ٢٧٩٢، بسند صحيح



وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يعني يوم بدرٍ):  
«قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ»<sup>١</sup>.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: لعَلَّ الله أن يكفَّ بتخريفك الذين كفروا عن قتالكم والطمع فيكم إذا رأوا منكم شدةً  
ووجدوا فيكم غلظةً، فيكون ذلك ردعاً لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ  
بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾<sup>٢</sup>.

قَالَ عِكْرِمَةُ: عَسَى مِنَ اللَّهِ وَاجِبَةٌ، وَمِنَ الْبَشَرِ مُتَوَقَّعَةٌ مَرْجُوَةٌ. الْكُفُّ الْمَنْعُ، وَالْبَأْسُ هُنَا الْقُوَّةُ.  
﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾.

أي: والله أشدُّ قوةً وأعظمُ قدرةً، وأشدُّ عُقُوبَةً، وَعَدَابُهُ وَتَنْكِيلُهُ أَشَدُّ مِنْ عَدَابِ غَيْرِهِ وَمِنْ  
تَنْكِيلِهِ، وَالنَّكَالُ: الْعُقُوبَةُ الَّتِي تَرُدُّ الْغَيْرَ، وَنَكَّلَ بِهِ، إِذَا جَعَلَهُ عِزَّةً لِعَبْدِهِ.

#### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿في سبيل الله﴾.

ووضع الظاهر موضع المضمرة في قوله تعالى: ﴿والله أشدُّ بأسًا﴾، لما لفظ الجلالة من الهيبة  
في النفوس.

والتكرار في قوله تعالى: ﴿أشدُّ بأسًا وأشدُّ تنكيلاً﴾.

١ - رواه مسلم - كتاب الإمامة، باب ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم: ١٩٠١

٢ - سورة الحج: الآية/ ٤٠



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٨٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْجِهَادَ وَرَعَّبَ فِيهِ لِمَا مِنَ الْخَيْرِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَلِمَا فِيهِ مِنْ دَفْعِ الشَّرِّ عَنْهُمْ، وَسَبِيلِ تَحْقِيقِهِ يَكُونُ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، لِذَلِكَ كَانَ ذُرْوَةَ سَنَامِ الْإِسْلَامِ، ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرًا آخَرَ فِيهِ خَيْرٌ وَنَفْعٌ لِلْمُسْلِمِينَ كَذَلِكَ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بِالْجَاهِ، فَهُوَ دُونَ الْجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ، لِيَجْمَعَ بَيْنَ أَعْلَى خِصَالِ الْإِيمَانِ وَأَدْنَاهَا، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ تَحْصِيلَ الْأَعْلَى كَانَ لَهُ فِي الْأَدْنَى مَنُوحَةٌ؛ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ»<sup>١</sup>.

الشَّفَاعَةُ لَعَةً مِنَ الشَّفَعِ وَهُوَ: ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى غَيْرِهِ. وَفِي الشَّرْحِ الْوَسَاطَةُ فِي إِيْصَالِ خَيْرٍ أَوْ دَفْعِ شَرٍّ.

يُرْعَبُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ، وَفِي إِيْصَالِهِ إِلَى الْغَيْرِ وَلَوْ بِاسْتِعْمَالِ الْجَاهِ، بِالشَّفَاعَةِ لِمَنْ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا.

قَالَ مُجَاهِدٌ: شَفَاعَةُ بَعْضِ النَّاسِ لِبَعْضٍ.

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَّهُ كَانَ إِذَا أَتَاهُ السَّائِلُ أَوْ صَاحِبُ الْحَاجَةِ قَالَ: «اشْفَعُوا فَلْتُوَجَّرُوا، وَلِيَقْضِ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ»<sup>٢</sup>.

قَالَ الْحَسَنُ: الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ هِيَ فِي الْبِرِّ وَالطَّاعَةِ، وَالسَّيِّئَةُ فِي الْمَعَاصِي<sup>٣</sup>.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٩، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ شُعْبِ الْإِيمَانِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٣٥، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢ - رواه البخاري - كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِتًا﴾. [النساء: ٨٥]، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٦٠٢٧، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ اسْتِخْبَابِ الشَّفَاعَةِ فِيمَا لَيْسَ بِحَرَامٍ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٦٢٧

٣ - البحر المحيط في التفسير (٣/ ٧٣٢)



وَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ: الشَّفَاعَةُ الْحَسَنَةُ هِيَ الَّتِي رُوِيَ فِيهَا حَقُّ مُسْلِمٍ، وَدُفِعَ عَنْهُ بِهَا شَرٌّ، أَوْ جُلِبَ إِلَيْهِ خَيْرٌ وَابْتُغِيَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، وَمَنْ يُؤَخِّدُ عَلَيْهَا رِشْوَةً، وَكَانَتْ فِي أَمْرٍ جَائِزٍ لَا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ، وَلَا حَقٍّ مِنَ الْحُقُوقِ، وَالسَّيِّئَةُ مَا كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ.<sup>١</sup>

﴿يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾.

أي: يَكُنْ لَهُ حَظٌّ مِنْ شَفَاعَتِهِ الْحَسَنَةِ، وَالنَّصِيبُ: الْحُظُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ قَالَ الْحَسَنُ: مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً كُنِبَ لَهُ أَجْرُهَا مَا جَرَتْ مَنَفَعَتُهَا.

﴿وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.

أي: يَكُنْ لَهُ مِثْلٌ مِنْ شَفَاعَتِهِ السَّيِّئَةِ، يُجَازِيهِ اللَّهُ عَلَى عَمَلِهِ بِمَا يُنَاسِبُهُ مِنَ السُّوءِ.

وَعَايَرَ بَيْنَ اللَّفْظَيْنِ فَذَكَرَ النَّصِيبَ فِي الشَّفَاعَةِ الْحَسَنَةِ؛ لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَذَكَرَ الْكِفْلَ فِي الشَّفَاعَةِ السَّيِّئَةِ، لِأَنَّهُ أَكْثَرُ مَا يُسْتَعْمَلُ فِي الشَّرِّ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا﴾.

أي: وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفًا وَقَائِمًا عَلَيْهِ بِتَدْبِيرِهِ، وَالْمُقِيمُ: الْحَافِظُ، وَالرَّقِيبُ، وَالْقَدِيرُ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: جناس المماثل في قوله تعالى: ﴿يَشْفَعُ شَفَاعَةً﴾.

والتكرار في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً﴾.

والطباق في: (حَسَنَةً)، و (سَيِّئَةً). وبين: (نَصِيبٍ)، و (كِفْلٍ)؛ لما تقدم من استعمال الأول في الخير، والثاني في الشر غالبًا.

١ - تفسير الرخشري (١/ ٥٤٣)



والمقابلة بين قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةُ / ٨٦

هَذَا عَطْفٌ عَلَى الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَالتَّحِيَّةُ مِنْ جَمَلَةِ الطَّاعَاتِ الَّتِي قَدْ يَزْهَدُ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ، وَيُرْغَبُوا عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنْ تَحِيَّاتِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ مِمَّا أَحْدَثَهُ النَّاسُ مِنْ أَلْفَاظٍ يَتَبَادَلُونَهَا عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَرَعَّبَ اللَّهُ فِي تَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَرَ بِهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ، وَلِمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَبِ، وَلِمَا تَحُوبُهُ مِنَ الْمَعَانِي الْعَظِيمَةِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَيْهَا كُلُّ مُسْلِمٍ.

وَأَصْلُ التَّحِيَّةِ الدُّعَاءُ بِالْحَيَاةِ، وَهِيَ مَصْدَرُ حَيَّاهُ، إِذَا قَالَ لَهُ حَيَّاكَ اللَّهُ، ثُمَّ صَارَتْ اسْمًا لِكُلِّ مَا يُقُولُهُ الْمَرْءُ لِمَنْ يُلَاقِيهِ مِنْ دُعَاءٍ أَوْ ثَنَاءٍ.

وَكَانَتْ تَحِيَّةَ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ: أَنْعِمَ صَبَاحًا، وَأَنْعِمَ مَسَاءً، فَأَبْدَلَنَا اللَّهُ بِهَا السَّلَامَ، وَلَمَّا دَخَلَ عُمَيْرُ بْنُ وَهَبِ الْجُمَحِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: أَنْعَمُوا صَبَاحًا، وَكَانَتْ تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِتَحِيَّةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمَيْرُ، بِالسَّلَامِ: تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وَمَا يُؤَسَفُ لَهُ أَنْ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ آثَرُوا تِلْكَ التَّحِيَّةَ الَّتِي أَمَاتَهَا الْإِسْلَامُ، عَلَى السَّلَامِ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ، فَنَسَمِعُ مَا يَجْرِي عَلَى أَلْسِنَةِ النَّاسِ مِنَ التَّحِيَّاتِ الشَّائِعَةِ: صَبَاحُ الْخَيْرِ، وَمَسَاءُ الْخَيْرِ، وَنَهَارُكَ سَعِيدٌ، وَلَيْلَتُكَ سَعِيدَةٌ، وَأَسْعَدَ اللَّهُ صَبَاحَكُمْ، وَأَسْعَدَ اللَّهُ مَسَاءَكُمْ.

وَقَدْ عَلِمْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السَّلَامَ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ: أَذْهَبَ فَسَلِّمْ عَلَى أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ، تَحِيَّتِكَ وَتَحِيَّةَ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَزَادُوا: وَرَحْمَةُ اللَّهِ»<sup>١</sup>.

١ - رواه البخاري - كتاب أحاديث الأنبياء، باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته، حديث رقم: ٣٣٢٦، ومسلم -

كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير، حديث رقم: ٢٨٤١



﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وكما علمنا الله تعالى الأدب في إلقاء السلام، كما في قوله تعالى: ﴿حَيِّتْهُمْ يَوْمَ يُلقَوْنَهُ سَلَامًا﴾. [الأحزاب: ٤٤]، وكما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامًا عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾. [الرعد: ٢٣، ٢٤]، علمنا الأدب كذلك في رده فقال: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾، أي: إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمُ الْمُسْلِمُ، فَرُدُّوْا عَلَيْهِ أَفْضَلَ مِمَّا سَلَّمَ، أَوْ رُدُّوْا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا سَلَّمَ بِهِ فَالزِّيَادَةُ مَنْدُوبَةٌ، وَالْمُمَاتَلَةُ مَفْرُوضَةٌ.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم ما في السلام من الأجر ترغيباً في إفشائه بين الناس؛ فعن عمران بن حصين، قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فردّ عليه السلام، ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «عشر» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردّ عليه، فجلس، فقال: «عشرون» ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردّ عليه، فجلس، فقال: «ثلاثون»<sup>١</sup>.

وهذا الحكم أعني: ابتداء السلام ورده بأحسن منه خاص بالمسلمين، لما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدكم في طريق، فاضطروه إلى أضيقه»<sup>٢</sup>.

وعن عبد الرحمن قال: مرّ ابن عمر بنصرانيّ فسلم عليه، فردّ عليه، فأخبر أنّه نصرانيّ، فلمّا علم رجّع إليه فقال: ردّ عليّ سلامي<sup>٣</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٩٩٤٨، وأبو داود - أبواب النّوم، باب كيف السّلام؟ حديث رقم: ٥١٩٥، وابن حبان - كتاب البرّ والإحسان، باب إفشاء السّلام وإطعام الطّعام، حديث رقم: ٤٩٣، والطبراني في الأوسط - حديث رقم: ٥٩٤٨، بسند صحيح

٢ - رواه مسلم - كتاب السّلام، باب التّهيّ عن ابتداء أهل الكتاب بالسّلام وكيف يُردّ عليهم، حديث رقم: ٢١٦٧

٣ - رواه البخاري في الأدب المفرد - باب إذا سلّم على النصرانيّ ولمّ يعرفه، حديث رقم: ١١١٥، بسند حسن



فَإِذَا سَلِمَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ جَازَ الرَّدُّ عَلَيْهِ بَ (وَعَلَيْكُمْ)، مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ الْيَهُودَ، دَخَلُوا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكَ، فَلَعَنَتْهُمْ، فَقَالَ: «مَا لَكَ» قُلْتُ: أَوْلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ: «فَلَمْ تَسْمَعِي مَا قُلْتُ وَعَلَيْكُمْ»<sup>١</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَنْ يُسَلِّمَ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ، فَارْدُدْ عَلَيْهِ وَإِنْ كَانَ مُجُوسِيًّا؛ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ﴿فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾، يَعْنِي: لِلْمُسْلِمِينَ ﴿أَوْ رُدُّوهَا﴾ يَعْنِي: لِأَهْلِ الدِّمَّةِ.

وفيه نظرٌ لأنه مخالف للوارد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾.

الْحَسِيبُ هُنَا بِمَعْنَى الْمُحَاسِبِ، فَهُوَ فَعِيلٌ مِنَ الْحِسَابِ الَّذِي هُوَ فِي مَعْنَى الْإِحْصَاءِ، فَيَكُونُ وَعَدًّا بِالْجَزَاءِ عَلَى قَدْرِ فَضْلِ رَدِّ السَّلَامِ.

١ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، حديث رقم: ٢٩٣٥، ومسلم -

كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يُردُّ عليهم، حديث رقم: ٢١٦٥



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٨٧

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾، ذَكَرَ هُنَا الْبَعْثَ وَالنُّشُورَ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ مَوْطِنُ الْحِسَابِ، وَذَكَرَ تَوْحِيدَهُ تَعَالَى لِأَنَّهُ لَا مُحَاسِبَ لِلْعِبَادِ سِوَاهُ.

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ نَفْسِهِ بِتَوْحِيدِهِ وَتَفَرُّدِهِ بِالْإِلَهِيَّةِ وَأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ، ثُمَّ أَقْسَمَ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ سَيَجْمَعُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَجَازِي الْمَحْسَنَ بِإِحْسَانِهِ وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ، وَاللَّامُ فِي قَوْلِهِ: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾، اللَّامُ لَامُ الْقَسَمِ؛ فَإِنَّ كُلَّ لَامٍ بَعْدَهَا تُؤَنُّ مُشَدَّدَةٌ فَهِيَ لَامُ الْقَسَمِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّكَ وَالشَّيَاطِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾.

وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ قِيَامَةً لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ، وَقِيلَ: لِأَنَّ النَّاسَ يَقُومُونَ لِلْحِسَابِ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>٢</sup>.

وَالْأَصْلُ أَنَّ (جَمَعَ) يُعَدِّي بِ(فِي) وَعَدِّيُّ هُنَا بِ(إِلَى) لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى الْحَشْرِ أَي: لِيَحْشُرَنَّكُمْ. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أَي: هَذَا أَمْرٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ جِنْسُ الرَّيْبِ وَالشَّلَكِ، لَمَّا أَقَامَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ شَوَاهِدِ الْعَقْلِ وَالْحَسَنِ، أُمَّ أَوْلَئِكَ الْمُرْتَابُونَ فَلَا عِتْبَارَ لَهُمْ.

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

السُّؤَالُ هُنَا لِلتَّفَرُّدِ؛ أَي: وَهَلْ هُنَاكَ أَحَدٌ أَصْدَقُ مِنْهُ فِي حَبْرِهِ، وَفِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ.

١ - سُورَةُ مَرْيَمَ: الْآيَةُ / ٦٨

٢ - سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: الْآيَةُ / ٦



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةُ / ٨٨

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَرَجَ إِلَى أَحَدٍ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالشَّوْطِ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأَحَدٍ، انْحَزَلَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنِ سُلُوقٍ بِنْتُ النَّاسِ، وَقَالَ: أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي، مَا نَدْرِي عِلْمًا نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ. فَرَجَعَ بِمَنْ اتَّبَعَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ وَالرَّيْبِ. فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تَقُولُ: نُفَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا نُفَاتِلُهُمْ، فَانزَلَتْ الْآيَةُ.

رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمَّا حَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَحَدٍ، رَجَعَ نَاسٌ مِمَّنْ حَرَجَ مَعَهُ، وَكَانَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تَقُولُ: نُفَاتِلُهُمْ، وَفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا نُفَاتِلُهُمْ، فَانزَلَتْ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ﴾. وَقَالَ: «إِنَّهَا طَيِّبَةٌ، تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارَ حَبَثَ الْفِضَّةِ»<sup>١</sup>.

وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا بِمَكَّةَ، قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، كَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ يَطْلُبُونَ حَاجَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّ لَقِينَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ بَأْسٌ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، قَالَتْ فِتْنَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: ارْجِعُوا إِلَى الْجَبَنَاءِ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ عَلَيْكُمْ عَدُوَّكُمْ. وَقَالَتْ فِتْنَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَوْ كَمَا قَالُوا: أَتَقْتُلُونَ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟ أَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا وَلَمْ يَتْرُكُوا دِيَارَهُمْ تُسْتَحَلُّ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ. فَكَانُوا كَذَلِكَ فِتْنَيْنِ، وَالرَّسُولُ عِنْدَهُمْ لَا يَنْهَى وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَيْنِ﴾.

١ - رواه البخاري - كتاب المغازي، باب غزوة أحد، حديث رقم: ٤٠٥٠، ومسلم - كتاب الحج، باب المدينة تنفي

شراؤها، حديث رقم: ١٣٨٤



وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئْتَيْنِ﴾. خطاب للمؤمنين، والمراد بالسؤال هنا اللوم والتوبيخ، أي: فَمَا لَكُمْ تَحْتَلِفُونَ فِي هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ظَهَرَ نِفَاقُهُمْ، بَيْنَ مُكَفِّرِهِمْ وَمُبَرِّرِ لَأَفْعَالِهِمْ؟ وَالْفِئْتَةُ: الطَّائِفَةُ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْفِيءِ وَهُوَ الرُّجُوعُ؛ لِأَنََّّهُمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي شُؤْنِهِمْ. ﴿وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: رَدَّهُمْ فِي كُفْرِهِمْ. وَالرَّكَسُ: قَلْبُ الشَّيْءِ عَلَى رَأْسِهِ، وَرُدُّ أَوَّلِهِ عَلَى آخِرِهِ. وَأَصْلُهُ الرَّجِيعُ؛ لِأَنَّهُ رُدُّ بَعْدَ أَنْ كَانَ طَعَامًا، وَيُقَالُ لِلرَّوْثِ الرَّكَسُ؛ لِأَنَّهُ رُدُّ إِلَى حَالِهِ حَسِيسَةً، وَهِيَ حَالَةُ النَّجَاسَةِ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ، فَقَالَ: «الْتِمَسْ لِي ثَلَاثَةَ أَحْجَارٍ»، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ بِحَجْرَيْنِ وَرَوْثَةٍ، فَأَخَذَ الْحَجْرَيْنِ، وَأَلْقَى الرَّوْثَةَ، وَقَالَ: «إِنَّهَا رَكَسٌ»<sup>١</sup>.

وَأَرْكَسُ أَبْلُغُ مِنْ رَكَسٍ؛ لِأَنَّ زِيَادَةَ الْمَبْنِيِّ تَدُلُّ عَلَى زِيَادَةِ الْمَعْنَى.

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾.

أَيُّ: بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمْ لِرَسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾.

أَيُّ: أَتُرِيدُونَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَنْ تَهْدُوا إِلَى الْإِسْلَامِ، مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ عَنْهُ فَلَمْ يُؤَفِّقْهُ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَشْرَحْ صَدْرَهُ بِهِ؟

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أَيُّ: خَذَلَهُ اللَّهُ عَنْ دِينِهِ فَأَضَلَّهُ عَنْهُ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ طَرِيقًا تَهْدِيهِ لِلْوُصُولِ إِلَيْهِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٣٦٨٥، والترمذي - أبواب الطَّهَارَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ فِي الْإِسْتِنْجَاءِ بِالْحَجْرَيْنِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٧، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ



## الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليبِ البلاغيةِ في الآية: السؤال في قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئْتَيْنِ﴾، وفي قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ﴾، والغرض منه الإنكار.

والطباق في: (تَهْتَدُوا) و (أَضَلَّ اللَّهُ) من قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْتَدُوا مِنْ أَضَلِّ اللَّهِ﴾.

والجناس في: (أَضَلَّ) و (يُضِلُّ).

والاستعارة في قوله: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾، استعيرَ لفظُ السَّبِيلِ وهو الطَّرِيقُ للنجاة من العذاب.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٨٩) إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ٨٩، ٩٠.

يخبر الله تعالى العليم بذات الصدور، المطلع على مكونات النفوس، عما يعتمل في صدور المنافقين لشدّة عداوتهم وبُغضهم لأهل الإيمان من تمى الكفر لهم، ﴿فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾، أنتم وهم في الكفر، حتى لا يكون للمؤمنين عليهم فضل، كما قيل: (ودت الزانية لو زنت النساء)، شأنهم في ذلك شأن كل الكفار؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾<sup>١</sup>.  
﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

أي: فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ، حَتَّى يُهَاجِرُوا هَجْرَةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، لَا لِعَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ، وَالْمُرَادُ بِالْهَجْرَةِ هُنَا الْهَجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ لِنُصْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ وَاجِبَةً أَوَّلَ الْإِسْلَامِ حَتَّى فَتَحَتْ مَكَّةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا هَجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتَنْفَرْتُمْ فَانْفِرُوا»<sup>٢</sup>.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

أي: فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنِ الْإِيمَانِ وَالْهَجْرَةِ، فَحُذُوهُمْ أُسَارَى، وَيُقَالُ لِلْأَسِيرِ: أَخِيذٌ، وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُمَا كَانُوا فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ.

١ - سُورَةُ الْمُؤْتَمِنِينَ: الآيَةُ / ٢

٢ - رواه البخاري - كتاب جزاء الصّيد، باب: لا يجلّ القتال بمكّة، حديث رقم: ١٨٣٤، ومسلم - كتاب الحج، باب تحريم مكّة وصيدها وخلاها وشجرها ولقطتها، إلا لمنشد على الدوام، حديث رقم: ١٣٥٣



﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: وإن أظهروا لكم الولاية وبدلوا لكم النصر فلا تقبلوا منهم.

ثُمَّ اسْتَشَى اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَؤُلَاءِ فَقَالَ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾،  
أَي: إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ مِمَّنْ عَاهَدْتُمْ، فدخلوا في جوارهم وحالفوهم فَلَا تَتَّعَرَّضُوا لَهُمْ  
بِالْقَتْلِ، لِمَلَّا تَنْقُضُوا عُهُودَكُمْ، ومعنى يَصِلُونَ: يَلْتَحِثُونَ، وَهَذَا الْإِسْتِثْنَاءُ يَرْجِعُ إِلَى الْقَتْلِ لَا  
إِلَى الْمُوَالَاةِ، لِأَنَّ مُوَالَاةَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ لَا تَجُوزُ بِحَالٍ.

﴿أَوْ جَاءَكُمْ حَصْرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾.

هذا صنف آخر ممن استثناهم الله تعالى من القتل وهم الذين جاءوا قد ضاقت صدورهم عن  
قتال المؤمنين وَعَنْ قِتَالِ قَوْمِهِمْ، فهم على الحياد، لَا هُمْ مَعَكُمْ وَلَا عَلَيْكُمْ، ويقال لكلِّ مَنْ  
ضاقت نفسه عن شيءٍ حُصِرَ، فنهى الله تعالى عن قتلهم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾.

أي: وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لِأَغْرَاهُمْ بِكُمْ، وَقَوَى قلوبهم عليكم، فَقَاتَلُوكُمْ مَعَ أَعْدَائِكُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ،  
وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَفَّهُمْ عَنْكُمْ بِفَضْلِهِ وَمَنَّهُ.

﴿فَإِنْ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوْمَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

أي: فَإِنْ اعْتَرَلَكُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَمَرْتُمْ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ، فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ مَعَ أَعْدَائِكُمْ، وَمَنْ يَتَّعَرَّضُوا  
لَكُمْ وَالْقَوْمَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ، أَي: الْمُسَالَمَةَ، فَمَا أَذِنَ لَكُمْ فِي أَخْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ.

### الْأَسَالِبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: الْجِنَاسُ الْمُمَثِّلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا﴾.

وَالِإِعْتِرَاضُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

وَالْجِنَاسُ الْمُمَثِّلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ﴾.



وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثَاقٌ﴾.

وَحَذْفُ الْإِيجَازِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾. وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ: أَوْ جَاءُوكُمْ قَدْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ اعْتَرَفْتُمْ﴾، وَ﴿وَأَلْفَوْا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٩١

هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مِنْ أَسَدٍ وَعَظْفَانَ، وَهُمْ غَيْرُ الْمَدْكُورِينَ أَنْفَاءً، بَلْ هُمْ قَوْمٌ مُحَادِعُونَ، كَانُوا إِذَا أَتَوْا الْمَدِينَةَ أَسْلَمُوا وَعَاهَدُوا، وَعَرَضْتُمْ أَنْ يَأْمَنُوا الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ كَفَرُوا وَنَكَثُوا عُهُودَهُمْ، وَعَبَدُوا مَا يَعْبُدُ قَوْمُهُمْ مِنَ الْأوثَانِ لِيَأْمَنُوهُمْ.

﴿كُلًّا مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾.

أَي: كُلَّمَا دَعَاهُمْ قَوْمُهُمْ إِلَى الشِّرْكِ بِاللَّهِ ارْتَدُّوا فَصَارُوا مُشْرِكِينَ مِثْلَهُمْ، قَالَ السُّدِّيُّ: الْفِتْنَةُ هَاهُنَا: الشِّرْكَ.

﴿فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾.

أَي: فَإِنْ لَمْ يَعْتَرِلُوا قِتَالَكُمْ، وَلَمْ يَطْلُبُوا الصُّلْحَ مِنْكُمْ، وَلَمْ يَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُدُّوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ أَنْ يَنْ لَقَيْتُمُوهُمْ، وَتَمَكَّنْتُمْ مِنْهُمْ.

﴿وَأُولَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

أَي: جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَى أَخْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ حُجَّةً بَيِّنَةً وَاضِحَةً، لظهور عداوتهم بسببِ مخادعتهم لكم، وغدرهم بعهدكم.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ /

٩٢

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَدَانَ فِي أَحَدِ قَوْمٍ مِنَ الْكُفَّارِ وَقَتْلِهِمْ لِمَخَادَعَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، حَدَّرَ هُنَا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ الْإِذْنَ ذَرِيعَةً لِقَتْلِ مُؤْمِنٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ شَحْنَاءٌ، بَزَعَمَ أَنَّهُ مِنْ هَذَا الصَّنْفِ الَّذِي أَبَاحَ اللَّهُ دَمَهُ.

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

اختلف العلماء في سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ فِي عِيَاشِ بْنِ أَبِي رِيْعَةَ الْمَخْزُومِيِّ، فَكَانَ أَحَاً لِأَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ لِأُمِّهِ. وَإِنَّهُ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ فِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ قَبْلَ قُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَلَبَهُ أَبُو جَهْلٍ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ وَمَعَهُمَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ، فَأَتَوْهُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ عِيَاشٌ أَحَبَّ إِخْوَتِهِ إِلَى أُمِّهِ، فَكَلَّمُوهُ وَقَالُوا: إِنَّ أُمَّكَ قَدْ حَلَفَتْ أَنْ لَا يُظَلَّلَهَا بَيْتٌ حَتَّى تَرَكَ وَهِيَ مُضْطَجِعَةٌ فِي الشَّمْسِ، فَأَتَاهَا لِتَنْظُرَ إِلَيْكَ ثُمَّ ارْجِعْ. وَأَعْطُوهُ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَا يَحْجُزُونَهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَأَعْطَاهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ بَعِيرًا لَهُ نَجِيًّا، وَقَالَ: إِنَّ خِفْتَ مِنْهُمْ شَيْئًا فَاغْدُ عَلَى النَّجِيبِ. فَلَمَّا أَخْرَجُوهُ مِنَ الْمَدِينَةِ أَخَذُوهُ فَأَوْتَقُوهُ، وَجَلَدَهُ الْعَامِرِيُّ، فَحَلَفَ لِيَقْتُلَنَّ الْعَامِرِيَّ. فَلَمْ يَزَلْ مُحْبُوسًا بِمَكَّةَ حَتَّى حَرَجَ يَوْمَ الْفَتْحِ، فَاسْتَقْبَلَهُ الْعَامِرِيُّ وَقَدْ أَسْلَمَ وَلَا يَعْلَمُ عِيَاشٌ بِإِسْلَامِهِ، فَضْرَبَهُ فَقتَلَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾<sup>١</sup>.

١ - رواه ابن جرير (٣٠٨ / ٧)



وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ قَتَلَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي وَالِدِ حذيفة اليمان حين قتل خطأ يوم أحد، وَقِيلَ غير ذلك، والآية وإن نزلت على سبب خاص فإن العبرة عموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يحلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا أَنْ يَقَعَ مِنْهُ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ الْخَطَا.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً﴾.

إذا جاء قبل (كَانَ) حرف نفي كانا بمعنى لَا يَنْبَغِي، وتقدير الكلام: لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً؛ كقوله تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾. [مَرْيَمَ: ٣٥]، أي: لَا يَنْبَغِي لَهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُسْتَعْنٍ عَنْهُ.

وَقِيلَ: هَذَا الضَّرْبُ مِنَ الْكَلَامِ عِبَارَةٌ عَنْ نَفْيِ بَعْضِ النَّهْيِ وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الْفِعْلِ؛ كقوله تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾. [الْأَحْزَابُ: ٥٣] ؛ أَي: مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا مِنْ خُلُقِهِ وَعَمَلِهِ أَنْ يَقْتُلَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ يَمْنَعُهُ مِنْ هَذَا الْقَتْلِ أَنْ يَجْتَرِحَهُ عَمْدًا، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَقَعُ مِنْهُ ذَلِكَ خَطَاً.

وَقِيلَ: مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ...﴾. بَيَانُ أَنَّ حُرْمَةَ الْقَتْلِ كَانَتْ ثَابِتَةً مِنْ أَوَّلِ زَمَانِ التَّكْلِيفِ، وَمَا أَحَلَّ ذَلِكَ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ.

ومما يدل على عصمة المسلم حرمة دمه ما ثبت عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، إِلَّا بِأِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ".<sup>١</sup>

وإذَا حدث للمسلم شيءٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الثَّلَاثِ، فالذي يقيم عليه الحد هو حاكم المسلمين أو من ينوب عنه كالقاضي، وليس ذلك لأحدٍ الناس.

١ - رواه البخاري - كتاب الدِّيَاتِ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، حديث رقم: ٦٨٧٨، ومسلم - كتابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالِدِّيَاتِ، بَابُ مَا يُبَاحُ بِهِ دَمُ الْمُسْلِمِ، حديث رقم: ١٦٧٦.



وَالِاسْتِثْنَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا حَطًّا﴾. اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ بِمَعْنَى لَكِنْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا \* إِلَّا قِيْلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾<sup>١</sup>.

﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ﴾.

هَذَا بَيَانٌ لِمَا يَتَرْتَبِ عَلَى قَتْلِ الْخَطِّ، وَهِيَ أَمْرَانِ:

الأول: كَفَّارَةُ قَتْلِ الْخَطِّ وَهِيَ: عِتْقُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ صَغِيرَةٍ كَانَتْ أَوْ كَبِيرَةٍ، خِلَافًا لِابْنِ عَبَّاسٍ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ؛ إِذْ قَالُوا: لَا يُجْزَى إِلَّا مَنْ صَامَ وَصَلَّى وَعَقَلَ الْإِسْلَامَ؛ فَإِنْ لَفِظَ: (رَقَبَةٍ) نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الْإِثْبَاتِ تَفِيدُ الْإِطْلَاقَ.

والثاني: دِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِ الْقَتِيلِ، وَهِيَ مَا يُعْطَى عِوَضًا عَنْ دَمِ الْقَتِيلِ إِلَى وَلِيِّهِ، وَتَجِبُ هَذِهِ الدِّيَةُ عَلَى عَاقِلَةِ الْقَاتِلِ وَهُمْ عَصَبَتُهُ إِلَّا الْأَصْلَ وَالْفَرْعَ، وَتَكُونُ عَلَى ثَلَاثِ سِنِينَ.

وَالْقَتْلُ أَنْوَاعٌ ثَلَاثَةٌ عَمْدٌ وَشِبْهُ عَمْدٍ وَخَطًّا، فَبِالْعَمْدِ الْمَحْضِ وَفِي شِبْهِ الْعَمْدِ الدِّيَةُ مُغَلَّظَةٌ مُثَلَّثَةٌ ثَلَاثُونَ حِقَّةً، وَثَلَاثُونَ جَدَعَةً، وَأَرْبَعُونَ حَلِيفَةً فِي بُطُونِهَا أَوْلَادُهَا.

وَفِي الْخَطِّ الْمَحْضِ الدِّيَةُ مُحَقَّقَةٌ: عِشْرُونَ بَنَاتٍ مَخَاضٍ، وَعِشْرُونَ بَنَاتٍ لَبُونٍ، وَعِشْرُونَ بَنُو لَبُونٍ، وَعِشْرُونَ حِقَّةً، وَعِشْرُونَ جَدَعَةً.

﴿إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾.

يَعْنِي: إِلَّا أَنْ يَتَصَدَّقَ أَوْلِيَاءُ الْقَتِيلِ بِالدِّيَةِ عَلَى الْقَاتِلِ أَوْ عَلَى عَاقِلَتِهِ؛ أَي: اِبْرَأُوهُمْ مِنْهَا، وَأَصْلُ ﴿يَصَّدَّقُوا﴾: يَتَصَدَّقُوا فَأَدْغَمَتِ التَّاءُ فِي الصَّادِ فَصَارَتْ صَادًا مُشَدَّدَةً.

﴿فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

أَي: إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ مُؤْمِنًا، وَأَوْلِيَائُهُ كُفَّارَ أَهْلِ حَرْبٍ، فَلَا دِيَةَ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ يَتَقَوَّوْنَ بِهَا عَلَى قَتْلِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَجِبُ عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُؤْمِنٍ يَقِيمُ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفَّارِ؛ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

١ - سُورَةُ الْوَاغِيَةِ: الْآيَةُ / ٢٥، ٢٦



عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً إِلَى خَنْعَمٍ فَأَعْتَصَمَ نَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمُ الْقَتْلَ قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ لَهُمْ بِنِصْفِ الْعَقْلِ وَقَالَ: «أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَأَى نَارَاهُمَا»<sup>١</sup>.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ الْمُؤْمِنُ يَكُونُ فِي الْعَدُوِّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَسْمَعُونَ بِالسَّرِيَّةِ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَفِرُونَ وَيَثْبُتُ الْمُؤْمِنُ فَيُقْتَلُ، فَفِيهِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ.

﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

أَيُّ: إِذَا كَانَ الْقَتِيلُ خَطَأً مُؤْمِنًا مِنْ قَوْمٍ مُعَاهِدِينَ لَكُمْ فَيَجِبُ عَلَى الْقَاتِلِ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ، وَدِيَّةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَحْمِلُ الْمُطَلَّقُ هُنَا عَلَى الْمُقَيَّدِ فِي الْجُمْلَةِ السَّابِقَةِ.

وَقِيلَ: لَمَّا أَبْهَمَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَتِيلَ هُنَا وَمَنْ يَقْتُلُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، كَمَا قَالَ فِي الْحَالَةِ السَّابِقَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَشْمَلُ الْمُؤْمِنَ وَغَيْرَهُ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي دِيَةِ الْكَافِرِ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فَقِيلَ: دِيَّةٌ كَامِلَةٌ كَدِيَةِ الْمُسْلِمِ، وَقِيلَ: نِصْفُ دِيَةِ الْمُسْلِمِ، وَقِيلَ: ثُلُثُهَا.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾.

أَيُّ: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ رَقَبَةً، وَلَا وَجَدَ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى مَلَكَهَا، فَعَلَيْهِ صِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، لَا يَتَحَلَّلُهَا فِطْرًا، فَإِنْ أَطْرَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، كَمَرَضٍ أَوْ حَيْضٍ أَوْ نَفَاسٍ اسْتَأْنَفَ، وَتَجِبُ الدِّيَةُ لِأَنَّهَا عَلَى الْعَاقِلَةِ وَلَيْسَتْ عَلَى الْقَاتِلِ، خِلَافًا لِلشَّعْبِيِّ وَمَسْرُوقٍ.

﴿تَوْبَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾.

أَيُّ: شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ تَوْبَةً مِنْهُ عَلَى قَاتِلِ الْخَطَا، وَتَخْفِيفًا عَلَيْهِ حَيْثُ أَدَنَ لَهُ فِي الصَّوْمِ عِنْدَ الْعِجْزِ عَنِ الْعِتْقِ.

١ - رواه أبو داود - كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل من اعتصم بالسجود، حديث رقم: ٢٦٤٥، والترمذي - أبواب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كراهية المقاتل بين أظهر المشركين، حديث رقم: ١٦٠٤، والنسائي - كتاب القسامة، القود بعير حديدية، حديث رقم: ٤٧٨٠، بسند صحيح



﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: وكان الله عليماً بمن قتل خطأ، حكيماً في تشريع ما يصلح عباده.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستثناء المنقطع في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ

مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾. وتقدير الكلام: لَكِنْ إِنْ قَتَلَهُ خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ؛ فَأُقِيمَتْ "إِلَّا" فِي هَذَا

المَوْضِعِ مَقَامَ "لَكِنْ". وَتَنْفِصِلُ "لَكِنْ" مِنْ "إِلَّا" بِأَنَّ "إِلَّا" لِإِحْرَاجِ بَعْضٍ مِنْ كُلِّ ١.

وَالنَّفْيُ بِمَعْنَى النَّهْيِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً﴾. عَلَى أَحَدِ

الأقوال كما بيناه في الآية.

وَالتَّخْصِيسُ فِي النِّكْرَةِ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾.

والحذف في قوله تعالى: ﴿تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ﴾. وتقديره: شرع الله تعالى ذلك توبةً منه على قاتل

الخطأ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ٩٣

### مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى حُكْمَ الْقَتْلِ الْخَطَأِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ذَكَرَ هُنَا بَيَانَ حُكْمِ الْقَتْلِ الْعَمْدِ، فَحَذَرَ مِنْهُ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ، وَتَوَعَّدَ مَنْ تَعَاطَاهُ بِمَا لَمْ يَتَوَعَّدَ عَلَى ذَنْبٍ مِنَ الذَّنُوبِ بَعْدَ الشَّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى.

﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا﴾.

اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي صِفَةِ الْمُتَعَمِّدِ فِي الْقَتْلِ، فَقِيلَ: مَنْ قَتَلَ بِمَا مِنْ شَأْنِهِ الْقَتْلُ فَهُوَ مُتَعَمِّدٌ كَمَنْ ضَرَبَ غَيْرَهُ بِرِصَاصٍ أَوْ بِالسَّيْفِ أَوْ حَدِيدَةٍ أَوْ بَعِيرٍ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: الْمُتَعَمِّدُ كُلُّ مَنْ قَتَلَ، سَوَاءً كَانَ بِمَا يَقْتُلُ غَالِبًا الرِّصَاصِ أَوْ لَا كَالْحَجَرِ أَوْ الْعَصَا.

﴿فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾.

هَذَا أَوَّلُ جِزَاءٍ لِلْقَاتِلِ الْمُتَعَمِّدِ، الْخُلُودُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِالْخُلُودِ فَقِيلَ هُوَ عَلَى ظَاهِرِهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِهِ الْمَكْثُ الطَّوِيلُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَرَى أَنَّهُ لَا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤْمِنِ عَمْدًا.

فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، قَالَ: اِخْتَلَفَ أَهْلُ الْكُوفَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ﴾. فَرَحَلْتُ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْهَا، فَقَالَ: «لَقَدْ أَنْزَلْتَ آخِرَ مَا أَنْزَلَ، ثُمَّ مَا نَسَحَهَا شَيْءٌ»<sup>١</sup>.

وَعَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ قَالَ: كُنَّا عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ مَا كُفِّ بِصَرِّهِ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَنَادَاهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، مَا تَرَى فِي رَجُلٍ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا؟ فَقَالَ: جِزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا، وَعَظِبَ

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فِجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ﴾. [النساء: ٩٣]، حديث

رقم: ٤٥٩٠، ومسلم - كتاب التفسير، حديث رقم: ٣٠٢٣



اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ، وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا. قَالَ: أَفْرَأَيْتَ إِنْ تَابَ وَأَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ثَكَلْتَهُ أُمُّهُ، وَأَتَى لَهُ التَّوْبَةُ وَاهْتَدَى، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَمِعْتُ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "ثَكَلْتَهُ أُمُّهُ، رَجُلٌ قَتَلَ رَجُلًا مُتَعَمِّدًا، جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا بِيَمِينِهِ أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْحَبُ أَوْ دَاجُهُ دَمًا، فِي قُبُلِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، يَلْزَمُ قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الْأُخْرَى يَقُولُ: سَلْ هَذَا فِيمَ قَتَلَنِي «وَالَّذِي نَفْسُ عَبْدِ اللَّهِ بِيَدِهِ لَقَدْ أَنْزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةَ فَمَا نَسَحَتْهَا مِنْ آيَةٍ حَتَّى فُيْضَ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَا نَزَلَ بَعْدَهَا مِنْ بُرْهَانٍ»<sup>١</sup>.

وعن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ، إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»<sup>٢</sup>.

ورواه البزار عن عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ<sup>٣</sup>.

ومن خطر القتل أن الله تعالى قرنَ بينه وبين الشِّرْكِ بِاللَّهِ فِي غَيْرِ مَا آيَةٍ فِي كِتَابِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾<sup>٤</sup>. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾. إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾<sup>٥</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢١٤٢، والطبري (٧/ ٣٤٣)، والضياء المقدسي في المختارة - حديث رقم: ٤٠، بسند صحيح

٢ - رواه أبو داود - كتاب الْفَتَنِ وَالْمَلَا حِم، بابٌ فِي تَعْظِيمِ قَتْلِ الْمُؤْمِنِ، حديث رقم: ٤٢٧٠، والحاكم - كتاب الْحُدُودِ، حديث رقم: ٨٠٣٢، وابن حبان - كتاب الْجِنَايَاتِ، ذِكْرُ إِجْبَابِ دُخُولِ النَّارِ لِلْقَاتِلِ أَخَاهُ الْمُسْلِمِ مُتَعَمِّدًا، حديث رقم: ٥٩٨٠، والطبراني في الأوسط - حديث رقم: ٩٢٢٨، بسند صحيح

٣ - رواه البزار - حديث رقم: ٢٧٣٠، بسند صحيح

٤ - سُورَةُ الْفُرْقَانِ: الْآيَةُ / ٦٨

٥ - سُورَةُ الْأَنْعَامِ: الْآيَةُ / ١٥١



ومما يدلُّ على خطر القتلِ وسوء عاقبة القتالِ ما رواه البخاري في صحيحه عن ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِْبَ دَمًا حَرَامًا»<sup>١</sup>.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكَ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْعَافِيَّاتِ»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ الْمُقَدَّادِ بْنِ عَمْرٍو الْكِنْدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الْكُفَّارِ فَاقْتَتَلْنَا، فَضَرَبَ إِحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهَا، ثُمَّ لَأَذَ مِنِّي بِشَجْرَةٍ، فَقَالَ: أَسَلَمْتُ لِلَّهِ، أَأَقْتُلُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بَعْدَ أَنْ قَاهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْتُلُهُ» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ قَطَعَ إِحْدَى يَدَيَّ، ثُمَّ قَالَ ذَلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقْتُلُهُ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَقْتُلَهُ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَتَهُ الَّتِي قَالَ»<sup>٣</sup>.

وَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحَرْقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَّخْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا عَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُحْمِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّدًا، قَالَ: «أَقَتَلْتُهُ»

١ - رواه البخاري - كتاب الدِّيَاتِ، بَابُ، حَدِيثِ رَقْمِ: ٦٨٦٢

٢ - رواه البخاري - كتاب الوصايا، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا، إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، حَدِيثِ رَقْمِ: ٢٧٦٦، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ بَيَانِ الْكِبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، حَدِيثِ رَقْمِ: ٨٩

٣ - رواه البخاري - كتاب المغازي، بَابُ، حَدِيثِ رَقْمِ: ٤١٠٩، وَمُسْلِمٌ - كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ تَحْرِيمِ قَتْلِ الْكَافِرِ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَدِيثِ رَقْمِ: ٩٥



بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَيُّ لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.<sup>١</sup>

ومع هذه النصوص الواردة في الترهيب من الإقدام على هذا الجرم الشنيع، والذنب العظيم، فإن من تاب تاب الله عليه؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.<sup>٢</sup>

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحْوُلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاحْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَفَبَضَّتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».<sup>٣</sup>

قدمنا أن من تاب من القتل تاب الله تعالى عليه وهو الراجح عند العلماء، ومن جملة ما استدلوا به على قبول توبة القاتل: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا

١ - رواه البخاري - كتاب المغازي، باب بعث النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد إلى الخرقات من حنينته،

حديث رقم: ٤٢٦٩، ومسلم - كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، حديث رقم: ٩٦

٢ - سورة الرمز: الآية/ ٥٣

٣ - رواه البخاري - كتاب الأحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٧٠، ومسلم - كتاب التوبة، باب

قبول توبة القاتل وإن كثر قتلته، حديث رقم: ٢٧٦٦



مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ هُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ<sup>١</sup>.

وكان نزولها باتفاق العلماء في الذين قتلوا راعي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ردًا على من قال إن آية سورة الفرقان منسوخة.

والنصوص على عدم خلود القاتل المسلم في النار كثيرة جدًا، ولو لم يتب فهو في مشيئة الله تعالى، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه؛ ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾<sup>٢</sup>.

ومنها ما رواه أحمد والترمذي وغيرهما عن أنس بن مالك، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِطُرَابِ الْأَرْضِ حَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِطُرَابِهَا مَغْفِرَةً»<sup>٣</sup>.

وليس في هذا الذي قدمناه ما يعارض الآية، فإن الوارد في الآية وعيدٌ، وإخلاف الوعيد لا يُدْمُ بَلْ يُمَدِّحُ، وَيَجُوزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى إِخْلَافُ الْوَعِيدِ لَا إِخْلَافُ الْوَعْدِ، فَإِنَّ إِخْلَافَ الْوَعِيدِ عَفْوٌ وَإِحْسَانٌ، وَالْوَعْدُ أَوْجِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ بِوَعْدِهِ، وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ؛ وَهَذَا مَدْحٌ بِهِ كَعَبُ بْنُ زُهَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ:

نُبِّئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي

\*\*\*\*\* وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

١ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ/ ٣٣، ٣٤

٢ - سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ٤٨

٣ - رواه الترمذي - أَبْوَابُ الدَّعَوَاتِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٣٥٤٠، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ



ووقع في هذه المسألة مناظرة بين الإمام أبي عمرو بن العلاء وعمرو بن عبيد المعتزلي، فقال عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو لا يخلف الله وعده وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾.

فقال أبو عمرو: ويحك يا عمرو، من العجمة أتيت، إن العرب لا تعد إخلاف الوعيد ذمًا، بل جودًا وكرمًا، أما سمعت قول الشاعر:

وَلَا يَزْهَبُ ابْنُ الْعَمِّ مَا عَشْتُ صَوْلَتِي

\*\*\*\*\* وَلَا يَخْتَشِي مِنْ صَوْلَةِ الْمُتَهَدِّدِ

وَأَبِي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ

\*\*\*\*\* لِمُخْلِيفِ إِيْعَادِي وَمُنْجِرِ مَوْعِدِي

وقال أبو هريرة وجماعة من السلف: هذا جزاؤه إن جازاه.

وأما النصوص الواردة بمطالبة المقتول القاتل يوم القيامة فقد أجمع العلماء على أن حقوق الأدميين، لا تسقط بالتوبة، بل لا بد من أدائها إليهم، ومع ذلك لا يلزم من وقوع المطالبة بالحقوق ووقوع المجازاة؛ لأن القاتل قد يكون له أعمال صالحة تُصرف إلى المقتول أو بعضها، ثم يفضل له أجر يدخل به الجنة.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ٩٤

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ حَكْمَ قَتْلِ الْخَطَا وَذَكَرَ جَزَاءَ مَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا، ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا حَالَةَ مَنْ يَشْتَبِهَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَهُ، فَأَمَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّثَبُّتِ وَالتَّبَيُّنِ، وَأَنَّ لَا يُقَدِّمَ الْمُسْلِمَ عَلَى قَتْلِ مَنْ يَشْتَبِهَ أَمْرَهُ، وَأَوْجِبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ التَّوَقُّفَ وَالتَّثَبُّتَ مَعَ أَدْنَى قَرِينَةٍ تَدُلُّ عَلَى إِيمَانِهِ.

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾، قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «كَانَ رَجُلٌ فِي غَنِيمَةٍ لَهُ فَاحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنِيمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾»<sup>١</sup>.

ورواه أحمد والترمذي بلفظٍ أتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «مَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ عَلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَعَهُ غَنَمٌ لَهُ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: مَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا لِيَتَعَوَّذَ مِنْكُمْ فَفَقَامُوا فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غَنَمَهُ، فَأَتَوْا بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾»<sup>٢</sup>.

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]،

حديث رقم: ٤٥٩١، ومسلم - كتاب التفسير، حديث رقم: ٣٠٢٥

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٤٦٢، والترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن

سورة النساء، حديث رقم: ٣٠٣٠، بسند صحيح



عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي حَدَرْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «بَعَثْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى إِضْمٍ، فَخَرَجْتُ فِي نَفَرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِيهِمْ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ، وَمُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ بْنِ قَيْسٍ»، فَخَرَجْنَا حَتَّى إِذَا كُنَّا بِبَطْنِ إِضْمٍ مَرَّ بِنَا عَامِرُ الْأَشْجَعِيُّ عَلَى قَعُودٍ، لَهُ مَعَهُ مُتَيِّعٌ وَوَطْبٌ مِنْ لَبَنٍ، فَلَمَّا مَرَّ بِنَا، سَلَّمَ عَلَيْنَا، فَأَمْسَكْنَا عَنْهُ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ، فَقَتَلَهُ بِشَيْءٍ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَأَخَذَ بَعِيرَهُ وَمَتَيِّعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخْبَرْنَاهُ الْحَبْرَ، نَزَلَ فِيْنَا الْقُرْآنُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾<sup>١</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَلَّمُ بْنُ جَثَامَةَ مَبْعَثًا، فَأَلْقَيْهِمْ عَامِرُ بْنُ الْأَضْبَطِ، فَحَيَّاهُمْ بِتَحِيَّةِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَتْ بَيْنَهُمْ إِحْنَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَرَمَاهُ مُحَلَّمُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ. فَجَاءَ الْحَبْرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتَكَلَّمَ فِيهِ عُيَيْنَةُ وَالْأَفْرَعُ، فَقَالَ الْأَفْرَعُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، سُنَّ الْيَوْمَ وَعَيْرَ عَدَا. فَقَالَ عُيَيْنَةُ: لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَذُوقَ نِسَاؤَهُ مِنْ الثُّكُلِ مَا ذَاقَ نِسَائِي. فَجَاءَ مُحَلَّمُ فِي بُرْدَيْنِ، فَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ لَيْسَتْغَفِرَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا غَفَرَ اللَّهُ لَكَ» فَقَامَ وَهُوَ يَتَلَقَّى دُمُوعَهُ بِبُرْدَيْهِ، فَمَا مَضَتْ بِهِ سَابِعَةٌ حَتَّى مَاتَ وَدَفَنُوهُ، فَلَفَظَتْهُ الْأَرْضُ. فَجَاءُوا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: «إِنَّ الْأَرْضَ تَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْ صَاحِبِكُمْ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ أَرَادَ أَنْ يَعِظَكُمُ» ثُمَّ طَرَحُوهُ بَيْنَ صَدَفِي جَبَلٍ، وَأَلْقُوا عَلَيْهِ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَنَزَلَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ الآية<sup>٢</sup>.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُجَاهِدِينَ بِالتَّحَرِّيِ وَالتَّثَبُّتِ عِنْدَ لِقَاءِ مَنْ يَحْتَمِلُ إِسْلَامَهُ لِقَالًا يَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا.

وَالضَّرْبُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: السَّفَرُ وَالسَّيْرُ فِي الْأَرْضِ لِلْعَزْوِ وَالْجِهَادِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٣٨٨١، وابن جرير في التفسير (٧/ ٣٥٥)، بسند حسن

٢ - تفسير الطبري (٧/ ٣٥٣)



وَالْتَّبِئُ هُنَا: التَّثَبُّتُ بَطَلْبِ الْبَيَانِ، وَقَرَأَ حَمْرَةُ، وَالْكَسَائِيُّ، وَخَلْفٌ: فَتَثَبَّتُوا، أَي: تَثَبَّتُوا فِيمَنْ تَظْهَرُ مِنْهُمْ عِلَامَاتُ الْإِسْلَامِ كَالشَّهَادَةِ أَوْ السَّلَامِ الَّذِي هُوَ نَحْيَةُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَالْأَمْرُ بِالتَّثَبُّتِ فِي الْقَتْلِ وَاجِبٌ حَضْرًا وَسَفَرًا بِإِلَّا خِلَافٍ، وَإِنَّمَا حَصَّ السَّفَرَ بِالذِّكْرِ لِأَنَّ الْإِشْتِبَاهَ فِيهِ أَغْلَبُ.

قَالَ فِي الْبَحْرِ: وَقَالَ قَوْمٌ: تَبَيَّنُوا أَبْلَغُ وَأَشَدُّ مِنْ فَتَثَبَّتُوا، لِأَنَّ الْمُتَثَبَّتَ قَدْ لَا يَتَّبَعُ. وَقَالَ الرَّاعِبُ: لِأَنَّهُ قَلَّمَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَثَبُّتٍ، وَقَدْ يَكُونُ التَّثَبُّتُ وَلَا تَبِينَ.<sup>١</sup>

وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ: التَّثَبُّتُ هُوَ خِلَافُ الْإِقْدَامِ، وَالْمُرَادُ: التَّأَيُّ، وَالتَّثَبُّتُ أَشَدُّ اخْتِصَابًا بِهَذَا الْمَوْضِعِ.<sup>٢</sup>

﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أَي: تُرِيدُونَ أَخَذَ أَمْوَالِهِ، وَعَبَّرَ عَنِ الْأَمْوَالِ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، تَحْقِيرًا لَهَا؛ لِأَنَّهَا عَارِضٌ زَائِلٌ.

﴿فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِمٌ كَثِيرَةٌ﴾.

أَي: مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنَ الْمَعَانِمِ الَّتِي أَحْلَاهَا لَكُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ، فَلَا تَتَعَجَّلُوا مَا لَمْ يَحِلَّ لَكُمْ.

﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾.

أَي: كَمَا اسْتَحْفَى هَذَا الَّذِي قَتَلْتُمُوهُ بَعْدَ مَا أَلْقَى إِلَيْكُمْ السَّلَامَ بِدِينِهِ حَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَوْمِهِ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ أَنْتُمْ تَسْتَحْفُونَ بِدِينِكُمْ مِنْ قَوْمِكُمْ حَذَرًا عَلَى أَنْفُسِكُمْ مِنْهُمْ، فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ بِالتَّمَكِينِ فِي الْأَرْضِ وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ فَتَأَمَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَالتَّبَيُّنُ هُنَا: التَّأَمُّلُ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ تَسْتَحْفُونَ بِإِيمَانِكُمْ كَمَا اسْتَحْفَى هَذَا الرَّاعِي بِإِيمَانِهِ.

١ - البحر المحيط في التفسير (٣١ / ٤)

٢ - البحر المحيط في التفسير (٣١ / ٤)



﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: مُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ نِيَّاتِكُمْ وَلَا أَعْمَالِكُمْ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنْ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الْإِسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ﴾. اسْتِعَارَ الضَّرْبَ لِلسَّعْيِ فِي قِتَالِ الْأَعْدَاءِ.

وَالْإِسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. اسْتِعَارَ السَّبِيلَ لِدِينِهِ.

وَالتَّذْيِيلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾﴾. وَالْعَرْضُ مِنْهُ التَّهْدِيدُ وَالْوَعِيدُ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ٩٥

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا عَاتَبَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا صَدَرَ مِنْهُمْ مِنْ قَتْلِ مَنْ تَكَلَّمَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، بَيَّنَّ تَعَالَى هُنَا فَضْلَ الْجِهَادِ وَمَنْزِلَةَ الْمُجَاهِدِ عَلَى الْقَاعِدِينَ، لئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ خَوْفًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَحْذُورِ الَّذِي وَقَعَ مِنْ غَيْرِهِمْ بِأَنْ يُصِيبَ الْمُجَاهِدُ مُؤْمِنًا خَطَأً.

نَفَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسَاوَاةَ بَيْنَ الْقَاعِدِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ، وَهُوَ أَمْرٌ مَعْلُومٌ لِيَأْنِفَ الْقَاعِدُ عَنِ الْقَعُودِ عَنِ الْجِهَادِ وَيَتَرَفَعُ بِنَفْسِهِ عَنِ انْحِطَاطِ عَنِ رَتْبَةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَهُمْ الْمُجَاهِدُونَ.

وَنَفَى الْمُسَاوَاةَ بَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ التَّصْرِيحِ بِقَدْرِ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي بَيَّنَّ الْقَاعِدُ وَالْمُجَاهِدُ؛ لِيَذْهَبَ عَقْلُ الْمُتَأَمِّلِ كُلِّ مَذْهَبٍ فِي مَدَى مَا بَيْنَ الْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ التَّفَاوُتِ، وَمَا بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الدَّرَجَاتِ.

وَالْقَاعِدُ هُوَ الْمُتَخَلِّفُ عَنِ الْجِهَادِ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْقَاعِدِ؛ لِأَنَّ الْقَعُودَ هَيْئَةُ الْعَاجِزِ عَنِ الْحَرَكَةِ غَالِبًا.

ثُمَّ عَذَرَ اللَّهُ أَهْلَ الْعُدْرِ، فَاسْتثنَى أُولِي الضَّرَرِ وَهُمْ الَّذِينَ أَقْعَدَهُمُ الضَّرْرُ عَنِ الْجِهَادِ، فَأَلْحَقَهُمْ بِفَضْلِهِ فِي الْأَجْرِ بِالْمُجَاهِدِينَ.

### سَبَبُ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾:

كَانَ سَبَبُ نُزُولِ هَذَا الْاِسْتِثْنَاءِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «ادْعُوا فُلَانًا» فَجَاءَهُ وَمَعَهُ الدَّوَاةُ وَاللَّوْحُ، أَوْ الْكِتْفُ، فَقَالَ: "اَكْتُبْ: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾" وَخَلَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنَ أُمِّ مَكْتُومٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا



ضريّر، فنزلت مكانها: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>.

وإنما تأخر نزول قوله: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرِّ﴾، حتى راجع ابن أم مكتوم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليستشعر أصحاب الاعذار منة الله تعالى عليهم، وعظيم لطفه بهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، «عن بدر، والخارجون إلى بدر»<sup>٢</sup>.

واختلف العلماء في أولي الضر هل يساؤون المجاهدين في الأجر أم لا؟

فقيل: يساؤون المجاهدين في الأجر؛ لما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ»، قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»<sup>٣</sup>.

ورواه مسلم عن عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما<sup>٤</sup>.

وقيل: لا يساؤون المجاهدين؛ لقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾، كما سيأتي بيانه.

قوله تعالى: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾.

بدأ تعالى بذكر الأموال على سبيل الترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإن الجهاد بالنفس لا يعدله شىء<sup>٥</sup>.

١ - رواه البخاري - كتاب تفسير القرآن، باب ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، ﴿وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥] حديث رقم: ٤٥٩٤، ومسلم - كتاب الإمارة، باب سقوط فرض الجهاد عن المعذورين، حديث رقم: ١٨٩٨

٢ - رواه البخاري - كتاب المغازي، باب، حديث رقم: ٣٩٥٤

٣ - رواه البخاري - كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن العزو، حديث رقم: ٢٨٣٩

٤ - رواه مسلم - كتاب الإمارة، باب ثواب من حبسه عن العزو مرض أو عذر آخر، حديث رقم: ١٩١١



﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾.

أي: فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنْ أُولِي الضَّرْرِ بِدَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ، لِأَنَّ الْمُجَاهِدِينَ بَاشَرُوا الْجِهَادَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، مَعَ النِّيَّةِ، وَأَمَّا أُولُو الضَّرْرِ فَكَانَتْ لَهُمْ نِيَّةٌ وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُبَاشِرُوا الْجِهَادَ، فَنَزَلُوا عَنْهُمْ دَرَجَةً.

قال ابن جرير: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾. عَلَى أَهْلِ الضَّرْرِ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾.

قَالَ مُقَاتِلٌ: يَعْنِي الْمُجَاهِدَ وَالْقَاعِدَ الْمَعْدُورَ.

أي: وَكُلُّ فَرِيقٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ أُولِي الضَّرْرِ وَالْمُجَاهِدِينَ وَعَدَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ لِإِيْمَانِهِ وَصَدَقَ نِيَّتِهِ.

﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قَالَ ابْنُ جُرَيْرٍ: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، عَلَى الْقَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الضَّرْرِ.

﴿دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾.

الدَّرَجَاتُ مَنَازِلُ الْجَنَّةِ بَعْضُهَا أَعْلَى مِنْ بَعْضٍ، وَهِيَ تَقَابُلُ دَرَكَاتِ النَّارِ أَعَادَنَا اللَّهُ مِنْهَا بِفَضْلِهِ وَمِنْهُ.

وَأَتَتْ الدَّرَجَاتُ فِي الْآيَةِ مُجْمَلَةً وَفَصَّلَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تُنَبِّئُ النَّاسَ بِذَلِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ،



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

فَإِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرَ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»<sup>١</sup>.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: كَانَ وَلَا يَزَالُ غَفُورًا لِدُنُوبِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، رَحِيمًا بِهِمْ، فَيَتَفَضَّلُ عَلَيْهِمْ بِرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ عَلَى تَفْصِيرِهِمْ.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

الِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾. اسْتِعَارَ الْإِسْتِوَاءَ الَّذِي هُوَ حَقِيقَةٌ فِي الْمَكَانِ، لِلتَّسَاوِي فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْفَضِيلَةِ.

الِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً﴾. اسْتِعَارَ دَرَجَةً وَحَقِيقَتَهَا فِي الْمَكَانِ فَعَبَّرَ بِهِ عَنِ الْمَعْنَى الَّذِي اقْتَضَى التَّفْضِيلَ.

١ - رواه البخاري - كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسِّيَرِ، بَابُ دَرَجَاتِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يُقَالُ: هَذِهِ سَبِيلِي وَهَذَا سَبِيلِي،

حديث رقم: ٢٧٩٠



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا عَفُورًا﴾. سورة النساء: الآية / ٩٧ - ٩٩

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْجِهَادِ وَذَكَرَ ثَوَابَ الْمُجَاهِدِينَ، أَتَبَعَ ذَلِكَ بَيَانِ حَالِ مَنْ رَضِيَ بِالْإِقَامَةِ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْكُفَرِ فِي دَارِ الْكُفْرِ.

### سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ، قَالَ: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ بَعَثُ، فَأَكْتَبْتُهُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرَمَةَ، فَأَخْبَرْتُهُ فَنَهَانِي أَشَدَّ النَّهْيِ ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: "أَنَّ أَنَسًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ، يُكْتَبُونَ سَوَادَ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ فَيَقْتُلُهُ، أَوْ يَضْرِبُهُ فَيَقْتُلُهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾.

يُنْهَى اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدَّ النَّهْيِ عَنِ الْإِقَامَةِ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ، إِذَا لَمْ يَتِمَّكَونَا مِنْ إِقَامَةِ الدِّينِ، وَكَانُوا قَادِرِينَ عَلَى الْهَجْرَةِ.

أَيُّ: تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ حَالِ كَوْنِهِمْ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ بِتَرْكِ الْهَجْرَةِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ.

١ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ الْفِتَنِ، بَابُ مَنْ كَرِهَ أَنْ يُكْتَبَ سَوَادَ الْفِتَنِ وَالظُّلْمِ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٧٠٨٥



﴿قَالُوا فِيْمَ كُنْتُمْ﴾.

تَسْأَلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ سُؤَالَ تَوْبِيخٍ، وَأَصْلُهَا (فِيْمَا) وَحُدِفَتِ الْأَلْفُ لِلتَّفْرِيقِ بَيْنَ الْإِسْتِفْهَامِ وَالْحَبْرِ. وَقَوْلُ الْمَلَائِكَةِ ﴿فِيْمَ كُنْتُمْ﴾، وَلَمْ يَقُولُوا أَيْنَ كُنْتُمْ، لِلدَّلَالَةِ عَلَى مَا تَحَدَّثَهُ مَخَالِطَةُ الْكُفَّارِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، فَكَأَنَّهُمْ كَانُوا مَغْمُوسِينَ فِي نَجَاسَةٍ، لَتَرْكِهِمْ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

أَي: قَالُوا كَانَ يَسْتَضْعِفُنَا الْمُشْرِكُونَ لِقَلَّةِ عَدَدِنَا، فَيَمْنَعُونَا مِنَ الْجَهْرِ بِالْإِيمَانِ، وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَهُوَ عَذْرٌ قَبِيحٌ، وَحُجَّةٌ وَاهِيَةٌ، وَلَيْسَ مَرَادُهُمْ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْبَلَدِ، وَلَا الذَّهَابِ فِي الْأَرْضِ، كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ وَإِلَّا لَكَانُوا مِنْ جَمَلَةِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ عَذَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

أَي: قَالُوا فَمَا مَنَعَكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا مِنْ أَرْضِكُمْ، وَتُقَارِفُوا هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَمْنَعُونَكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ الدِّينِ، وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ؟

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

أَي: فَأُولَئِكَ مَصِيرُهُمْ فِي الْآخِرَةِ جَهَنَّمُ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمُ لِأَهْلِهَا مَصِيرًا، وَذَكَرَ الْمَأْوَى تَهَكُّمًا بِهِمْ فَإِنَّ الْمَأْوَى يَكُونُ عَادَةً لِلْإِحْتِمَاءِ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَخَافِ.

﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

ثُمَّ اسْتثنَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُسْتَضْعَفِينَ فَعَذَرَهُمْ فِي تَرْكِ الْهَجْرَةِ، لِأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَوْ اسْتَطَاعُوا التَّخَلُّصَ مِنْهُمْ لَمَا عَرَفُوا الطَّرِيقَ إِلَى الْمَدِينَةِ.



قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي يَزِيدَ، سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يَقُولُ: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنْ الْمُسْتَضْعَفِينَ أَنَا مِنَ الْوِلْدَانِ وَأُمِّي مِنَ النِّسَاءِ»<sup>١</sup>.

﴿فَأَوْلَيْكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ﴾.

أَيُّ: عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ تَكْلِيفُهُمْ بِوَجُوبِ الْهَجْرَةِ لضعفهم، لئلا يُتَوَهَّمُ أَنَّهُمْ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِمْ تَحْمُلُ غَايَةِ الْمَشَقَّةِ فِي الْهَجْرَةِ وَلَوْ أَدَّى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى الْهَلَاكِ، وَذَكَرَ لَفْظَ (عَسَى) لئلا يركنوا كل الركون، بل يجب عليهم الخروج متى تآتى لهم ذلك، وَعَسَى مِنَ اللَّهِ مُوجِبَةٌ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا غُفُورًا﴾.

أَيُّ: وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا لَا يَكْلِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا، غُفُورًا لِمَنْ أَذْنَبَ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ لضعف البشري ثم أناب.

#### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: سُؤَالَ الْمَلَائِكَةِ لِمَنْ مَاتَ بَيْنَ ظَهْرَانِي الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾، لِتَوْبِيخِ وَالتَّفْرِيعِ.

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ لَهُمْ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾.

ذَكَرَ الْمَأْوَى فِي قَوْلِهِ: ﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾، لِلتَهْكِيمِ بِهِمْ؛ فَإِنَّ الْمَأْوَى يَكُونُ عَادَةً لِلِاحْتِمَاءِ مِنَ الْمَكَارِهِ وَالْمَخَافِ.

الْعَامُ الَّذِي يَرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ﴾؛ فَإِنَّ لَفْظَ الْمَلَائِكَةِ عَامٌّ وَالْمَرَادُ بِهِ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ.

وَإِنْ كَانَ الْمَرَادُ بِهِ مَلَكُ الْمَوْتِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ، فَهُوَ مِنْ إِطْلَاقِ الْجَمْعِ عَلَى الْوَاحِدِ.

١ - رواه البخاري - كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، هل يُصَلَّى عَلَيْهِ، وهل يُعْرَضُ عَلَى الصبي الإسلام، حديث رقم: ١٣٥٧



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٠٠

### سَبَبُ نُزُولِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ فَتَادَةَ: قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ وَرَجُلٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يُقَالُ لَهُ ضَمْرَةٌ بِمَكَّةَ قَالَ: وَاللَّهِ إِنَّ لِي مِنَ الْمَالِ مَا يُبَلِّغُنِي الْمَدِينَةَ وَأَبْعَدَ مِنْهَا وَإِنِّي لِأَهْتَدِي، أُخْرِجُونِي. وَهُوَ مَرِيضٌ حِينِيذٍ. فَلَمَّا جَاوَزَ الْحَرَمَ قَبِضَهُ اللَّهُ فَمَاتَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ...﴾. الْآيَةُ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ قَالَ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾. فِي ضَمْرَةِ بْنِ الْعَيْصِ بْنِ الزُّبَيْعِ، أَوْ فُلَانِ بْنِ ضَمْرَةَ بْنِ الْعَيْصِ بْنِ الزُّبَيْعِ، حِينَ بَلَغَ التَّنْعِيمَ مَاتَ فَنَزَلَتْ فِيهِ.

لَمَّا جُئِلَ النَّاسُ عَلَى مَحَبَةِ الْأُوطَانِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَقَدْ يَكُونُوا فِي مَحَنَةٍ وَبِلَاءٍ بِسَبَبِ ظُلْمِ أَعْدَائِهِمْ لَهُمْ، وَشَدَّتْ عَلَيْهِمْ، رَغِبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الْهَجْرَةِ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ، وَوَعَدَهُمْ عَلَى هَجْرَتِهِمْ الْأَمْنَ وَالتَّطْمَئِنَّةَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَالتَّعَدُّعَ مَا يَكْرَهُونَهُ، فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبًا فِي مُرَاعِمَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَسَعَةً فِي الْأَرْزَاقِ عَوَضًا عَمَّا تَرَكَوهُ فِي أَوْطَانِهِمْ، فَقَالَ: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾.

وَقَدَّمَ تَعَالَى مُرَاعِمَةَ الْأَعْدَاءِ عَلَى سَعَةِ الْعَيْشِ؛ لِأَنَّ الْإِبْتِهَاجَ بِرَغْمِ أَنْوَابِ الْأَعْدَاءِ لِسُوءِ مُعَامَلَتِهِمْ أَشَدُّ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ بِالسَّعَةِ.

وَالْمُرَاعِمُ اسْمٌ لِلْمَكَانِ الَّذِي يُتَحَوَّلُ إِلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ فِي حَالِ هَجْرَةٍ، وَهُوَ مُسْتَقٌّ مِنَ الرَّعَامِ وَهُوَ التُّرَابُ.

وَسُمِّيَ الْمُهَاجِرُ مُرَاعِمًا لِأَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا أَسْلَمَ عَادَى قَوْمَهُ وَهَجَرَهُمْ فَعَلِبَهُمْ عَلَى مَرَادِهِمْ فَكَانَ مَرغَمَ أَنْوَابِهِمْ فِي التُّرَابِ.



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ: الْمُرَاعِمُ: التَّحَوُّلُ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ.

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: ﴿مُرَاعِمًا كَثِيرًا﴾ يَعْنِي: مُتَزَحِّحًا عَمَّا يُكْرَهُ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: الْمُرَاعِمُ الْمُبْتَغَى لِلْمَعِيشَةِ.

والمرادُ بالسَّعَةِ السَّعَةُ فِي الرِّزْقِ، وَالسَّعَةُ فِي الْبِلَادِ، وَاتِّسَاعُ الصَّدْرِ لِانْتِفَاءِ الْهُمُومِ.

قَالَ مَالِكٌ: هَذِهِ الْآيَةُ دَالَّةٌ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ الْمَقَامُ بِأَرْضٍ يُسَبُّ فِيهَا السَّلْفُ وَيُعْمَلُ فِيهَا بِعَيْرِ الْحَقِّ.

﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

أَيُّ: وَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ بِنِيَّةِ الْهَجْرَةِ، فَمَاتَ فِي أَثْنَاءِ الطَّرِيقِ فَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَوَابَ تَمَامِ تِلْكَ الْهَجْرَةِ؛ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِأَمْرٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»<sup>١</sup>.

وتقدم أن هذه الآية نزلت في ضمرة بن العيص، قال عكرمة مؤلى ابن عباس: طلبت اسم هذا الرجل أربع عشرة سنة حتى وجدته.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا لِمَا كَانَ مِنْهُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْإِثَامِ، رَحِيمًا حِينَ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَوَابَ هِجْرَتِهِ.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. استعار السبيل الذي هو للطريق الحسي لدينه تعالى.

١ - رواه البخاري - كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ حديث رقم: ١، ومسلم - كتاب الإمارة،

باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْعَزُّ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، حديث رقم: ١٩٠٧



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلَامِ الْغُيُوبِ

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾. اسْتِعَارَ الْإِدْرَاكَ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ مَنْ فِيهِ حَيَاةٌ  
لِحُلُولِ الْمَوْتِ.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ﴾. اسْتِعَارَ الْوُقُوعَ الَّذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِجْرَامِ  
لِثُبُوتِ الْأَجْرِ.

وَالتَّكْرَارُ فِي: اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٠١

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، نَاسَبَ أَنْ يَذْكَرَ مَا يَخْتِاجُ الْمُجَاهِدُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مِنْ أَحْكَامِ صَلَاتِهِ حِينَئِذٍ، مِنْ حَيْثُ كَيْفِيَّةِ أَدَائِهَا، وَعَدَدِ رَكَعَاتِهَا لَا سِيَّمَا عِنْدَ الْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ.

الْمُرَادُ بِالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ السَّفَرُ فِي الْبِلَادِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>١</sup>.

وَالرَّاجِحُ فِي حَدِّهِ وَمَقْدَارِهِ أَنَّهُ كُلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي عَرَفِ النَّاسِ سَفَرًا.

﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

قَوْلُهُ: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، دَلِيلٌ: عَلَى أَنَّ قَصْرَ الصَّلَاةِ فِي السَّفَرِ لَيْسَ وَاجِبًا، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ.

وَالْمُرَادُ بِالْقَصْرِ فِي الْآيَةِ قَصْرُ الرُّبَاعِيَّةِ فِي السَّفَرِ؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ، أَنَّهُ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ، إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ، فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ «صَدَقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صِدْقَتَهُ»<sup>٢</sup>.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فَإِنَّهُ قِيدٌ حَرَجٌ مَخْرَجُ الْغَالِبِ حَالَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ غَالِبَ أَسْفَارِهِمْ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ كَانَتْ مَخُوفَةً.

وَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ وَمَالِكُ فِي الْمَوْطَأِ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ آلِ خَالِدِ بْنِ أَسِيدٍ، أَنَّهُ سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّا نَجِدُ صَلَاةَ الْخَوْفِ، وَصَلَاةَ الْحُضْرِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا نَجِدُ صَلَاةَ السَّفَرِ؟ فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «يَا ابْنَ أَخِي إِنَّ اللَّهَ

١ - سُورَةُ الْمُرْتَمِلِ: الْآيَةُ / ٢٠

٢ - رَوَاهُ مُسْلِمٌ - كِتَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، بَابُ صَلَاةِ الْمُسَافِرِينَ وَقَصْرِهَا، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٨٦



عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ إِلَيْنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا نَعْلَمُ شَيْئًا. فَأَيُّمَا نَفَعَلْ، كَمَا رَأَيْنَاهُ يَفْعَلُ»<sup>١</sup>.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «صَلَاةُ السَّفَرِ رُكْعَتَانِ، مَنْ خَالَفَ السُّنَّةَ كَفَرَ»<sup>٢</sup>.

وقيل المراد بالقصر قصر كنيفتها لا كميته، ومعنى قصر كنيفتها أن يصلوا إيماءً رجالاً وركباً وغير متوجهين إلى القبلة، أن يصلي بعضهم مع الإمام ركعة واحدة، ويقف الإمام حتى يأتي البعض الآخر فيصلي معهم الركعة الأخرى، ويدل على أن المراد بالقصر قصر كنيفتها، ما بينه الله تعالى بعد ذلك من الكلام عن كنيفتها.

والراجح أن المراد بالقصر في الآية قصر الرباعية في السفر إذا لم يكن قتال، فإذا كان ثم قتال اجتمع قصر الكيفية والكمية؛ فعن سَمَاكِ الحَنْفِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عُمَرَ عَنِ صَلَاةِ السَّفَرِ؟ فَقَالَ: "رُكْعَتَانِ تَمَامٌ غَيْرِ قَصْرِ إِمَّا الْقَصْرُ صَلَاةُ الْمُخَافَةِ. فَقُلْتُ: وَمَا صَلَاةُ الْمُخَافَةِ؟ قَالَ: يُصَلِّي الْإِمَامُ بِطَائِفَةِ رُكْعَةٍ، ثُمَّ يَجِيءُ هَؤُلَاءِ مَكَانَ هَؤُلَاءِ وَيَجِيءُ هَؤُلَاءِ مَكَانَ هَؤُلَاءِ، فَيُصَلِّي بِهِمْ رُكْعَةً، فَيَكُونُ لِلْإِمَامِ رُكْعَتَانِ وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ رُكْعَةٌ"<sup>٣</sup>.

واختلف العلماء في السفر الذي يباح به القصر، والراجح أنه السفر المباح؛ للقاعدة الفقهية الرخص لا تستباح بها المعاصي؛ لقوله: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، فقد أباح الله الميئة حال الاضطراب بشرط ألا يكون عاصياً.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾.

أي: عداوة الكافرين لكم ظاهرة لا تخفى، فإن وجدوا منكم فرصة انتهزوها، ولن يتورعوا عن قتلكم ولو كنتم في الصلاة فاحذروهم.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٦٣٥٣، ومالك في الموطأ - كتاب قصر الصلاة في السفر، باب قصر الصلاة في السفر،

حديث رقم: ٧، بسند صحيح

٢ - رواه أبو نعيم في الحلية (١٨٦ / ٧)

٣ - تفسير الطبري (٤١٦ / ٧)



والعدو يطلق على الواحد والجمع؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾<sup>١</sup>.

١ - سورة الشعراء: الآية / ٧٧



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٠٢

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَصْرَ الرُّبَاعِيَّةِ فِي السَّفَرِ، بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ كَيْفِيَّةَ الصَّلَاةِ حَالِ الْخَوْفِ عِنْدَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، يَعْنِي: إِذَا كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي اصْحَابِكَ ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾، أَي: أَرَدْتَ إِقَامَةَ الصَّلَاةِ لَهُمْ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦] أَي: إِذَا أَرَدْتُمْ الْفَيْتَامَ.

وَالْخَطَابُ فِي الْآيَةِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَخْطَأَ مَنْ زَعَمَ أَنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ لَا تَشْرَعُ بَعْدَ مَوْتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ﴾، وَالصَّوَابُ أَنَّ مَا ثَبَتَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَبَتَ فِي حَقِّنَا، مَا لَمْ يَقُمْ دَلِيلٌ عَلَى اخْتِصَاصِهِ بِهِ.

﴿فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾.

أَي: فَاجْعَلْ مِنْ مَعَكَ طَائِفَتَيْنِ، طَائِفَةٌ تَقُومُ مَعَكَ تَصَلِّيَ بِهِمْ رُكْعَةً، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى تَقُومُ تَجَاهَ الْعَدُوِّ لِحِرَاسَتِكُمْ وَأَنْتُمْ فِي الصَّلَاةِ، وَلْيَأْخُذُوا جَمِيعًا أَسْلِحَتَهُمْ يَعْنِي الطَّائِفَةُ الَّتِي فِي الصَّلَاةِ، وَالطَّائِفَةُ الَّتِي تَقِفُ تَجَاهَ الْعَدُوِّ، حِذْرًا مِنْ هَجُومِ أَعْدَائِكُمْ عَلَيْكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ﴾، بَيَانُ أَنَّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ الْعَدُوُّ فِي جِهَةِ مَخَالَفَةِ لُجْهَةِ الْقِبْلَةِ.



﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتْهُمْ﴾.

ثُمَّ يَنْصَرِفُ الَّذِينَ صَلُّوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَقُومُوا فِي مَقَامِ أَصْحَابِهِمْ فِي الْحِرَاسَةِ مُقْبِلِينَ عَلَى الْعُدُوِّ، وَتَأْتِي الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى ثُمَّ يُصَلِّي بِهِنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْعَةً، ثُمَّ يُسَلِّمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقْضِي هَؤُلَاءِ رُكْعَةً، وَهَؤُلَاءِ رُكْعَةً.

عَنْ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَاةَ الْخَوْفِ بِإِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ رُكْعَةً، وَالطَّائِفَةُ الْأُخْرَى مُوَاجِهَةٌ الْعُدُوِّ، ثُمَّ انْصَرَفُوا وَقَامُوا فِي مَقَامِ أَصْحَابِهِمْ مُقْبِلِينَ عَلَى الْعُدُوِّ، وَجَاءَ أَوْلَيْكَ ثُمَّ صَلَّى بِهِنَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُكْعَةً، ثُمَّ سَلَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَضَى هَؤُلَاءِ رُكْعَةً، وَهَؤُلَاءِ رُكْعَةً»<sup>١</sup>.

﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ.....﴾.

هذه الهيئة التي تقدم ذكرها واحدة من ستِّ هيئاتٍ وردت في صلاة الخوف كلها جائزة.

الهيئة الثانية: أَنْ يُصَلِّيَ بِالطَّائِفَةِ الْأُولَى رُكْعَةً وَاحِدَةً، ثُمَّ يَقُومُ وَيَقُومُونَ مَعَهُ ثُمَّ يَتَأَخَّرُونَ وَتَقْدُمُ الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى فَيُصَلِّي بِهِنَّ رُكْعَةً، ثُمَّ يَقْعَدُ حَتَّى تُصَلِّي كُلُّ طَائِفَةٍ رُكْعَةً، ثُمَّ يُسَلِّمُ. لما ثبت عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَنَمَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «صَلَّى بِأَصْحَابِهِ فِي الْخَوْفِ، فَصَفَّهُمْ خَلْفَهُ صَفَيْنِ، فَصَلَّى بِالَّذِينَ يَلُونَهُ رُكْعَةً، ثُمَّ قَامَ فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا حَتَّى صَلَّى الَّذِينَ خَلْفَهُمْ رُكْعَةً، ثُمَّ تَقَدَّمُوا وَتَأَخَّرَ الَّذِينَ كَانُوا قُدَّامَهُمْ، فَصَلَّى بِهِنَّ رُكْعَةً، ثُمَّ قَعَدَ حَتَّى صَلَّى الَّذِينَ تَخَلَّفُوا رُكْعَةً، ثُمَّ سَلَّمَ»<sup>٢</sup>.

الهيئة الثالثة: أَنْ يَصْفَّ الْجَيْشَ خَلْفَهُ صَفَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي بِهِنَّ فَإِذَا كَبَّرَ كَبَّرُوا جَمِيعًا، وَرَكَعُوا مَعَهُ، وَرَفَعُوا مِنَ الرُّكُوعِ جَمِيعًا، ثُمَّ يَسْجُدُ هُوَ بِالصَّفِّ الَّذِي يَلِيهِ وَالْآخَرُونَ قِيَامًا يَخْرُسُونَ، فَإِذَا سَجَدُوا وَقَامُوا سَجَدَ الْآخَرُونَ فِي مَكَانِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمُوا إِلَى مَصَافِّ الْمُتَقَدِّمِينَ وَتَأَخَّرَ

١ - رواه البخاري - كتاب المعازي، باب غزوة ذات الرِّقاع، حديث رقم: ٤١٣٣، ومسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، حديث رقم: ٨٣٩

٢ - رواه مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الخوف، حديث رقم: ٨٤١



الْمُتَقَدِّمُونَ إِلَى مَصَافِّ الْمُتَأَخِّرِينَ، ثُمَّ رَكَعُوا مَعَهُ جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ فَسَجَدَ مَعَهُ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، فَلَمَّا صَلَّى سَجَدَ الْآخَرُونَ، ثُمَّ سَلَّمَ بِهِمْ جَمِيعًا؛ لِمَا رَوَى أَبُو عِيَّاشٍ الرَّزْقِيُّ قَالَ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُسْفَانَ وَعَلَى الْمُشْرِكِينَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ. فَصَلَّيْنَا الظُّهْرَ. فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَقَدْ أَصَبْنَا غِرَّةً لَوْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ. فَنَزَلَتْ آيَةُ الْقَصْرِ بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ. فَلَمَّا حَضَرَتْ الْعَصْرُ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، وَالْمُشْرِكُونَ أَمَامَهُ، فَصَفَّ حَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَفًّا، وَصَفَّ حَلْفَ ذَلِكَ الصَّفِّ صَفًّا آخَرَ، فَكَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا صَلَّى بِهَؤُلَاءِ السَّجْدَتَيْنِ وَقَامُوا، سَجَدَ الْآخَرُونَ، الَّذِينَ كَانُوا حَلْفَهُمْ، ثُمَّ تَأَخَّرَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ إِلَى مَقَامِ الْآخِرِينَ، وَتَقَدَّمَ الصَّفُّ الْآخِرُ إِلَى مَقَامِ الصَّفِّ الْأَوَّلِ، ثُمَّ رَكَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَكَعُوا جَمِيعًا، ثُمَّ سَجَدَ وَسَجَدَ الصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ، وَقَامَ الْآخَرُونَ يَحْرُسُونَهُمْ، فَلَمَّا جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّفُّ الَّذِي يَلِيهِ سَجَدَ الْآخَرُونَ، ثُمَّ جَلَسُوا جَمِيعًا، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَصَلَّاهَا بِعُسْفَانَ، وَصَلَّاهَا يَوْمَ بَنِي سُلَيْمٍ»<sup>١</sup>.

الْهِئَةُ الرَّابِعَةُ: أَنْ يُصَلِّيَ بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ وَيُسَلِّمَ بِهَا، كَمَا رَوَى أَبُو بَكْرَةَ: قَالَ «صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَوْفِ الظُّهْرِ، فَصَفَّ بَعْضُهُمْ حَلْفَهُ، وَبَعْضُهُمْ بِإِزَاءِ الْعُدُوِّ، فَصَلَّى رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَاذْهَبَ الَّذِينَ صَلَّوْا فَوْقَهُمْ مَوْقِفَ أَصْحَابِهِمْ، ثُمَّ جَاءَ أَوْلِيكَ فَصَلَّوْا حَلْفَهُ فَصَلَّى بِهِمْ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، فَكَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعٌ، وَلِأَصْحَابِهِ الْهِئَةُ الْخَامِسَةُ: أَنْ يُصَلِّيَ بِالطَّائِفَةِ الْأُولَى رَكَعَتَيْنِ، وَلَا يُسَلِّمَ، ثُمَّ تُسَلِّمُ الطَّائِفَةُ، وَتَنْصَرِفُ وَلَا تَقْضِي شَيْئًا. وَتَأْتِي الطَّائِفَةُ الْأُخْرَى، فَيُصَلِّيَ بِهَا رَكَعَتَيْنِ، وَيُسَلِّمُ بِهَا، وَلَا تَقْضِي شَيْئًا؛ لِمَا رَوَى جَابِرٌ، قَالَ: «أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كُنَّا بِذَاتِ الرِّقَاعِ. فَذَكَرَ

١ - رواه أبو داود - كتاب الصلاة، تفريع صلاة السفر، باب صلاة الخوف، حديث رقم: ١٢٣٦، بسند صحيح

٢ - رواه أبو داود - كتاب الصلاة، تفريع صلاة السفر، باب من قال: يُصَلِّي بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ، حديث رقم:

١٢٤٨، بسند صحيح



الحديث. قَالَ: فَتُودِي بِالصَّلَاةِ، فَصَلَّى بِطَائِفَةٍ رَكَعَتَيْنِ، ثُمَّ تَأَخَّرُوا، وَصَلَّى بِالطَّائِفَةِ الْأُخْرَى رَكَعَتَيْنِ. قَالَ: وَكَانَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ، وَلِلْقَوْمِ رَكَعَتَيْنِ رَكَعَتَيْنِ<sup>١</sup>.  
 الْهَيْئَةُ السَّادِسَةُ: أَنْ يُصَلِّيَ بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكَعَةً، وَلَا تَقْضِي شَيْئًا؛ لِمَا ثَبَتَ عَنْ حُدَيْفَةَ، «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى صَلَاةَ الْخَوْفِ بِهَؤُلَاءِ رَكَعَةً، وَبِهَؤُلَاءِ رَكَعَةً، وَلَمْ يَقْضُوا شَيْئًا»<sup>٢</sup>.  
 فَإِذَا كَانَ الْخَوْفُ شَدِيدًا، وَالتَّحَمَّتِ الصَّفُوفُ، صَلَّى رِجَالًا وَرُكْبَانًا، إِلَى الْقِبْلَةِ وَإِلَى غَيْرِهَا، يُومِتُونَ بِإِمَاءٍ.

﴿وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾.

ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَخْذِ الْحِذْرِ وَالسَّلَاحِ لِقَلَّ يَطْمَعُ فِيهِمْ عَدُوَّهُمْ.

وقوله تَعَالَى: ﴿وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾، أَمْرٌ لِلطَّائِفَةِ الَّتِي تَقِفُ تَجَاهَ الْعَدُوِّ، بَعْدَ أَمْرِ الطَّائِفَةِ الَّتِي فِي الصَّلَاةِ بِأَخْذِ السَّلَاحِ، وَتَزِيدُ الطَّائِفَةَ الَّتِي تَقِفُ تَجَاهَ الْعَدُوِّ بِأَخْذِ الْحِذْرِ، لِأَنَّهُمْ فِي حَالَةِ مُرَاقَبَةِ لِلْعَدُوِّ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْأَمْرِ بِحَمْلِ السَّلَاحِ فِي صَلَاةِ الْخَوْفِ، فَقَالَ بَعْضُهُمُ الْأَمْرُ فِي الْآيَةِ لِلْوُجُوبِ لِظَاهِرِ الْآيَةِ، وَهُوَ الرَّاجِحُ، بِقَرِينَةِ نَفْيِ الْجِنَاحِ عِنْدَ الْمَطَرِ وَالْمَرَضِ، وَقَالَ بَعْضُهُمُ الْأَمْرُ لِلنَّدْبِ.

﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

بَيَانٌ لِلْعَلَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَخْذِ الْحَيْطَةِ وَالْحِذْرِ، وَحَمْلِ السَّلَاحِ، وَهِيَ أَنَّ أَعْدَاءَهُمْ يَتَمَنُونَ أَنْ يَغْفَلَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْ أَسْلِحَتِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ فَيَهْجُمُونَ عَلَيْهِمْ هَجُومًا وَاحِدًا

١ - رواه البخاري - كتاب المعازي، باب غزوة ذات الرقاع، حديث رقم: ٤١٣٦، ومسلم - كتاب صلاة المسافرين

وقصرها، باب صلاة الخوف، حديث رقم: ٨٤٣

٢ - رواه أبو داود - كتاب الصلاة، تفريع صلاة السفر، باب من قال: يُصَلِّي بِكُلِّ طَائِفَةٍ رَكَعَةً وَلَا يَقْضُونَ، حديث

رقم: ١٢٤٦



ليأخذوهم على غرة، فيقتلونهم وهم في الصلاة، كما أرادوا ذلك مرارًا وقالوا: تَأْتِي عَلَيْهِمُ الْآنَ صَلَاةٌ هِيَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ.

الْأَسْلِحَةُ جَمْعُ سِلَاحٍ، وَهُوَ اسْمٌ جِنْسٍ لِأَلَةِ الْحَرْبِ.

وَالْأَمْتِعَةُ جَمْعُ مَتَاعٍ، وَهُوَ كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْحَرْبِ سِوَى السِّلَاحِ.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَدَى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾.

أي: وَلَا إِثْمَ عَلَيْكُمْ إِنْ أَصَابَكُمْ أَدَى بِسَبَبِ الْمَطَرِ وَأَنْتُمْ أَمَامَ عَدُوِّكُمْ، أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ جَزَى أَلَا تَأْخُذُوا أَسْلِحَتَكُمْ لِمَشَقَّةِ حَمْلِهَا فِي الْمَطَرِ، وَمِظْنَةِ ضَعْفِكُمْ عَنْ حَمْلِهَا فِي الْمَرَضِ.

﴿وَأُخَذُوا حِذْرُكُمْ﴾.

أمر عامٌ للجميع بأخذ الحِيطة والحذر، وتكرر حتى لا يتوهموا أن الأمر بوضع السلاح، يميز لهم الغفلة عن أعدائهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

هذا وعدٌ من الله تعالى للمؤمنين بالنصر على أعدائهم، بعد الأمر بأخذ الحذر، لأنه من أسباب النصر.

ووصف العذاب بالمهينٍ معاملة لهم بنقيض قصدهم فإنهم ظنوا أن الرفعة والعزة في طمس معالم الإسلام، وإذلال أهله، فأذهم الله تعالى وأهانهم.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: الْإِسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ﴾. اسْتِعَارَ الْحَذَرَ الَّذِي هُوَ مَعْنَوِيٌّ لِلشَّيْءِ الْحَسِيِّ الَّذِي يُؤْخَذُ بِالْيَدِ.

والمقابلة بين: (حِذْرُكُمْ)، و (تَعْفُلُونَ)

وجناس الاشتقاق في: (يَمِيلُونَ) و (مَيْلَةً)، من قوله تعالى: ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً﴾.



والجناس المماثل في: (حذرهم)، و (حذرکم)، وفي: (يصلوا)، و (فليصلوا)

والتكرار في: (أسلحتكم).



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٠٣

يُطْلَقُ الْقَضَاءُ فِي اللُّغَةِ وَيُرَادُ بِهِ عِدَّةٌ مَعَانٍ:

فِي آيَةِ الْقَضَاءِ بِمَعْنَى الْأَمْرِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الْإِسْرَاءِ: ٢٣]، أَي: أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ.

وَالْقَضَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْخَلْقُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فُصِّلَتْ: ١٢]، أَي: خَلَقَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ.

وَيُطْلَقُ الْقَضَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْحُكْمُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، أَي: احْكُمْ مَا شِئْتَ أَنْ تَحْكُمَ.

وَيُطْلَقُ الْقَضَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْإِرَادَةُ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مَرْيَمَ: ٣٤-٣٥]، أَي: إِذَا أَرَادَ أَمْرًا.

وَيُطْلَقُ الْقَضَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْعَهْدُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [الْقَصَصِ: ٤٤]، أَي: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِيِّ إِذْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ مُوسَى.

وَيُطْلَقُ الْقَضَاءُ وَيُرَادُ بِهِ الْفِرَاقُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ [الْبَقَرَةِ: ٢٠٠]، أَي: فَرَعْتُمْ مِنْهَا، وَهُوَ الْمَعْنَى الْمُرَادُ هُنَا.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

يَأْمُرُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْ صَلَاةِ الْخَوْفِ، عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَا تَخْلُو أَحْوَالُ النَّاسِ مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، حَالِ الْقِيَامِ، وَالْقُعُودِ، وَالِاضْطِجَاعِ.



وَالْمُرَادُ بِالذِّكْرِ هُنَا ذِكْرُ اللِّسَانِ كَالْتَسْبِيحِ وَالتَّحْمِيدِ، وَالْحِكْمَةُ فِي الْأَمْرِ بِالْإِكْتِسَارِ مِنْهُ هُنَا أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الثَّبَاتِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾<sup>١</sup>.

﴿فَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾.

أَيُّ: فَإِذَا أَمِنْتُمْ وَذَهَبَ الْخَوْفُ، وَحَصَلَتِ الطَّمَأْنِينَةُ وَهِيَ سُكُونُ النَّفْسِ مِنَ الْخَوْفِ، ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أَيُّ: فَأَتَمُّوْهَا وَلَا تَقْصُرُوْهَا، وَأَدُّوْهَا كَمَا أَمَرْتُمْ، بِأَرْكَانِهَا وَرُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا، وَخُشُوعِهَا.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُمَا: الْمَوْقُوتُ: الْمَفْرُوضُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ لِلصَّلَاةِ وَقْتًا كَوَفَّتِ الْحَجَّ.

وَالأولى الْجَمْعُ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ فَيَكُونُ الْمُرَادُ: إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَرَضًا وَقَّتَ لَهُمْ يُؤَدُّونَهَا فِيهِ، حَتَّى لَا يَتْرَخَنَّ أَحَدٌ فِي تَأْخِيرِهَا عَنْ وَقْتِهَا.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ١٠٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَخْذِ الْحَدَرِ وَحَمْلِ السِّلَاحِ عِنْدَ أَدَاءِ الصَّلَاةِ وَقَتِ الْخَوْفِ، أَمَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الصَّلَاةِ بِالْمُتَجُومِ عَلَى أَعْدَائِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنِ الضَّعْفِ فِي طَلِبِهِمْ.

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْوَهْنِ وَهُوَ الضَّعْفُ فِي مِطَارِدَةِ أَعْدَائِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ﴾. أَي: لَا تَضَعُفُوا فِي طَلْبِ الْقَوْمِ الَّذِينَ نَاصَبُوكُمُ الْعَدَاءَ وَقِتَالَهُمْ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْوَهْنِ نَهْيٌ عَنِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَوْدِي إِلَيْهِ.

﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ﴾.

أَي: إِنْ تَكُونُوا تَتَأْمُونُ مِمَّا أَصَابَكُمْ مِنَ الْجِرَاحِ، فَهُمْ يَتَأْمُونُ أَيْضًا مِمَّا أَصَابَهُمْ مِنَ الْجِرَاحِ، فَلَمْ يَمْنَعَهُمْ ذَلِكَ عَنِ قِتَالِكُمْ فَكَيْفَ يَمْنَعُكُمْ ذَلِكَ عَنِ قِتَالِهِمْ؟

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ النَّصْرَ وَالتَّأْيِيدَ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّمُوتَ وَالرِّضْوَانَ فِي الْآخِرَةِ، وَهُمْ لَا يَرْجُونَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، فَأَنْتُمْ أَوْلَى بِالْجِهَادِ مِنْهُمْ وَأَحَقُّ بِالمَصَابِرَةِ وَحَسَنِ الْبَلَاءِ فِي الْقِتَالِ مِنْهُمْ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أَي: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِنِيَّاتِكُمْ، حَكِيمًا فِي تَشْرِيْعِهِ وَأَحْكَامِهِ.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الْإِطْنَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ﴾.

والتكرارُ فِي قَوْلِهِ: ﴿تَأْمُونُ﴾.



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

والاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ فإن قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، كلام معترض بين قوله: ﴿وَتَرْجُونَ﴾ ، و ﴿مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

وحذف الإيجاز في قوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾؛ أي: مِنَ النَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ وَالمَثُوبَةِ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٦) وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ١٠٥ - ١٠٩

### مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بَيَّنَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْحُكْمَ بَيْنَ النَّاسِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَسَاسِ الْعَدْلِ وَلَا يَجُوزُ الظُّلْمُ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ، وَيَحِلُّ لِلْمُسْلِمِ أَنْ تَحْمِلَهُ الْعِدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ، عَلَى عَدَمِ الْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ، وَلَوْ كَانَتِ الْقَضِيَّةُ بَيْنَ مُسْلِمٍ وَكَافِرٍ، وَأَنَّ كُفْرَ الْكَافِرِ لَا يُبِيحُ لِلْمُسْلِمِ الْجُورَ، بَلِ الْوَاجِبُ إِقَامَةُ الْعَدْلِ وَالْحُكْمُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقُومٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾<sup>١</sup>.

### سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ:

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ إِنَّ نَفَرًا مِنَ الْأَنْصَارِ غَزَوْا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَعْضِ غَزَوَاتِهِ، فَسُرِقَتْ دِرْعٌ لِأَحَدِهِمْ، فَأَظَنَّ بِهَا رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَأَتَى صَاحِبَ الدِّرْعِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: إِنَّ طُعْمَةَ بَنِ أَبِي رِقٍ سَرَقَ دِرْعِي. فَأَتَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَأَى السَّارِقَ ذَلِكَ، عَمَدَ إِلَيْهَا فَأَلْقَاهَا فِي بَيْتِ رَجُلٍ بَرِيءٍ، وَقَالَ لِنَفَرٍ مِنْ عَشِيرَتِهِ: إِنِّي قَدْ عَيَّبْتُ الدِّرْعَ وَأَلْقَيْتُهَا فِي بَيْتِ فُلَانٍ، وَسَتُوجَدُ عِنْدَهُ. فَاذْطَلُّوا إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلًا، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ صَاحِبَنَا بَرِيءٌ، وَإِنَّ سَارِقَ الدِّرْعِ فُلَانٌ، وَقَدْ أَحْطْنَا بِذَلِكَ عِلْمًا، فَأَعْذُرْ صَاحِبَنَا عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَجَادِلْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِنْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللَّهُ بِكَ يَهْلِكُ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ - سُورَةُ الْمَائِدَةِ: الْآيَةُ/ ٨



فَبَرَّأَهُ وَعَدَّرَهُ عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾. يَقُولُ: "أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فِي الْكِتَابِ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧] الْآيَةُ، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلًا: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٨] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ [النساء: ١٠٩] يَعْنِي الَّذِينَ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَحْفِينَ بِالْكَذِبِ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ حَظِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ [النساء: ١١٢] وَإِثْمًا مُبِينًا يَعْنِي السَّارِقَ وَالَّذِينَ يُجَادِلُونَ عَنِ السَّارِقِ".<sup>١</sup>

ورواه الترمذي عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بِسِيَاقٍ أَمْ مِنْ هَذَا.

ورواه الترمذي عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ أَهْلُ بَيْتِ مِنَّا يُقَالُ لَهُمْ: بَنُو أَبِيرِقِ بَشْرٌ وَبُشَيْرٌ وَمُبَشِّرٌ، وَكَانَ بُشَيْرٌ رَجُلًا مُنَافِقًا يَقُولُ الشَّعْرَ يَهْجُو بِهِ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ يَنْحَلُهُ بَعْضَ الْعَرَبِ ثُمَّ يَقُولُ: قَالَ فُلَانٌ كَذَا وَكَذَا، فَإِذَا سَمِعَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ الشَّعْرَ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا يَقُولُ هَذَا الشَّعْرَ إِلَّا هَذَا الْحَيْثُ، أَوْ كَمَا قَالَ الرَّجُلُ، وَقَالُوا: ابْنُ أَبِيرِقِ قَالَهَا، قَالَ: وَكَانُوا أَهْلَ بَيْتِ حَاجَةٍ وَفَاقَةٍ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، وَكَانَ النَّاسُ إِثْمًا طَعَامُهُمْ بِالْمَدِينَةِ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ، وَكَانَ الرَّجُلُ إِذَا كَانَ لَهُ يَسَارٌ فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ مِنَ الدَّرْمَكِ، ابْتِنَاعَ الرَّجُلِ مِنْهَا فَحَصَّ بِهَا نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْعِيَالُ فَإِثْمًا طَعَامُهُمْ التَّمْرُ وَالشَّعِيرُ، فَقَدِمَتْ ضَافِطَةٌ مِنَ الشَّامِ فَابْتِنَاعَ عَمِّي رِفَاعَةَ بْنَ زَيْدٍ حِمْلًا مِنَ الدَّرْمَكِ فَجَعَلَهُ فِي مَشْرَبَةٍ لَهُ، وَفِي الْمَشْرَبَةِ سِلَاحٌ وَدِرْعٌ وَسَيْفٌ، فَعُدِي عَلَيْهِ مِنْ تَحْتِ الْبَيْتِ، فَتَقَبَّتِ الْمَشْرَبَةَ، وَأَخَذَ الطَّعَامَ وَالسِّلَاحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي إِنَّهُ قَدْ عُدِي عَلَيْنَا فِي لَيْلَتِنَا هَذِهِ، فَتَقَبَّتْ مَشْرَبَتِنَا فَدُهِبَ بِطَعَامِنَا وَسِلَاحِنَا. قَالَ: فَتَحَسَّسْنَا فِي الدَّارِ وَسَأَلْنَا فَقِيلَ لَنَا: قَدْ رَأَيْنَا بَنِي أَبِيرِقِ اسْتَوْقَدُوا فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ، وَلَا نَرَى فِيهَا نَرَى إِلَّا عَلَى بَعْضِ طَعَامِكُمْ، قَالَ: وَكَانَ بَنُو أَبِيرِقِ قَالُوا وَنَحْنُ نَسْأَلُ فِي الدَّارِ: وَاللَّهِ مَا نَرَى صَاحِبَكُمْ إِلَّا

١ - رواه الطبري (٧/ ٤٦٤)



لَيْدِ بْنِ سَهْلٍ، رَجُلٌ مَنَا لَهُ صَلاَحٌ وَإِسْلَامٌ، فَلَمَّا سَمِعَ لَيْدٌ اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَقَالَ: أَنَا أَسْرِقُ؟ فَوَاللَّهِ لِيُخَالِطَنَّكُمْ هَذَا السَّيْفُ أَوْ لَتُبَيِّنَنَّ هَذِهِ السَّرِقَةَ، قَالُوا: إِلَيْكَ عَنْهَا أَيُّهَا الرَّجُلُ فَمَا أَنْتَ بِصَاحِبِهَا، فَسَأَلْنَا فِي الدَّارِ حَتَّى لَمْ نَشْكُ أَنَّهُمْ أَصْحَابُهَا، فَقَالَ لِي عَمِّي: يَا ابْنَ أَخِي لَوْ أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتَ ذَلِكَ لَهُ، قَالَ فَتَادَهُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: إِنَّ أَهْلَ بَيْتِ مَنَا أَهْلَ جَفَاءٍ، عَمَدُوا إِلَى عَمِّي رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ فَانْقَبُوا مَشْرَبَةً لَهُ، وَأَخَذُوا سِلَاحَهُ وَطَعَامَهُ، فَلْيُرِدُوا عَلَيْنَا سِلَاحَنَا، فَأَمَّا الطَّعَامُ فَلَا حَاجَةَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَامُرُ فِي ذَلِكَ»، فَلَمَّا سَمِعَ بَنُو أَبِيرِقٍ أَتَوْا رَجُلًا مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ: أُسَيْرُ بْنُ عُرْوَةَ فَكَلَّمُوهُ فِي ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ فِي ذَلِكَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ قَتَادَةَ بْنَ الثُّعْمَانَ وَعَمَّهُ عَمَدًا إِلَى أَهْلِ بَيْتِ مَنَا أَهْلَ إِسْلَامٍ وَصَلاَحٍ، يَرْمُونَهُمْ بِالسَّرِقَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَلَا ثَبَتٍ، قَالَ فَتَادَهُ: فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمْتُهُ، فَقَالَ: «عَمَدَتِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ دُكْرٍ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلاَحٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَبَيِّنَةٍ»، قَالَ: فَرَجَعْتُ، وَوَدِدْتُ أَبِي خَرَجْتُ مِنْ بَعْضِ مَالِي وَلَمْ أَكَلِّمْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ، فَأَتَانِي عَمِّي رِفَاعَةُ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا صَنَعْتَ؟ فَأَحْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ لِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ بِنِي أَبِيرِقٍ ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ أَيُّ بِمَا قُلْتَ لِقَتَادَةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أَيُّ: لَوْ اسْتَعْفَرُوا اللَّهَ لَعَفَرَ هُمْ ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَإِنَّمَا مِئِينَا﴾ قَوْلُهُمْ لِلْبَيْدِ ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ - إِلَى قَوْلِهِ - ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالسِّلَاحِ فَرَدَّهُ إِلَى رِفَاعَةَ، فَقَالَ فَتَادَهُ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسِّلَاحِ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَسَا - أَوْ عَسَا - فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أَرَى إِسْلَامَهُ مَدْحُولًا، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسِّلَاحِ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ صَاحِحًا، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لِحَقِّ بُشَيْرٍ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ



عَلَى سُلَافَةِ بِنْتِ سَعْدِ ابْنِ سُمَيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿فَلَمَّا نَزَلَ عَلَىٰ سُلَافَةَ رَمَاهَا حَسَنًا بِنْتِ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِ، فَأَخَذَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَىٰ رَأْسِهَا ثُمَّ حَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَنًا؟ مَا كُنْتُ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ<sup>١</sup>.

يقول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، والمراد به هنا القرآن، ﴿بِالْحَقِّ﴾، الذي لا يشوبه باطل، ولا ميل فيه ولا اعوجاج، ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، أي: لِحُكْمِ بَيْنِ النَّاسِ جَمِيعًا مُؤْمِنِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، بَرِّهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، ﴿بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾، بما ألقاه في قلبك من نور المعرفة وصفاء الباطن، وليس لأحد غير الرسول صلى الله عليه وسلم، أن يقول هذا الحكم مما أراي الله؛ لأنه إذا كان اجتهادًا منا فهو مجرد ظن، وهو من الرسول صلى الله عليه وسلم وحده، وقد سمعت أحدهم في برنامج تلفزيوني يقول: (لما فلان يقول: الخمر حلال تبقى حلال؛ ثم يستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾.

والخطاب في هذه الآية للرسول صلى الله عليه وسلم، وكل إنسان بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، ليس له أن يحكم إلا بشرع الله تعالى، وما أشبه هذا وأمثاله باليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحرار والرهبان أربابًا من دون الله يجلون لهم ما حرم الله ويحرمون عليهم ما أحل الله فيتبعوهم.

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: لَا يَقُولَنَّ أَحَدٌ فَضَيْتُ بِمَا أَرَانِي اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِنَبِيِّهِ، وَأَمَّا الْوَاحِدُ مِنَّا فَرَأَيْهِ يَكُونُ ظَنًّا وَلَا يَكُونُ عِلْمًا.

١ - رواه الترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم:

٣٠٣٦، والحاكم - حديث رقم: ٨١٦٤، بسند حسن



وفي الآية دليل على أن ما حكّم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن؛ كما قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، رحمه الله: كل ما حكّم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

وفيها دليل كذلك على أن للرسول صلى الله عليه وسلم أن يحكم بالاجتهاد، وأنه مؤيد بالوحي فيما لم يرد فيه نص من القرآن.

ومما يدل على ذلك ما ثبت عن أم سلمة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِي لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ»<sup>١</sup>.  
﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

الخصيم: الكثير المخاصمة، وهو المنازع، وأصل المُخَصِّمَة: أن يتعلّق كلّ واحد بخصم الآخر، أي: جانبه، وقيل للخصمين: خصمان لأنّ كلّ واحدٍ منهما في ناحيةٍ من الحجّة والدعوى.  
أي: ولا تكن مخصماً للناس لأجل الخائنين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

لما نهى الله تعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون مخصماً للناس لأجل الخائنين، بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾، أمره الله تعالى بالاستغفار لذلك فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، كما قال قتادة بن النعمان رضي الله عنه: ﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾، أي: بما قلت لقتادة. أي: حين قال له: «عَمَدَتِ إِلَى أَهْلِ بَيْتِ دُكْرٍ مِنْهُمْ إِسْلَامٌ وَصَلَاخٌ تَرْمِيهِمْ بِالسَّرِقَةِ عَلَى غَيْرِ ثَبَتٍ وَبَيِّنَةٍ».

١ - رواه البخاري - كتاب الشهادات ، باب من أقام البيّنة بعد اليمين، حديث رقم: ٢٦٨٠

٢ - سورة النساء: الآية/ ١٠٧



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَاصِمٌ عَنْ طُعْمَةٍ، وَقَامَ يَعْذُرُ حَطِيبًا. وهذا القول ليس ذنبًا يوجب التوبة؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِنَّمَا دَفَعَ عَنْ طُعْمَةٍ وَهُوَ يَعْتَقِدُ بَرَاءَتَهُ. ومع ذلك أراد الله تعالى لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكمالَ فأمره بالاستغفار؛ كما قيل: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ.

﴿وَلَا يُجَادِلُ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾.

وَلَا يُجَادِلُ: أَي: وَلَا تُحَاصِمُ، وَالْمُجَادَلَةُ الْمُحَاصِمَةُ، وَهِيَ: مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ، وَأَصْلُهَا مِنَ الْجَدَلِ وَهُوَ الْقِتْلُ، وَأَصْلُهُ مِنَ جَدَلْتُ الْحَبْلَ، أَي: أَحْكَمْتُ قِتْلَهُ.

وَيَخْتَانُونَ: يَتَكَلَّفُونَ الْحَيَانَةَ، وَالْإِحْتِيَانُ افْتِعَالٌ مِنَ الْحَيَانَةِ، وَالْمُرَادُ الْمُبَالِغَةُ فِي الْحَيَانَةِ.

أَي: وَلَا تُحَاصِمُ عَنِ الَّذِينَ يَخُونُونَ أَنفُسَهُمْ، وَفِيهِ تَحْذِيرٌ كَذَلِكَ الَّذِينَ دَفَعْتَهُمُ الْحَمِيَّةَ إِلَى الْإِنْتِصَارِ لِأَبْنَاءِ الْأَبْرِيْقِ، فَهُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَأُمَّتِهِ عَلَى الصَّحِيحِ.

وَمَعْنَى حَيَاتِنَهُمْ أَنفُسَهُمْ: أَنَّهُمْ بَارْتِكَايَهُمْ مَا يَضُرُّ بِهِمْ كَانُوا بِمَنْزِلَةٍ مَنْ يَخُونُ غَيْرَهُ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَوَانًا أَيْمًا﴾.

وَصَفَّ اللَّهُ تَعَالَى طُعْمَةَ بِالْمُبَالِغَةِ فِي الْحَيَانَةِ وَالْإِثْمِ؛ لِأَنَّهُ حَانَ فِي سَرِقَةِ الدِّرْعِ، وَأَيْمٌ فِي نِسْبَةِ تِلْكَ السَّرِقَةِ إِلَى الْيَهُودِيِّ، وَدَلَّ وَصْفُهُ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْحَيَانَةَ كَانَتْ لَهُ سَجِيَّةً وَطَبْعًا، وَكَانَ الْإِثْمُ دِيدَنًا لَهُ، وَقَدْ قِيلَ: إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَاعْلَمْ أَنَّ لَهَا عِنْدَهُ أَحْوَاتٍ.

وَدَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَيَانَةَ وَالْإِثْمَ بِصِيغَةِ الْمُبَالِغَةِ هُنَا حَتَّى لَا يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ مَنْ وَقَعَتْ مِنْهُ الْحَيَانَةُ مَرَّةً أَوْ صَدَرَ مِنْهُ الْإِثْمُ بِسَبَبِ الْعَقْلَةِ وَعَدَمِ الْقَصْدِ.

١ - سورة البقرة: الآية / ١٨٧



﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾.

أَي: يَسْتَتِرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَتِرُونَ مِنَ اللَّهِ، وَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِمْ، يَعْلَمُ مَا يُبَيِّنُونَ وَيَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ مِنَ الْحَيَاةِ.

وَقِيلَ: يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ سَبَبُ الْإِسْتِتَارِ.

وَالأولى تفسيرا الاستخفاء بالاستتار؛ لقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾. [الرَّعْدِ: ١٠]، أَي: وَمَنْ هُوَ مُسْتَتِرٌ بِاللَّيْلِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، أَي: بعلمه، فَالْمَعِيَّةُ هُنَا مَعِيَّةُ الْعِلْمِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾<sup>١</sup>.

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾<sup>٢</sup>.

﴿إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾.

أَي: وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُدْبِرُونَ لِيَلَّا مَا لَا يُرْضِي اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْقَوْلِ، وَأَصْلُ الْبَيَاتِ هُوَ فِعْلٌ شَيْءٍ فِي اللَّيْلِ، وَقَالَ: (يُبَيِّنُونَ)؛ لِأَنَّ اللَّيْلَ أَكْثَمَ لِلْسَّرِّ؛ وَكُلُّ مَا دُبِّرَ فِيهِ، وَفُكِّرَ بِلَيْلٍ فَقَدْ بُيِّنَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (هَذَا أَمْرٌ بُيِّنَ بِلَيْلٍ).

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

وَعِيدٌ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ حَالِ تَبَيُّتِ الْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْلَمُ مَا يَبْتُونَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ سُبْحَانَهُ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَسَيَجْزِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَهُ.

١ - سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: الْآيَةُ / ٧

٢ - سُورَةُ يُوسُفَ: الْآيَةُ / ٦١



﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾.

أَيُّ: إذا خفي أمرٌ هَؤُلَاءِ عليكم في الدُّنْيَا بما احتالوا به من الحيلِ وبما قدموه من الحجج، فَمَنْ يدافع عنهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إذا حقت الحقائق، وابتليت السرائر، وانكشف المخفي في الضمائر؟

وَمَنْ الَّذِي يَتَوَكَّلُ هُمْ يَوْمَئِذٍ فِي دَعْوَاهُمْ بَعْدَ عِلْمِهِ بِكَذِبِهِمْ، وإطلاعه على خداعهم ومكرهم؟  
الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: طَبَاقُ السَّلْبِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾.

وَالْجِنَاسُ الْمُمَاثِلُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْتَحْفُونَ﴾، (وَلَا يَسْتَحْفُونَ).

وَالْجِنَاسُ الْمُعَايِرُ فِي: (يَحْتَانُونَ)، و (حَوَانًا).

وَالْكِنَايَةُ عَنِ الْمُبَالَغَةِ فِي الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾.

وَالسُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، الغرض منه الإِنْكَارُ.

وَالإِعْتِرَاضُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، للتنشيع عليهم، وبيان جهلهم بالله تعالى.

وَالإِضْرَابُ الْإِتِّقَالِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾.

والتنبيه في قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا (١١٠) وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١١٠، ١١١

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ، وَدُنْبًا، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسُّوءِ مَا يُسِيءُ الْإِنْسَانَ إِذَا نُسِبَ إِلَيْهِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالسُّوءِ الْقَبِيحِ الَّذِي يَسُوءُ بِهِ غَيْرُهُ، أَوْ يَظْلِمُ نَفْسَهُ بَارْتِكَابِ مَنْ يُوجِبُ لَهَا عِقَابَ اللَّهِ تَعَالَى.

وقيل: المراد بالسُّوءِ: الذنوب والمعاصي والمراد بظلم النفس الشرك والكفر.

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أَي: ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ الْمَغْفِرَةَ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ يَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ، وَهَذَا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ بِالْعِبَادِ أَنَّ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ تَابَ عَلَيْهِ، مَهْمَا عَمِلَ مِنَ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي، كَمَا ثَبَتَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»<sup>١</sup>.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَخْبَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِجَلْمِهِ وَعَفْوِهِ وَكَرَمِهِ، وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، فَمَنْ أَذْنَبَ صَغِيرًا كَانَ أَوْ كَبِيرًا، ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ، يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا، وَلَوْ كَانَتْ ذُنُوبُهُ أَغْظَمَ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ»<sup>٢</sup>.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ١٣٤٩٣، والترمذي - أبواب الدعوات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب،

حديث رقم: ٣٥٤٠، بسند صحيح

٢ - تفسير الطبري (٧/٤٧٦)



وهذا الستر والعتو والمغفرة مما تفضل الله تعالى به على هذه الأمة؛ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: " كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِذَا أَصَابَ أَحَدُهُمْ ذَنْبًا أَصْبَحَ قَدْ كُتِبَ كَفَّارَةٌ ذَلِكَ الذَّنْبِ عَلَى بَابِهِ، وَإِذَا أَصَابَ الْبَوْلُ شَيْئًا مِنْهُ قَرَضَهُ بِالْمِقْرَاضِ " ١.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ» ٢.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ إِذَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثًا نَفَعَنِي اللَّهُ بِمَا شَاءَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، وَإِذَا حَدَّثَنِي غَيْرُهُ اسْتَحْلَفْتُهُ، فَإِذَا حَلَفَ لِي صَدَّقْتُهُ، وَإِنَّهُ حَدَّثَنِي أَبُو بَكْرٍ، وَصَدَقَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَا مِنْ رَجُلٍ مُؤْمِنٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا، ثُمَّ يَقُومُ فَيَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ» ٣.

﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

الْكَسْبُ هُوَ كُلُّ مَا جَرَّ نَفْعًا، وَالْأَصْلُ أَنْ يَطْلُقَ الْكَسْبُ لِلطَّاعَاتِ، وَالْاِكْتِسَابُ لِلسَّيِّئَاتِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾. [البقرة: ٢٨٦]، وقد يذكر الكسب مع الآثام تهماً؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ٤.

١ - تفسير الطبري (٧/ ٤٧٦)

٢ - رواه مسلم - كتاب البرِّ والصَّلةِ والأَدَابِ، بَابُ تَحْرِيمِ الطُّلْمِ، حديث رقم: ٢٥٧٧

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٤٧، والترمذي - أبواب الصَّلَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ التَّوْبَةِ، حديث رقم: ٤٠٦، والنسائي في السنن الكبرى - كتاب عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، مَا يَفْعَلُ مَنْ بُلِيَ بِذَنْبٍ، وَمَا يَقُولُ، حديث رقم: ١٠١٧٥، بسند صحيح

٤ - سُورَةُ الرُّمِّ: الآيَةُ / ٤٨



وذكر الكسب مع الإثم هنا، لبيان سعة رحمة الله تعالى بالتائبين، وأنه لو تلذذ المذنب بالمعصية حتى كان يعدها كسبًا ثم تاب، تاب الله عليه.

وضمن الكسب معنى الجناية؛ أي: مَنْ اقترفَ إِثْمًا فَإِنَّ وَبَالَه عليه، وجنأته راجعة إليه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا بِمَا يَفْعَلُهُ الْعِبَادُ، حَكِيمًا فِي تَشْرِيْعِهِ وَأَحْكَامِهِ.

### الْأَسَالِبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: الترقى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾، فَإِنَّ ظَلَمَ النَّفْسِ أَعْظَمُ خَطْرًا مِنْ الشُّوْءِ، على القول بأن المراد بالسوء: الذنوب والمعاصي والمراد بظلم النفس الشرك والكفر.

والجناس المماثل في قوله تعالى: ﴿يَكْسِبُ﴾ و ﴿يَكْسِبُهُ﴾.

والتهكم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

والتضمين في قوله تعالى: ﴿يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾، ضمن يكسب معنى يجني، فيكون تقدير الكلام يَكْسِبُهُ جَانِيًا بِهِ عَلَى نَفْسِهِ.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (١١٢) وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ وَمَا يُضْلُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. سُورَةُ التَّسَاءِ: الآيَةُ/ ١١٢، ١١٣

ذَكَرَ الْخَطِيئَةَ وَالْإِثْمَ هُنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا مُتَعَايِرَانِ، وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَهُمَا فَقِيلَ: الْخَطِيئَةُ هِيَ الْمَعْصِيَةُ الصَّغِيرَةُ، وَالْإِثْمُ هُوَ الْمَعْصِيَةُ الْكَبِيرَةُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخُمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. [البقرة: ٢١٩]، وَقِيلَ: الْخَطِيئَةُ هِيَ الذَّنْبُ الْقَاصِرُ عَلَى فَاعِلِهَا؛ ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾. [الشعراء: ٨٢]، وَالْإِثْمُ هُوَ الذَّنْبُ الْمُتَعَدِّي إِلَى الْغَيْرِ. وَقِيلَ: الْخَطِيئَةُ تَكُونُ بِالْعَمْدِ وَبِغَيْرِ عَمْدٍ مُشْتَقَّةً مِنَ الْخَطَا الَّذِي هُوَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَالْإِثْمُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنْ عَمْدٍ، وَقِيلَ: هُمَا لَفْظَانِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، كُرِّرَا لِلْمُبَالَغَةِ.

وَالرَّمْيُ فِي الْأَصْلِ: نَبَذُ الشَّيْءِ. وَشَاعَ اسْتِعْمَالُهُ فِي نِسْبَةِ فِعْلٍ أَوْ وَصْفٍ إِلَى شَخْصٍ.

يُخْبِرُ اللهُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ اقْتَرَفَ خَطِيئَةً أَوْ ارْتَكَبَ إِثْمًا ثُمَّ رَمَى بِهِ بَرِيئًا وَنَسَبَ الذَّنْبَ إِلَيْهِ وَزَعَمَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي ارْتَكَبَهُ، لِيُزَيَّ نَفْسَهُ مِنْهُ، ﴿فَقَدِ احْتَمَلَ﴾ أَي: كَلَّفَ نَفْسَهُ حَمْلَ وَزْرٍ ذَلِكَ الْبُهْتَانِ بِإِفْتِرَائِهِ عَلَى هَذَا الْبَرِيِّ وَإِثْمِهِ إِثْمًا، ﴿بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ الْبُهْتَانُ أَنْ تَرْمِي أَخَاكَ بِأَمْرٍ مُنْكَرٍ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْهُ.

وَالآيَةُ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي بَنِي الْأُبَيْرِقِ حِينَ اتَّهَمُوا لَبِيدَ بْنَ سَهْلٍ، أَوْ زَيْدَ بْنَ السَّمِينِ الْيَهُودِيَّ بِالسَّرِقَةِ، فَهِيَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْعَبْرَةَ بَعْمومِ الْفِظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ﴾.

أَي: وَلَوْلَا أَنَّ اللهُ حَصَّكَ بِالْفَضْلِ وَهُوَ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ، وَبِالرَّحْمَةِ وَهِيَ النُّبُوَّةُ الَّتِي فِيهَا الْعِصْمَةُ هَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضْلُوكَ؛ أَي: يَجْعَلُونَكَ تَحِيدًا فِي الْحُكْمِ عَنِ الصَّوَابِ، وَذَلِكَ أَنَّ بَنِي الْأُبَيْرِقِ كَانُوا قَدْ عَرَفُوا أَنَّ طُعْمَةَ سَارِقٍ، ثُمَّ سَأَلُوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَدْفَعَ وَيُجَادِلَ عَنْهُ وَيُبْرِئَهُ عَنِ السَّرِقَةِ، وَيُنْسَبَ تِلْكَ السَّرِقَةَ إِلَى الْيَهُودِيِّ.



﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾.

أي: بسبب ما أقدموا عليه من البُهتانِ وشهادتهم بالزور وتعاونهم على الإثم والعُدوان، ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾، لِأَنَّكَ مَعْصُومٌ مِنَ الضَّلَالِ.

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

هذا كالتعليل لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾، أي: لأنَّ الله أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وهو القرآن، وَالْحِكْمَةَ وَهِيَ النُّبُوَّةُ التي من لوازمها الإصابة في الأقوال والأفعال، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾، من الشرائع والأحكام.

﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

بِمَا أَوْلَاكَ مِنْ إِحْسَانِهِ، وَمَا تَوَلَّاكَ مِنْ فَضْلِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَمَا حَبَاكَ بِهِ مِنَ الْعِصْمَةِ.

#### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الترقى في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾، على القول بأنَّ الخَطِيئَةَ هِيَ الْمَعْصِيَةُ الصَّغِيرَةُ، وَالْإِثْمُ هُوَ الْمَعْصِيَةُ الْكَبِيرَةُ.

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَرَمُ بِهِ بَرِيئًا﴾، حيثُ شَبَّهَ الخَطِيئَةَ وَالْإِثْمَ بالحجر الذي يرمى به، لما يحدثه هذا البُهتانُ من الأثر في البريء.

والتغليب في قوله تعالى: ﴿خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَمُ بِهِ﴾، غَلَبَ الإِثْمَ عَلَى الخَطِيئَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: ثُمَّ يَرَمُ بِأَحَدِهِمَا.

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾، حيثُ شَبَّهَ البُهْتَانَ وَالْإِثْمَ بالأحمال الثقيلة التي تنوء بالرجال الأشداء.

والتنكير في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾، للتعظيم، كَأَنَّهُ قَالَ: بُهْتَانًا وَأَيُّ بُهْتَانٍ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة النَّسَاءِ: الآية/ ١١٤

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هذه الآية متعلقة بما قبلها وهي إشارة إلى ما كانوا يتناجون به من الإثم العُدوانِ وهم يُبَيِّنُونَ ما لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ.

تَطْلُقُ النَّجْوَى ويرادُ بها السِّرُّ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ، يُقَالُ نَاجَيْتُ الرَّجُلَ مُنَاجَاةً؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣]، أي: وَأَسْرُوا الْمُنَاجَاةَ حُفِيَّةً فِيمَا بَيْنَهُمْ.

وَتَطْلُقُ النَّجْوَى ويرادُ بها الْقَوْمُ الَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَ؛ كَمَا يُقَالُ: قَوْمٌ عَدْلٌ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾. [الإسراء: ٤٧]، أي: يَنَاجِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

يذكرُ اللهُ تَعَالَى العليمُ بمكنونات النفوس أنه لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مما يَتَنَاجَى به النَّاسُ، ثم استثنى اللهُ تَعَالَى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾. أي: إِلَّا نَجْوَى مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ، أَوْ أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، وهو كل ما تستحسنه العقول ولا تستقبحه، وتعترف به ولا تنكره، روى الطبراني عن مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ حُنَيْسِ الْمَكِّيِّ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ نَعُوذُهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حَسَّانَ الْمَخْزُومِيُّ، فَقَالَ لَهُ سُفْيَانُ: أَعِدْ عَلَيَّ حَدِيثَ أُمِّ صَالِحٍ، فَقَالَ: حَدَّثْتَنِي أُمُّ صَالِحٍ، عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ شَيْبَةَ، عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كَلَامُ ابْنِ آدَمَ كُلُّهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ إِلَّا أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ، أَوْ ذِكْرًا لِلَّهِ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: مَا أَشَدَّ هَذَا الْحَدِيثَ، فَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: وَمَا شَدَّتْهُ أَلَيْسَ قَدْ جَاءَكُمْ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمَ



الْحَقُّ ﴿[النبا: ٣٩]، وَقَالَ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾<sup>١</sup>.

أَوْ أَمَرَ بِإِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَعَنْ أُمِّ كَلْبُومَ بِنْتِ عُقْبَةَ: أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا»<sup>٢</sup>.

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟» قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَفَسَادُ ذَاتِ الْبَيْنِ الْحَالِقَةُ»<sup>٣</sup>.

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: مَا حُطُوتُ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حُطُوتٍ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِعَاءً مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

أَي: وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ الْمَذْكُورَ أَنفًا يَنْتَعِي رِضَى اللَّهِ، وَيَحْتَسِبُ ثَوَابَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ ثَوَابًا جَزِيلًا.

١ - رواه الطبراني في الكبير - حديث رقم: ٤٨٤، وأبو يعلى في مسند - حديث رقم: ٧١٣٢، وابن الأعرابي في معجمه - حديث رقم: ٣٤٨، والبزاز في فوائده - حديث رقم: ، وعبد بن حميد - حديث رقم: ١٥٥٤، وابن السني في عمل اليوم والليلة - حديث رقم: ٥، والشهاب في مسنده - حديث رقم: ٣٠٥

٢ - رواه البخاري - كتاب الصلح، باب: لَيْسَ الْكَاذِبُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، حديث رقم: ٢٦٩٢، ومسلم - كتاب الرِّبِّ وَالصَّلَاةِ وَالْأَدَابِ، بابُ تَحْرِيمِ الْكُذْبِ وَبَيَانِ مَا يُبَاحُ مِنْهُ، حديث رقم: ٢٦٠٥

٣ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٧٨٠٥، وأبو داود - كتاب الأَدَبِ، بابُ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، حديث رقم: ٤٩١٩، والترمذي - أَبْوَابُ الرِّبِّ وَالصَّلَاةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بابُ مَا جَاءَ فِي إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، حديث رقم: ١٩٣٨، بسند صحيح



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. سورة النساء: الآية/ ١١٥

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

هَذِهِ الْآيَةُ لَهَا تَعَلُّقٌ بِمَا قَبْلَهَا وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا هَتَكَ سِتْرَ بَنِي الْأَبْيَرِيقِ وَبَرَّ الْيَهُودِيَّ مِنْ تُهْمَةِ السَّرِقَةِ ارْتَدَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ بِشِيرُ بْنُ أَبِي رِيقٍ، وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ وَنَقَبَ جِدَارَ إِنْسَانٍ لِأَجْلِ السَّرِقَةِ فَتَهَدَّمَ الْجِدَارُ عَلَيْهِ وَمَاتَ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَى عَنْ قَتَادَةَ بْنِ النُّعْمَانَ قَالَ: لَمَّا أَتَيْتُ عَمِّي بِالسَّلَاحِ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَشَا - أَوْ عَسَا - فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكُنْتُ أُرَى إِسْلَامَهُ مَدْحُولًا، فَلَمَّا أَتَيْتُهُ بِالسَّلَاحِ قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، هُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَعَرَفْتُ أَنَّ إِسْلَامَهُ كَانَ صَحِيحًا، فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ لِحَقِّ بُشَيْرٍ بِالْمُشْرِكِينَ، فَنَزَلَ عَلَى سُلَافَةَ بِنْتِ سَعْدِ ابْنِ سَمِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ \* إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، فَلَمَّا نَزَلَ عَلَى سُلَافَةَ رَمَاهَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ شِعْرِ، فَأَحَدَتْ رَحْلَهُ فَوَضَعَتْهُ عَلَى رَأْسِهَا ثُمَّ حَرَجَتْ بِهِ فَرَمَتْ بِهِ فِي الْأَبْطَحِ، ثُمَّ قَالَتْ: أَهْدَيْتَ لِي شِعْرَ حَسَانٍ؟ مَا كُنْتُ تَأْتِينِي بِخَيْرٍ.<sup>١</sup>

وَالْمُشَاقَّةُ: هِيَ الْمُخَالَفَةُ الْمَقْصُودَةُ، وَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الشَّقِّ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْخَصْمِينَ فِي شَقِّ غَيْرِ شَقِّ الْأَخْرِ، كَمَا هُوَ الْحَالُ فِي الْقِتَالِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ مَنْ تَعَمَّدَ مُخَالَفَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَسَلَكَ سَبِيلًا غَيْرَ الَّذِي جَاءَ بِهَا الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

١ - رواه الترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم:



يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ، وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ، وَسَلَكَ سَبِيلًا غَيْرَ الَّذِي أَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ ، فَصَارَ كَالْحَارِبِ لِدِينِ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ﴿تَوَلَّى مَا تَوَلَّى﴾ ، تَنَزَّكَهُ وَمَا يَعْبُدُ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾<sup>١</sup> .

﴿وَنُصِّلَهُ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ .

يَعْنِي نَزَّمَهُ جَهَنَّمَ ، وَأَصْلُهُ الصَّلَى وَهُوَ لُزُومُ النَّارِ وَقَتَ الْإِسْتِدْفَاءِ ، وَسَاءَتْ جَهَنَّمَ لِأَهْلِهَا الَّذِينَ صَارُوا إِلَيْهَا مَصِيرًا وَمَأْوَى .

اسْتَدَلَّ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَنَّ الْإِجْمَاعَ حُجَّةٌ تَحْرِمُ مُخَالَفَتَهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ لَذَلِكَ قِصَّةً ، وَاسْتَدْلَاهُ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ مِنْ أَحْسَنِ الْإِسْتِنْبَاطَاتِ وَأَقْوَاهَا ، كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ .

١ - سورة المائدة: الآية / ٤١



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ١١٦

تَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَتَقَدَّمَ تَفْسِيرُهَا، وَفِي تَكَرُّرِهَا فَائِدَتَانِ: الْأُولَى: التَّأَكِيدُ عَلَى عَفْوِ اللَّهِ وَمَغْفِرَتِهِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي طُعْمَةِ بْنِ الْأَبْيَرِ، أَوْ بُشَيْرٍ حِينَ لَحِقَ بِالْمُشْرِكِينَ وَارْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ وَأَشْرَكَ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَرْجَى آيَاتِ الْقُرْآنِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ؛ قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ: أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، قَالَ: مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.<sup>١</sup>

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي خَمْسِ آيَاتٍ مِنَ النَّسَاءِ: لَهُنَّ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا: ﴿إِنْ بَخْتَنَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفْرِقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.<sup>٢</sup>

قَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أَيُّ: فَقَدْ سَلَكَ طَرِيقًا غَيْرَ طَرِيقِ الْحَقِّ، وَنَأَى عَنِ الْهُدَى، وَبَعُدَ عَنِ الصَّوَابِ.

١ - رواه الترمذي - أبواب تفسیر القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم:

٣٠٣٧، بسند ضعيف

٢ - رواه ابن جرير (٦ / ٦٦٠)



## الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الطباق بين (لا يعفر)، و (يعفر).

وجناس الاشتقاق في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

والتكرار في: (يُشْرِكُ).

ووضع الظاهر موضع المضمرة في لفظ الجلالة من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾. لما في لفظ الجلالة من الهيبة.

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. حيث استعار البعد المحتص بالأزمنة والأمكنة للمعاني المحتصة بالقلوب لدوام القلوب عليها.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا ضِلَّتْهُمْ وَلَا مَنِيَّتْهُمْ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلَيَبْتَئِكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتْهُمْ فَلْيَعْبِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠) أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ/ ١١٧ - ١٢١

يخبر الله تعالى عن سفاهة عقول المشركين أنهم اتخذوا أصنامًا فجعلوها إناثًا، يعنى اللات والعزى، وإساف، ونائلة، ومناة؛ كما قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾<sup>١</sup>.

﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمعنى (ما)، أي: ما يدعون من دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَصْنَامًا مِنَ الْإِنَاثِ جَعَلُوهَا آهَةً ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، وَيَسْمُوْنَهُمْ بِأَسْمَاءِ الْإِنَاثِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونُ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾<sup>٢</sup>.  
﴿وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا﴾.

أي: وما يدعون في حقيقة الأمر إِلَّا شَيْطَانًا متمرِّدًا، وَالْمَرِيدُ هُوَ الْمُبَالِغُ فِي الْعِصْيَانِ الْبَعِيدِ غَايَةَ الْبَعْدِ عَنِ الطَّاعَةِ؛ قِيلَ: الْمُرَادُ بِالشَّيْطَانِ هُنَا إِبْلِيسُ وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ، وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ الْمَعِينُ بِكُلِّ صَنَمٍ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ تِلْكَ أَصْنَامِ شَيْطَانٍ يَسْكُنُهَا، عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ، قَالَ: لَمَّا فَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ بَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى نَخْلَةٍ، وَكَانَتْ بِهَا الْعُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، وَكَانَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَمَرَاتٍ، فَقَطَعَ السَّمَرَاتِ، وَهَدَمَ الْبَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْهَا، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فَارْجَعَ خَالِدٌ، فَلَمَّا بَصُرَتْ بِهِ السَّدَنَةُ وَهُمْ حَجَبَتْهَا، أَمَعُوا فِي الْجَبَلِ، وَهُمْ يَقُولُونَ: يَا عُزَّى يَا عُزَّى، فَأَتَاهَا خَالِدٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ عُرْيَانَةٌ، نَاشِرَةٌ شَعْرَهَا، تَحْتَفِنُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهَا،

١ - سُورَةُ النَّجْمِ: الْآيَةُ/ ١٩ - ٢١

٢ - سُورَةُ النَّجْمِ: الْآيَةُ/ ٢٧



فَعَمَّمَهَا بِالسَّيْفِ حَتَّى قَتَلَهَا، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «تِلْكَ الْعُرَى»<sup>١</sup>.

﴿لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَ لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾.

أي: حقت عليه لعنة الله، وطرده الله تعالى من رحمته، ثم أخبر الله تعالى عن ذلك الشيطان المرید وهو إبليس أنه قال لله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾، أي: لا اقتطعَنَّ لِنَفْسِي مِنْ عِبَادِكَ قَدْرًا مَعِينًا، نَصِيبًا مَحْدَدًا اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِعَوَائِي، وَأَخْصُهُمْ بِإِضْلَالِي، يَعْنِي: الْكُفْرَةَ وَالْعُصَاةَ، وَنَصِيبُ إِبْلِيسَ هُمْ بَعَثَ النَّارِ، مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «أَبْشُرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِيَّيَّيْ لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبْعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمَدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِيَّيْ لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ» فَحَمَدْنَا اللَّهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِيَّيْ لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقَمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ»<sup>٢</sup>.

١ - رواه النسائي في السنن الكبرى - كتاب التفسير، سورة النجم، قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ [النجم:

١٩]، حديث رقم: ١١٤٨٣

٢ - رواه البخاري - كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، حديث رقم:

٦٥٣٠، ومسلم - باب قوله يقول الله لإدم أخرج بعت النار من كل ألف تسمائة وتسعة وتسعين، حديث رقم: ٢٢٢



﴿وَلَا ضَلَلْنَهُمْ﴾.

يخبرُ اللهُ تعالى عن الشيطانِ الرجيمِ، وعن جرأته على اللهِ تَعَالَى وأنه أقسم بالله تعالى على إغواء بني آدم، بقوله: ﴿وَلَا ضَلَلْنَهُمْ﴾، أي: لَأَصْرِفَنَّهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَايَةِ، وَلَا سُلْكَنَ بِهِمْ سُبُلَ الْغَوَايَةِ، وَاللَّامُ هُنَا لَامُ الْقَسَمِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾<sup>١</sup>.

﴿وَلَا مَيَّنَّاهُمْ﴾.

أي: أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الْأَمَانِيَّ الْكَاذِبَةَ، فَيَمَيَّنِي كُلَّ إِنْسَانٍ بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْهُمْ مَنْ يُمَيِّنِيهِ بِطُولِ الْعُمُرِ؛ فَيَسُوِّفُ التَّوْبَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُمَيِّنِيهِ بِبُلُوغِ الْأَمَالِ، وَحُصُولِ السَّعَادَةِ بِمَعَاقِرَةِ الشَّهَوَاتِ.

﴿وَلَا مَرَّتْنَهُمْ فَلْيَبْتَكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: وَلَا مَرَّتْنَهُمْ فَلْيَقْطَعْ آذَانَ الْأَنْعَامِ، أي: قَطَّعْ أُذُنَ الْبَحِيرَةِ لِيُعْلَمَ أَنَّهَا بَحِيرَةٌ، كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ الْعَرَبُ بِالْبَحَائِرِ وَالسَّوَائِبِ، لِيُحَرِّمُوا مَا أَحَلَّ اللهُ، وَالْبَتْنُ: الْقَطْعُ، وَكَلِمَةُ أَوْلَاهَا بَاءٌ وَثَانِيهَا تَاءٌ تَدُلُّ عَلَى الْقَطْعِ، كَالْبَتِّ، وَالْبَتْرِ، وَالْبَتْلِ.

﴿وَلَا مَرَّتْنَهُمْ فَلْيَعْيِرَنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾.

وقد حدث في زماننا هذا من بني الإنسان، من الاستجابة للشيطان في تغيير خلق الله، ما لم يعهد مثله في عصر من العصور، من النمص، والوصل، والوشم، والوشر، وتفليج الأسنان، وتكبير أعضاء، وتصغير أخرى، وبلغ الأمر ببعضهم إلى تحويل الجنس، من أنثى إلى ذكرٍ ومن ذكرٍ إلى أنثى، مما يعتصر له القلب أسىً وحسرةً على من يفعل ذلك من المسلمين، وعلى جرأتهم لى محارم الله تعالى، ولما كان غالب من يفعل ذلك من النساء خصهن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بالذكر؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لَعَنَ اللهُ الْوَائِمَاتِ وَالْمَسْتَوْثِمَاتِ،

١ - سُورَةُ ص: الْآيَةُ / ٨٢، ٨٣



وَالْمُتَمَنِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ، الْمُعَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ» مَا لِي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ.<sup>١</sup>

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «لَعَنَ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ».<sup>٢</sup>

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ».<sup>٣</sup>

﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾.

أي: وَمَنْ يُطِيعِ الشَّيْطَانَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا بَيِّنًا؛ لِأَنَّهُ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَالطَّاعَةَ مِنْ صُورِ الْمَوَالِةِ.

﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّنُهُمْ﴾.

أي: يُعِدُّ الشَّيْطَانُ أَوْلِيَاءَهُ النَّصْرَ عَلَى أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَالتَّمَكِينَ فِي الدُّنْيَا، وَيُمَيِّنُهُم بِالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِ اللَّهِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ عَذَابِهِ، وَأَنَّهُ لَا بَعَثَ وَلَا نَشُورَ.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ: الْغُرُورُ مَا رَأَيْتَ لَهُ ظَاهِرًا تُحِبُّهُ، وَفِيهِ بَاطِنٌ مَكْرُوهٌ أَوْ مَجْهُولٌ.

١ - رواه البخاري- كِتَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ، بَابُ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، حديث رقم: ٤٨٨٦، ومسلم- كِتَابُ اللِّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ فِعْلِ الْوَاصِلَةِ وَالْمُسْتَوْصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ وَالْمُسْتَوْشِمَةِ وَالنَّامِصَةِ وَالْمُتَمَنِّصَةِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ وَالْمُعَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ، حديث رقم: ٢١٢٥

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ اللِّبَاسِ، بَابُ الْوَصْلِ فِي الشَّعْرِ، وَالْوَاشِمَةَ وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، حديث رقم: ٥٩٣٣، ومسلم- كِتَابُ اللِّبَاسِ وَالزَّيْنَةِ، بَابُ تَحْرِيمِ فِعْلِ الْوَاصِلَةِ وَالْمُسْتَوْصِلَةِ وَالْوَاشِمَةِ وَالْمُسْتَوْشِمَةِ وَالنَّامِصَةِ وَالْمُتَمَنِّصَةِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ وَالْمُعَيَّرَاتِ خَلَقَ اللَّهُ، حديث رقم: ٢١٢٤

٣ - رواه البخاري- كِتَابُ اللِّبَاسِ، بَابُ: الْمُتَشَبِّهُونَ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتُ بِالرِّجَالِ، حديث رقم: ٥٨٨٥



أي: مَا يَعِدُ الشَّيْطَانُ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلَ وَالثُّرَهَاتِ، حَدِيثَةً لَهُمْ وَمَكْرًا بِهِمْ، وَلَقَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْغُرُورِ؛ لِأَنَّهُ يُصَوِّرُ لَهُمُ الضَّرَّ فِي صُورَةِ النَّافِعِ، ثُمَّ تَتَكَشَّفُ لَهُمُ الْحَقَائِقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حِينَ يَقُومُ الشَّيْطَانُ حَاطِبًا فِي أَوْلِيَاءِهِ؛ مَعْلَنًا بِرَأْيِهِ مِنْهُمْ؛ لِيَزِيدَهُمْ حَسْرَةً وَأَسَى؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾<sup>١</sup>.

﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾.

أي: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَفَرَحُوا بِوَعْدِهِ الْبَاطِلَةِ وَأَمَانِيهِ الْكَاذِبَةِ، مَصِيرُهُمُ الَّذِي يَصِيرُونَ إِلَيْهِ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ.

﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

أي: وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَقَرًّا يَفْرُونَ إِلَيْهِ، وَلَا مَلْجَأً وَلَا يَلْجِئُونَ إِلَيْهِ، وَالْمَحِيصُ: النَّفْرَةُ وَالْمَقَرُّ، مِنْ حَاصٍ إِذَا نَفَرَ وَفَرَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦]، أَي: هَلْ مِنْ مَقَرٍّ؟

وَفِي الْحَدِيثِ: «فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ»<sup>٢</sup>. [أي: نفروا نفرتها].

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآيات: اعتراض الغرض منه الاحتراس في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؛ لأنهم كانوا يعبدون الله تعالى ويعبدون معه غيره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾<sup>٣</sup>.

١ - سُورَةُ إِبرَاهِيمَ: الآيَةُ / ٢٢

٢ - رواه البخاري - كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ حديث رقم: ٧، ومسلم - كِتَابُ الْجِهَادِ وَالْبَيْتِ، بَابُ كِتَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرْقَلٍ يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ، حديث رقم: ١٧٧٣

٣ - سُورَةُ يُوسُفَ: الآيَةُ / ١٠٦



والتكرار في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَدْعُونَ﴾، و ﴿وَإِنْ يَدْعُونَ﴾.

الجناسُ الْمُعَايِرُ في قوله تعالى: ﴿حَسِرَ حُسْرَانًا﴾.

والاعتراضُ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾. سورة النساء: الآية/ ١٢٢

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

لما ذكر الله تعالى أولياء الشيطان وما لهم في الآخرة من العذاب المقيم، الذي لا يجدون عنه محيصًا، ناسب أن يذكر حال أهل الإيمان على عادة القرآن في ذكر ثواب المؤمنين، بعد ذكر عقاب الكافرين.

يخبر الله تعالى عما أعدده للمؤمنين من الأجر والمنوبة يوم القيامة فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، في مقابل قوله عن أولياء الشيطان: ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، في مقابل قوله عن أولياء الشيطان: ﴿أُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

أي: لا يزول عنهم النعيم بانقطاع، ولا يموتون فيفارقون ذلك النعيم في تلك الجنات، وذكر الخلود في ما قبل في قوله تعالى عن أولياء الشيطان: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾.

وذكر الخلود مع التأييد دليل على أهميتهما متعازيان، ولو كان الخلود عبارة عن التأييد للزم التكرار فالخلود عبارة عن طول المكث، والتأييد عدم الانقطاع.

﴿وَعَدَّ اللهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا﴾.

أي: وعد الله أهل الإيمان بالنعيم المقيم في الجنة، والله تعالى لا يخلف الميعاد؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، وكما قال تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾ [المزمل: ١٨] أي: كائنًا لا محالة، ولما كان وعد الله تعالى لا يتخلف أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر، وهو قوله: ﴿حَقًّا﴾.

والوعد ضرب من القول، ولا وعد أحق من وعده، فلا قول أصدق من قوله؛ لأنه هو القادر على أن يعطي كل ما وعد به، والشيطان كاذب في وعده عاجز عن الوفاء به، وذكر الله



تعالى ذلك في مقابل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فَوَعْدُهُ الشَّيْطَانِ بَاطِلٌ وَأَمَانِيهِ غُرُورٌ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: التأكيد بالمصدر في قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

والسؤال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، والغرض منه التقرير.

والتذييل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾، للمبالغة في التأكيد، ومعارضة مواعيد الشيطان الكاذبة لأوليائه بوعده الله تعالى الصادق لأوليائه.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ١٢٣، ١٢٤

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الطَّبْرِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: تَحَاكَمَ أَهْلُ الْأَدْيَانِ، فَقَالَ أَهْلُ التَّوْرَةِ: كِتَابُنَا خَيْرٌ مِنَ الْكُتُبِ، أَنْزَلَ قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَبِيُّنَا خَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ. وَقَالَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ مِثْلَ ذَلِكَ. وَقَالَ أَهْلُ الْإِسْلَامِ: لَا دِينَ إِلَّا الْإِسْلَامُ، كِتَابُنَا نَسَخَ كُلَّ كِتَابٍ، وَنَبِيُّنَا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ، وَأَمْرُنَا وَأَمْرُنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِكِتَابِكُمْ، وَنَعْمَلْ بِكِتَابِنَا. فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، وَخَيْرَ بَيْنِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ فَقَالَ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾.<sup>١</sup>

وَعَنْ قَتَادَةَ وَمَسْرُوقٍ، قَالَا: أَنَّ الْمُسْلِمِينَ، وَأَهْلَ الْكِتَابِ افْتَحَرُوا، فَقَالَ أَهْلُ الْكِتَابِ: نَبِيُّنَا قَبْلَ نَبِيِّكُمْ، وَكِتَابُنَا قَبْلَ كِتَابِكُمْ، وَنَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ. وَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: نَحْنُ أَوْلَى بِاللَّهِ مِنْكُمْ، نَبِيُّنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَكِتَابُنَا يَقْضِي عَلَى الْكُتُبِ الَّتِي كَانَتْ قَبْلَهُ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾، فَأَفْلَحَ اللَّهُ حُجَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ".<sup>٢</sup>

وَعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: قَالَتِ الْعَرَبُ: لَنْ نُبَعَثَ وَلَنْ نُعَذَّبَ؛ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١١١]، أَوْ قَالُوا ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠].<sup>٣</sup>

١ - تفسير الطبري (٧ / ٥١٠)

٢ - تفسير الطبري (٧ / ٥٠٨)

٣ - تفسير الطبري (٧ / ٥١٢)



واختار ابن جرير قول مُجَاهِدٍ وَقَالَ: ذَلِكَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ ، لِأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَجْرِ لِأَمَانِيهِمْ ذِكْرٌ فِيمَا مَضَى مِنَ الْآيِ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ وَإِنَّمَا جَرَى ذِكْرُ أَمَانِي نَصِيبِ الشَّيْطَانِ الْمَفْرُوضِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا مَنِيَّتَهُمْ وَلَا مَرْتَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩] وَقَوْلُهُ: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمْنِيهِمْ﴾ [النساء: ١٢٠] فَالْحَاقُ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ بِمَا قَدْ جَرَى ذِكْرُهُ قَبْلُ أَحَقُّ وَأَوْلَى مِنَ ادِّعَاءِ تَأْوِيلٍ فِيهِ، لَا دَلَالَةَ عَلَيْهِ مِنْ ظَاهِرِ التَّنْزِيلِ، وَلَا أَثَرَ عَنِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا إِجْمَاعٍ مِنْ أَهْلِ التَّأْوِيلِ.<sup>١</sup>

الْأَمَانِيُّ جَمْعُ أَمْنِيَّةٍ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الرَّغْبَةِ فِي شَيْءٍ يَقْدِرُهُ الْمَرْءُ فِي نَفْسِهِ؛ قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: التَّمَنِّي تَشَهِّي حُصُولِ الْأَمْرِ الْمَرْغُوبِ فِيهِ.

أَي: لَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِالتَّشَهِّي وَالرَّغْبَةِ، إِنَّمَا يَنَالُ ثَوَابَهُ بِالْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛ قَالَ الرَّحْشَرِيُّ: أَي: لَيْسَ يُنَالُ مَا وَعَدَ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ.

عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلَا بِالتَّحَلِّي، لَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْفِعْلُ".<sup>٢</sup>

وَعَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَيْرِ اللَّيْثِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: «لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ يُعْمَلُ، وَعَمَلٌ يُعْمَلُ».<sup>٣</sup>

وَقَالَ الْحَسَنُ: لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ. إِنَّ قَوْمًا أَهْتَهُمْ أَمَانِي الْمَغْفِرَةِ حَتَّى حَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ، وَقَالُوا: نُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ، وَكَذَبُوا لَوْ أَحْسَنُوا الظَّنَّ بِهِ لَأَحْسَنُوا الْعَمَلَ.

١ - تفسير الطبري (٧/ ٥١٤)

٢ - رواه ابن بشران في أماليه - حديث رقم: ١٢٢٤

٣ - رواه الخلال في السنة - رقم: ١٢١٢



﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

هذا من مقتضى عدل الله تعالى أن مَنْ عَمِلَ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وهي عامةٌ للناس جميعاً، الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ يجازى كل واحدٍ بِعَمَلِهِ السَّيِّئِ، فيجازى الْكَافِرُ بِالنَّارِ لِكُفْرِهِ، وَيَجازى الْمُؤْمِنُ بِالمصائبِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا أَنْ يَتُوبَ؛ فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾. فَكُلُّ سُوءٍ عَمَلْنَاهُ جُزِينَا بِهِ قَالَ: «عَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ»، قَالَهُ ثَلَاثًا، «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ، أَلَسْتَ تَحْزَنُ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ، أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَهُوَ مَا تُحْزَنُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا»<sup>١</sup>.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَدَى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُّهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»<sup>٢</sup>.

وفي الكلام تقديم وتأخير وتقديره: مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ، وَلَيْسَ مرجع الأمرِ إِلَى أَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ.

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

وَلَا يَجِدْ لَهُ مَنْ يَتَوَلَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا مَنْ يَنْصُرُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا نَزَلَ بِهِ.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٦٩، والحاكم - كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم، حديث رقم: ٤٤٥٠، وابن حبان - كتاب الجنائز وما يتعلق بها مقدماً أو مؤخراً، ذكر البيان بأن الله قد يجازي من شاء من عباده على سيئاته في الدنيا ليكون ذلك تطهيراً عنها، باب ما جاء في الصبر وثواب الأمراض والأعراض، حديث رقم: ٢٩١٠، بسند صحيح  
٢ - رواه البخاري - كتاب المرضى، باب ما جاء في كفارة المريض، حديث رقم: ٥٦٤١، ومسلم - كتاب البر والصلة والآداب، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض، أو حزن، أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها، حديث رقم: ٥٢٧٣



لَمَّا ذَكَرَ الْجَزَاءَ عَلَى السَّيِّئَاتِ، ذَكَرَ بَعْدَهُ الْجَزَاءَ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنَ الْعِبَادِ جَمِيعًا ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَائِهِمْ، وَمَا كَانَ قَبُولُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مُتَوَقَّفًا عَلَى شَرْطِ الْإِيمَانِ ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا، فَقَالَ: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. أَي حَالُ كَوْنِهِ مُؤْمِنًا، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى وَعْدَهُ لَهُمْ بِالْفَوْزِ بِالنَّعِيمِ الْمَقِيمِ فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَامِ عَدْلِهِ وَأَنَّهُ وَلَا يَظْلِمُهُمْ مِنْ حَسَنَاتِهِمْ شَيْئًا، وَلَوْ بِقَدْرِ النَّفِيرِ، وَهُوَ: النَّفْرَةُ الَّتِي فِي ظَهْرِ نَوَاةِ التَّمْرَةِ.

### الْأَسَالِبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: التَّقْدِيمُ وَالتَّأخِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾.

وَالتَّكْرَارُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي﴾.

وَالطَّبَاقُ الْمَعْنَوِيُّ فِي: (سُوءًا)، وَ (الصَّالِحَاتِ).

وَالتَّرْقِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، فَقَدْ تَكُونُ الْوَلَايَةُ بِالْحُبَّةِ فَقَطْ، فَإِذَا ارْتَقَتْ صَارَتْ إِى النُّصْرَةِ.

وَالتَّعْمِيمُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾، فَالْعِبْرَةُ بِالْعَمَلِ لَا بِجِنْسِ الْعَامِلِ.

وَالاحْتِرَاسُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، فَلَيْسَ لغيرِ الْمُؤْمِنِ نَصِيبٌ فِي جَنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى مَهْمَا عَمِلَ مِنَ الصَّالِحَاتِ.

وَالتَّخْصِصُ بِتَقْدِيمِ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، أَي: وَلَا يَدْخُلُهَا غَيْرُهُمْ.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٢٥

هَذَا قَضَاءُ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ الْإِسْلَامَ خَيْرُ دِينٍ، وَأَنَّ أَهْلَهُ أَحْسَنُ الْبَرِيَّةِ اعْتِقَادًا، وَلَمْ لَا؟ وَهُوَ الدِّينُ الَّذِي ارْتَضَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَنْبِيَائِهِ وَرَسَلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ سِوَاهُ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾<sup>١</sup>.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ رَدُّ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا أَنَّ لَهُمْ مَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ مَا لَيْسَ لغيرِهِمْ، مَعَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الْعِتْقَادِ، وَفَسَادِ الْأَعْمَالِ، فَدَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى تَوَهُمَهُمْ وَأَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ بِالْأَمَانِيِّ، بَلْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْفَضْلِ وَالثَّوَابِ، أَحْسَنُهُمْ دِينًا، وَأَسْلَمُهُمْ اعْتِقَادًا، الَّذِينَ أَسْلَمُوا وَجُوهَهُمْ لِلَّهِ حَالِ كَوْنِهِمْ مُحْسِنِينَ قَدْ نَبَذُوا الشَّرْكَ، فَحَسَّنَ اعْتِقَادَهُمْ فِي رِجْمِهِمْ، وَأَخْلَصُوا الْعَمَلَ لَهُ فَحَسَّنَتْ أَعْمَالَهُمْ، وَاسْتَقَامُوا عَلَى مَا جَاءَتْهُمْ بِهِ رِسَالُ رَبِّهِمْ فَحَسَّنَتْ عِبَادَتَهُمْ، وَاتَّبَعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ فَدَانُوا بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ خَيْرَ الْمَلَلِ.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾.

تَقْدِمُ أَنَّ الدِّينَ يُطْلَقُ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَيُرَادُ بِهِ عِدَّةٌ مَعَانَ مِنْهَا مَطْلُوقُ الْعِتْقَادِ وَهُوَ الْمُرَادُ هُنَا، وَالْمَعْنَى: لَا أَحْسَنَ اعْتِقَادًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ تَعَالَى.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا الدِّينَ وَالْإِسْلَامَ وَالْمِلَّةَ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الثَّلَاثَةِ فُرُوقٌ، وَلَا يَصِحُّ الْقَوْلُ بِأَنَّهَا جَمِيعًا بِمَعْنَى وَاحِدٍ فَإِنَّهُ لَا تَرَادُفَ فِي الْقُرْآنِ، فَالِدِّينِ كَمَا قَدَّمْنَا هُنَا مَطْلُوقُ الْعِتْقَادِ، وَالْمِلَّةُ: جَمَلَةُ الشَّرِيعَةِ فَهِيَ أَعْمُ مِنَ الدِّينِ، وَالْإِسْلَامُ: هُوَ الْاسْتِسْلَامُ لِلَّهِ وَالْإِنْقِيَادُ لَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَهُوَ أَخْصُ مِنَ الدِّينِ وَمِنَ الْمِلَّةِ.

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ٨٥



قال أبو هلال العسكري: الفرق بين الدين والملة: أن الملة اسم لجملة الشريعة والدين اسم لما عليه كل واحد من أهلها ألا ترى أنه يُقال فلان حسن الدين ولا يُقال حسن الملة وإنما يُقال هو من أهل الملة.<sup>١</sup>

وإسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والإعتراف بالعبودية، وهو أحسن الكنايات، لأن الوجه أشرف الأعضاء.<sup>٢</sup>

وذكر الوجه هنا من باب ذكر البعض وإرادة الكل؛ أي: أسلم نفسه لله.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، حال المقصود منها أنه أحسن الاعتقاد، فلم يشرك بالله شيئاً، وأحسن العمل، بالاتباع وترك الابتداع.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾.

أي: واتبع شريعة إبراهيم عليه السلام، حال كونه مائلاً عن الشرك وعن الأديان كلها سوى الإسلام، والحنيف: المائل عن الشرك.

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ حَلِيلًا﴾.

الحلّة أعلى درجات المحبة، قال ثعلب: إنما سمي الحليل حليلاً لأن محبته تتخلل القلب، فلا تدع فيه خللاً إلا ملائته، وأنشد قول بشار:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسَلَكَ الرُّوحِ مَيِّ

\*\*\*\*\*  
وَبِهِ سُمِّيَ الْحَلِيلُ حَلِيلًا

١ - الفروق اللغوية (ص: ٢٢٠)

٢ - التحرير والتنوير (٥/ ٢١٠)



عَنْ جُنْدَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ، وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ»<sup>١</sup>.

وَإِنَّمَا اتَّخَذَ اللَّهُ تَعَالَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا لِامْتِنَانِهِ لِأَمْرِهِ وَحُسْنِ طَاعَتِهِ وَمُسَارَعَتِهِ فِي مَرْضَاتِهِ، لَا لِحَاجَتِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَيْهِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

اللام في لفظ الجلالة: ﴿لِلَّهِ﴾. للملك؛ أي: جميع ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ملكٌ لله تعالى، وخلقهُ، وأمرهُ فيهم نافذٌ، لا رادٌّ لأمره، ولا مُعَقَّبٌ لحكمه.

وتقديم الجار والمجرور ليفيد الاختصاص، فلا يملك أحدٌ من الخلق على الحقيقة شيئاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾.

أي: أحاط علماً بكلِّ شَيْءٍ، لا تخفى عليه خافيةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾<sup>٣</sup>.

١ - رواه مسلم- كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنِ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ، عَلَى الْقُبُورِ وَاتِّخَاذِ الصُّورِ فِيهَا وَالنَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٥٣٢

٢ - سورة الزمر: الآية/ ٦٢

٣ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الآية/ ٥



## الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: السؤال في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾. للتقرير والتوكيد؛ أي: لا أحسن دينا ممن هذا حاله.

الاستعارة في قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، استعار الوجه للقصد والجهة؛ أي: جعل قصده لله.

والتخصيص في قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾؛ خصَّ الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء.

والكناية في قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾، فإنَّ إسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والإعتراف بالعبودية، وهو أحسن الكِنَايَاتِ، لأنَّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنساناً.

قوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، جملة معترضة لبيان الحال.

والجناس المغاير في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ﴾، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

والإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾، وأصل الكلام واتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلًا.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآيَةُ/ ١٢٧

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنِ الرَّهْرِيِّ، قَالَ: كَانَ عُرْوَةُ بْنُ الرَّبِيعِ، يُحَدِّثُ أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، قَالَتْ: هِيَ الْيَتِيمَةُ فِي حَجْرٍ وَلَيْيَهَا، فَيَرْعَبُ فِي جَمَاهَا وَمَالِهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَتَزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَتُحْرَجُ عَنْ نِكَاحِهَا، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهُنَّ فِي إِكْمَالِ الصَّدَاقِ، وَأَمْرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: ثُمَّ اسْتَفْتَى النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، قَالَتْ: "فَبَيَّنَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْيَتِيمَةَ إِذَا كَانَتْ ذَاتَ جَمَالٍ، وَمَالٍ رَغِبُوا فِي نِكَاحِهَا، وَلَمْ يُلْحِقُوا بِسُنَّتِهَا بِإِكْمَالِ الصَّدَاقِ، فَإِذَا كَانَتْ مَرْغُوبَةً عَنْهَا فِي قِلَّةِ الْمَالِ وَالْجَمَالِ تَرَكُواهَا وَالتَّمَسُّوا غَيْرَهَا مِنَ النِّسَاءِ"، قَالَ: فَكَمَا يَتْرَكُونَهَا حِينَ يَرْغَبُونَ عَنْهَا، فَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْكِحُوا إِذَا رَغِبُوا فِيهَا، إِلَّا أَنْ يُقْسِطُوا لَهَا الْأَوْفَى مِنَ الصَّدَاقِ وَيُعْطُوهَا حَقَّهَا.<sup>١</sup>

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

من خصائص القرآن العجيبة، ومن نسقه الفريد، ذكر الأحكام التَّكْلِيفِيَّةِ، ثُمَّ التَّرْغِيبِ فِي امْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَالتَّرْهِيْبِ مِنَ الْمَخَالَفَةِ، ثُمَّ التَّعْقِيبِ بِالْوَعْدِ لِلْمَطِيعِينَ، وَالْوَعِيدِ لِلْعَصَاةِ الْمُخَالَفِينَ، ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي تُدُلُّ عَلَى كَمَالِ عِلْمِهِ، وَحِكْمَتِهِ، وَعَظِيمِ جَلَالِهِ وَكِبْرِيائِهِ، ثُمَّ الْعَوْدَةَ لِبَيَانِ الْأَحْكَامِ التَّكْلِيفِيَّةِ لِتُنْقَادِ النُّفُوسِ لِلشَّرْعِ، وَتَمْتَلَأَ الْقُلُوبُ مِنْ

١ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ الْوَصَايَا، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ، وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَيْبَ بِالطَّيِّبِ، وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا، وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣]، حَدِيثِ رَقْمٍ: ٢٧٦٣



هَيْبَةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَوْ وَقَعَتْ الْأَحْكَامُ سَرْدًا مُتَابِعًا لِنَفَرَتِ النُّفُوسُ، وَاسْتَثْقَلَتْ تِلْكَ الْأَحْكَامُ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾. فِي الْكَلَامِ حَذْفُ إِجْزَازِ تَقْدِيرِهِ: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي أَحْكَامِ النِّسَاءِ، فَإِنَّ الْإِسْتِفْتَاءَ لَمْ يَكُنْ عَنِ الدَّوَاتِ.

وَإِلْسْتِفْتَاءُ طَلَبُ الْفَتْوَى، وَمَعْنَاهَا تَبْيِينُ الْمَشْكِلِ وَإِضَاحُهُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى عَلَى لِسَانِ سَاقِي الْمَلِكِ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾. [يُوسُفُ: ٤٦]، يَعْنِي: بَيْنَ لَنَا، وَكَاشَفَ لَنَا مَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا.

﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾.

وَالْيَتَامَى جَمْعُ يَتِيمَةٍ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قِيلَ أَيَامَى وَالْأَصْلُ أَيَائِمٌ وَيَتَائِمٌ، وَأَمَّا أَيَتَامُ فَجَمْعُ يَتِيمٍ.

وَإِلْإِضَافَةُ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ هِيَ إِضَافَةُ الشَّيْءِ إِلَى جِنْسِهِ؛ أَي: بِالْيَتَامَى النِّسَاءِ.

أَي: اللَّهُ تَعَالَى يُبَيِّنُ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ عَنْهُ مِنْ أَحْكَامِ النِّسَاءِ، وَالْقُرْآنُ الَّذِي يُتْلَى عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرْغَبُونَ عَنِ الْفَقِيرَةِ الدَّمِيمَةِ، وَيَرْغَبُونَ فِي ذَاتِ الْمَالِ الْجَمِيلَةِ؛ كَمَا قَالَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: هِيَ الْيَتِيمَةُ فِي حَجَرٍ وَلَيْهَا، فَيَرْغَبُ فِي جَمَاهَا وَمَاهَا، وَيُرِيدُ أَنْ يَنْزَوَّجَهَا بِأَدْنَى مِنْ سُنَّةِ نِسَائِهَا، فَهِيَ عَنْ نِكَاحِهَا، إِلَّا أَنْ يُفْسِطُوا هُنَّ فِي إِكْمَالِ الصِّدَاقِ، وَأَمَرُوا بِنِكَاحِ مَنْ سِوَاهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٌ: وَيُرْغَبُ فِي نِكَاحِهَا إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةَ الْمَالِ.

﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾.

مَعْطُوفٌ عَلَى يَتَامَى النِّسَاءِ؛ أَي: وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ يُفْتِيكُمْ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ وَفِي الْمُسْتَضْعَفِينَ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَا يُورِثُونَ الصِّغَارَ وَلَا النِّسَاءَ، فَهِيَ اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَأَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ مِنَ الْمِيرَاثِ.



﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلَّيْتَامَى بِالْقِسْطِ﴾.

مَعْطُوفٌ عَلَى مَا سَبَقَ؛ أَي: وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ يُفْتِيكُمْ أَنْ تَقُومُوا لِلَّيْتَامَى بِالْقِسْطِ، وَهُوَ الْعَدْلُ.

وَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَنْصُوبًا بِمَعْنَى وَيَأْمُرُكُمْ أَنْ تَقُومُوا. وَهُوَ خِطَابٌ لِلْأَيِّمَةِ فِي أَنْ يَنْظُرُوا لَهُمْ، وَيَسْتَوْفُوا لَهُمْ حُقُوقَهُمْ.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾.

أَي: وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ بَرٍّ وَإِحْسَانٍ فَإِنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَسَيَجَازِيكُمْ بِهِ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

من الأساليب البلاغية في الآية: حذف إيجاز في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾. وتقدير الكلام: وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي أَحْكَامِ النِّسَاءِ، فَإِنَّ الاسْتِفْتَاءَ لَمْ يَكُنْ عَنِ الدَّوَاتِ.

والإيجاز في قوله تعالى: ﴿وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ﴾. بحذف حرف الجرِّ بَعْدَ تَرَعْبُونَ وَإِكْتَارِ الْمَعْنَى، أَي تَرَعْبُونَ عَنْ نِكَاحِ بَعْضِهِنَّ، وَتَرَعْبُونَ فِي نِكَاحِ الْبَعْضِ الْآخَرَ، فَإِنَّ فِعْلَ رَغِبَ يَتَعَدَّى بِحَرْفِ (عَنْ) لِلشَّيْءِ الَّذِي لَا يُحِبُّ وَيَحْرَفُ (فِي) لِلشَّيْءِ الْمَحْبُوبِ. فَإِذَا حُذِفَ حَرْفُ الْجَرِّ احْتَمَلَ الْمَعْنَى أَنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا تَنَافٍ.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَتَرَعْبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ، هَذَا اللَّفْظُ يَحْتَمِلُ الرِّغْبَةَ وَالنَّفْرَةَ فَالْمَعْنَى فِي الرِّغْبَةِ فِي أَنْ تَنْكِحُوهُمْ لِمَاهِنَ أَوْ لِحَمَاهِنَ، وَالنَّفْرَةَ وَتَرَعْبُونَ عَنْ أَنْ تَنْكِحُوهُمْ لِقُبْحِهِنَّ فَتُمْسِكُوهُنَّ رَغْبَةً فِي أَمْوَالِهِنَّ.<sup>١</sup>

وَإِضَافَةُ الْخَاصِّ إِلَى الْعَامِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَتَامَى النِّسَاءِ﴾؛ لِأَنَّ النِّسَاءَ يَنْقَسِمْنَ إِلَى يَتَامَى وَغَيْرِ يَتَامَى.

١ - البحر المحيط في التفسير (٤ / ٨٤)



سَعِيدُ بْنُ مُصْطَفَى دِيَابِ

حَيَاةُ الْقُلُوبِ تَفْسِيرُ كَلَامِ عِلْمِ الْغُيُوبِ

والتغليب في قوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ﴾، فَإِنَّ الْمُرَادَ الْمُسْتَضْعَفُونَ  
وَالْمُسْتَضْعَفَاتُ، فغلبت صيغة التذكير.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٢٨) وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا (١٢٩) وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾. سُورَةُ النِّسَاءِ: الآيَةُ / ١٢٨ - ١٣٠

### مُنَاسِبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا عَنْ جَمَلَةٍ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي تَخْتَصُّ بِالنِّسَاءِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ يُفْتِيهِمْ بِهَا فِي شَأْنِ النِّسَاءِ، وَقَدْ ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا ثَلَاثَ حَالَاتٍ لِلزَّوْجَيْنِ الْأُولَى: حَالَةُ نُشُورِ الزَّوْجِ عَلَى امْرَأَتِهِ وَتُفُورِهِ مِنْهَا، وَالثَّانِيَةُ: حَالَةُ اتِّفَاقِهِ مَعَهَا، وَالثَّلَاثَةُ: حَالَةُ فِرَاقِهِ لَهَا.

### سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ:

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، قَالَتْ: "نَزَلَتْ فِي الْمَرْأَةِ تَكُونُ عِنْدَ الرَّجُلِ، فَلَعَلَّهُ أَنْ لَا يَسْتَكْتِرَ مِنْهَا، وَتَكُونُ لَهَا صُحْبَةً وَوَلَدًا، فَتَكْرَهُ أَنْ يُفَارِقَهَا، فَتَقُولُ لَهُ: أَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ شَأْنِي" ١.

وَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ لَهُ: يَا ابْنَ أُخْتِي «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يُفْضَلُ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فِي مَكْنِهِ عِنْدَنَا، وَكَانَ قَلَّ يَوْمٌ إِلَّا وَهُوَ يَطُوفُ عَلَيْنَا، فَيَدْنُو مِنْ كُلِّ امْرَأَةٍ مِنْ غَيْرِ مَسِيْسٍ، حَتَّى يَبْلُغَ إِلَى مَنْ هُوَ يَوْمُهَا فَيَبِيْتُ عِنْدَهَا»، وَلَقَدْ قَالَتْ سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ حِينَ أُسِّنَتْ وَفَرِقَتْ، أَنْ يُفَارِقَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَوْمِي هُوَ لِعَائِشَةَ. فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

١ - رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ - كِتَابُ الْمَطَالِمِ وَالْغَضَبِ، بَابُ إِذَا حَلَلَهُ مِنْ ظُلْمِهِ فَلَا مُجُوعَ فِيهِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٢٤٥٠، وَمُسْلِمٌ -

كِتَابُ الْإِيمَانِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٣٠٢١



قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا وَفِي أَشْبَاهِهَا: ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا﴾<sup>١</sup>.

وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: "حَشِيَّتْ سَوْدَةُ أَنْ يُطَلِّقَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: لَا تُطَلِّقْنِي وَأَمْسِكْنِي، وَاجْعَلْ يَوْمِي لِعَائِشَةَ، فَفَعَلَ فَنَزَلَتْ"<sup>٢</sup>.

الْحَالَةُ الْأُولَى: إِذَا خَافَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ زَوْجِهَا نُشُورًا، وَهُوَ التَّعَالِي وَإِظْهَارُ الْحُشُونَةِ فِي الْقَوْلِ أَوْ الْفِعْلِ أَوْ فِيهِمَا، وَالْمَرَادُ بِهِ هُنَا دَوَامُ النُّشُورِ، ﴿أَوْ إِعْرَاضًا﴾ وَهُوَ النُّفُورُ التَّبَاعُدُ، بَلَا يُكَلِّمَهَا وَلَا يَأْتِسِرُ بِهَا، وَيَكُونُ الْخَوْفُ بظُهُورِ أَمَارَاتٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ؛ كَأَنْ يَقُولَ لَهَا أَنْتِ دَمِيمَةٌ أَوْ كَبْرُ سِنِّكَ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ شَابَّةً حَمِيلَةً، فَيَجُوزُ لَهَا أَنْ تَتَنَازَلَ عَنْ بَعْضِ حَقُوقِهَا، أَوْ تَتَنَازَلَ عَنْهَا جَمِيعًا، كَالْمَلِيَّتِ عِنْدَهَا، فَيَكُونُ لَهَا يَوْمًا وَلَهْدِهِ يَوْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةً، فِي سَبِيلِ دَوَامِ الزَّوْجِيَّةِ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا﴾، فَالْصُّلْحُ اتِّفَاقُهُمَا عَلَى التَّنَازُلِ، وَنَفِي الْجُنَاحِ مَعْنَاهُ الْإِبَاحَةُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَمَا اصْطَلَحَا عَلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ جَائِزٌ. ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

أَيُّ: وَالصُّلْحُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ تَنَازُلِ الْمَرْأَةِ عَنْ بَعْضِ حُقُوقِهَا خَيْرٌ مِنَ الْفِرَاقِ؛ رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ؛ أَنَّهُ تَزَوَّجَ بِنْتَ مُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيَّةِ، فَكَانَتْ عِنْدَهُ حَتَّى كَبُرَتْ، فَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا فَتَاةً شَابَّةً، فَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا، فَنَاشَدَتْهُ الطَّلَاقَ، فَطَلَّقَهَا وَاحِدَةً، ثُمَّ أَمْهَلَهَا، حَتَّى إِذَا كَادَتْ تَحِلُّ رَاجِعَهَا. ثُمَّ عَادَ فَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا، فَنَاشَدَتْهُ الطَّلَاقَ، فَطَلَّقَهَا وَاحِدَةً، ثُمَّ رَاجِعَهَا. ثُمَّ عَادَ فَآثَرَ الشَّابَّةَ عَلَيْهَا، فَنَاشَدَتْهُ الطَّلَاقَ، فَقَالَ: مَا شِئْتِ، إِنَّمَا بَقِيَّتْ وَاحِدَةً، فَإِنْ شِئْتِ اسْتَفْرَرْتِ، عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنَ الْأُتْرَةِ. وَإِنْ شِئْتِ فَارْقُتْكِ.

١ - رواه أحمد - حديث رقم: ٢٤٧٦٥، أبو داود - كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، حديث رقم: ٢١٣٥، والحاكم في المستدرک - كتاب النكاح، حديث رقم: ٢٧٦٠، والبيهقي في السنن الصغرى - كتاب النكاح، باب المرأة تنزك بعض حقها لتصلح الحال بينها وبين زوجها فلا يطلقها، حديث رقم: ٢٦٠٣

٢ - رواه الترمذي - أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب: ومن سورة النساء، حديث رقم:

٣٠٤٠، بسند صحيح



قَالَتْ: بَلْ أَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَثَرِ، فَأَمْسَكَهَا عَلَى ذَلِكَ. وَلَمْ يَرِ رَافِعٌ عَلَيْهِ إِثْمًا حِينَ قَرَّتْ عِنْدَهُ عَلَى الْأَثَرِ.<sup>١</sup>

﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾.

أي: وَأُحْضِرَتِ نَفْسُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الزَّوْجَيْنِ الشُّحَّ بِحَقِّهِ بِحُكْمِ خَلْقَتِهِ وَجِبَلَّتِهِ حَتَّى يَحْمِلَ صَاحِبُهُ عَلَى بَعْضِ مَا يَكْرَهُ، فَالْمَرْأَةُ تَشْحُ بِنَصِيبِهَا مِنْ زَوْجِهَا فَلَا تَرِيدُ أَنْ تَتْرِكَ مِنْهُ شَيْئًا، وَالزَّوْجُ يَشْحُ بِنَصِيبِهِ مِنَ الشَّابَّةِ الَّتِي يَتَزَوَّجُهَا فَلَا يَرِيدُ أَنْ يَتْرِكَ مِنْهُ شَيْئًا.

وإنما ذكر الله تعالى الشُّحَّ هنا لأنه وصفٌ لازمٌ للإنسان، وطبعٌ جليلٌ عليه، ولأنَّ الشُّحَّ أبلغٌ في المنعِ وأعمُّ من البخل؛ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ: الشُّحُّ أبلغٌ في المنعِ من البخل، وإنَّما الشُّحُّ بمنزلةِ الجنس، والبخلُ بمنزلةِ النوع.

﴿وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

هذا خطابٌ للرجال؛ أي: وَإِنْ تُحْسِنُوا أَيُّهَا الرِّجَالُ إِلَى نِسَائِكُمْ إِذَا كَرِهْتُمْ مِنْهُنَّ دَمَامَةً أَوْ حُلُقًا، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، فَصَبِرْتُمْ عَلَيْهِنَّ، وَأَدَيْتُمْ إِلَيْهِنَّ حُقُوقَهُنَّ كَامِلَةً، وَاتَّقَيْتُمْ اللَّهَ فِيهِنَّ بَعْدَ الْجُورِ عَلَيْهِنَّ فِيمَا يَجِبُ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ مِنَ الْقِسْمَةِ لَهُ وَالْعِشْرَةِ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ إِحْسَانِكُمْ إِلَيْهِنَّ، بَلْ هُوَ بِهِ عَالِمٌ، وَسَيُجَازِي الْمُحْسِنَ مِنْكُمْ بِإِحْسَانِهِ.

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾.

لما أباح الله تعالى للرجال تعدُّدَ الزوجاتِ كما قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾. [النِّسَاءِ: ٣]، أمرهم في أول السورة بالاعتصار على واحدة إذا خافوا الظلم في النفقة والسكنى؛ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾. [النِّسَاءِ: ٣]، أي: الاعتصار على واحدة والحال كذلك أقرب لكم ألاَّ تجُورُوا، فكان ذلك الحكمُ في أمورٍ خاصةٍ ماديةٍ كما ذكرنا.

١ - رواه مالك - جامع النكاح، حديث رقم: ٢٠١٧



ثم بيّن هنا حكماً آخر فقال: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، والمراد بالعدل هنا الحُبُّ وَالْجَمَاعُ؛ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، يَعْنِي: فِي الْحُبِّ وَالْجَمَاعِ.<sup>١</sup>

وكذا قَالَ عبيدة السَّلْمَانِي، وَمُجَاهِدٌ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَعَيْرُهُمْ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَعْدِلَ بِالشَّهْوَةِ فِيمَا بَيْنَهُنَّ وَلَوْ حَرَصْتَ.<sup>٢</sup>

وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ مَا ثَبَتَ عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْسِمُ فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي، فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تُلْمَنِي، فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ».<sup>٣</sup>

قَالَ الْعُلَمَاءُ: يَعْنِي مِيلَ الْقَلْبِ.

وميلُ الْقَلْبِ نَحْوُ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّسَاءِ لَا يَمْلِكُهُ أَحَدٌ؛ فَإِذَا أَحَبَّ وَاحِدَةً مِنَ نِسَائِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْبَاقِيَاتِ، فَلَا لَوْمَ عَلَيْهِ فَضْلاً عَنِ الْإِثْمِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَمَّا قَلْبِي فَلَا أَمْلِكُ، وَأَمَّا سِوَى ذَلِكَ فَأَرْجُو أَنْ أَعْدِلَ».<sup>٤</sup>

﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

هذه الحالة الثانية وفيها إرشادٌ من الله تعالى للرجال لتدوم العشرة بينهم وبين أزواجهم، بمقاربة الاعتدال في معاشرته الأزواج، فإذا أحبَّ واحدةً فلا يجرم الأخرى من ملاطفتها، والإحسان إليها، والقرب منها، وألا يظهر منه الجفاء والبعد، حتى تكون كالمُعَلَّقَةِ، فلا هي متزوجة تهنأ بزوجها، ولا هي مطلقة فتستريح من هم الجفاء.

١ - تفسير الطبري (٧/ ٥٦٩)

٢ - تفسير الطبري (٧/ ٥٦٩)

٣ - رواه أبو داود- كتاب النِّكَاحِ، بَابُ فِي الْقَسَمِ بَيْنَ النِّسَاءِ، حديث رقم: ٢١٣٤، والحاكم- كتاب النِّكَاحِ، حديث رقم: ٢٧٦١، والدارمي- وَمِنْ كِتَابِ النِّكَاحِ، بَابُ فِي الْقِسْمَةِ بَيْنَ النِّسَاءِ، حديث رقم: ٢٢٥٣، والبيهقي في السنن الصغرى- كتاب النِّكَاحِ، بَابُ، حديث رقم: ٢٦٠٨، بسند صحيح

٤ - تفسير الطبري (٧/ ٥٦٩)



قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمُجَاهِدٌ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَغَيْرُهُمْ: مَعْنَاهُ لَا ذَاتَ زَوْجٍ وَلَا مُطَلَّغَةً.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

أي: وَإِنْ تُصْلِحُوا أُمُورَكُمْ بِمُقَابَرَةِ الْعَدْلِ فِي مِيلِ الْقَلْبِ وَالشَّهْوَةِ، وَتَتَّقُوا اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكُمْ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ تَقْصِيرَكُمْ، وَيَرْحَمُ ضَعْفَكُمْ.

﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلاًَّ مِنْ سَعْتِهِ﴾.

هَذِهِ هِيَ الْحَالَةُ الثَّلَاثَةُ، وَهِيَ حَالَةُ الْفِرَاقِ، فَإِذَا لَمْ تَصْبِرِ الزَّوْجَةُ عَلَى جَفَاءِ زَوْجِهَا وَإِعْرَاضِهِ عَنْهَا، فَآثَرَتِ الْفِرَاقَ وَالْحَالَ هَكَذَا فَلَا إِثْمَ عَلَيْهَا، وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ كَذَلِكَ، فَإِنْ تَفَرَّقَا فَإِنَّ اللَّهَ سَيُعَوِّضُهُ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْهَا، وَسَيُعَوِّضُهَا بِمَنْ هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنْهُ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾.

أي: وَاللَّهُ وَاسِعٌ الْفَضْلِ كَثِيرُ الْخَيْرِ، حَكِيمٌ فِي تَشْرِيْعِهِ وَأَحْكَامِهِ.

### الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: التَّرْقِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾، فَإِنَّ الْإِعْرَاضَ أَشَدُّ عَلَى الْمَرْأَةِ مِنَ النُّشُورِ.

وَالْإِعْرَاضُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وَالْإِعْرَاضُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾، شَبَهَ مَلَازِمَةَ الشُّحِّ لِلْأَنْفُسِ بِالْإِحْضَارِ لِقُوَّةِ الْإِتِّصَافِ بِهَا.

وَالتَّشْبِيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾.

وَالجِنَاسُ الْمَغَايِرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿صُلْحًا وَالصُّلْحُ﴾، وَفِي: ﴿تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾.

وَالكِنَايَةُ عَنِ الْجِزَاءِ وَالْمَثُوبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾. سورة البسَاء: الآية/ ١٣١ - ١٣٣

### مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسِبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا وَعَدَ أَنْ يُعْزِي كُفْلًا مِنَ الزَّوْجِينَ مِنْ سَعْتِهِ إِنْ تَفَرَّقَا، ذَكَرَ تَعَالَى هُنَا مَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ غِنَاهُ وَسَعْتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ فَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وَاسِعَ الْجُودِ وَالْفَضْلِ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

أَي: لِلَّهِ وَحْدَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، مُلْكًا وَخَلْقًا، فَلَا خَالِقَ سِوَاهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. [الزمر: ٦٢]، وَهُوَ الْمُتَصَرِّفُ فِي الْكَوْنِ، فَكُلُّ مَا فِيهِ تَحْتَ سُلْطَانِهِ وَتَدْبِيرِهِ.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾.

الْوَصِيَّةُ: هِيَ التَّقَدُّمُ إِلَى الْغَيْرِ بِمَا يَعْمَلُ بِهِ مَقْتَرًا بوعظ. وَيُقَالُ: أَوْصَاهُ وَوَصَّاهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ﴾. [البقرة: ١٣٢]، وَقَرَأَ نَافِعُ وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿وَأَوْصَى﴾.

أَي: وَصَّيْنَاكُمْ بِمَا وَصَّيْنَا السَّابِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى - بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى، وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ وَتَحْكِيمِ شَرِيعَتِهِ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِهِ.

وَقِيلَ: وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَّمِ، وَالْكِتَابُ عَامٌ لِلْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ، فَالْتَقْوَى هِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى لِلأُولَى وَالآخِرِينَ، وَأَنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، تَفْسِيرِيَّةٌ لِبَيَانِ وَصِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى؛ أَي: وَصَّيْنَاكُمْ بِأَنْ اتَّقُوا اللَّهَ.



﴿وَأِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

ثم بيّن تعالى أنه إنما وصاهم بذلك رحمة بهم لا لحاجته لعبادتهم، فهو غني عن خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾<sup>١</sup>.  
﴿وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

أي: والله غني عن عباده بدياته، ومحمود لذاته وكمال صفاته، على جميع أفعاله، لا يتضرر بكفر كافر، كما لا ينتفع بطاعة طائع.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

تكررت جملة: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، ثلاث مرات متتاليات؛ ففي الموضع الأول بيان كمال سعته وعظيم فضله، وفي الموضع الثاني لبيان كمال غناه عن خلقه، وفي الموضع الثالث لبيان عظيم حفظه للعباد، وإعادة هذه الجملة بلفظها يلقي في القلب الهيبة من الله تعالى، وهذا أولى من القول بأن التكرار مجرد التأكيد، فإن التأسيس أولى من التأكيد.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

قال قتادة: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾: حفيظاً؛ أي: وكفى بالله حفيظاً لمن اتقاه.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾.

أي: إن يشأ الله تعالى يهلككم ويأت آخريين غيركم لنصرة دينه، ومؤازرة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، والله لا يعجزه إهلاككم.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: التخصيص بتقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، في الموضعين.

والطباق بين: (السَّمَاوَاتِ) و (الْأَرْضِ).

١ - سورة إبراهيم: الآية/ ٨



وحذفُ الجارِّ على اعتبارِ أنَّ أن مصدريةٌ في قوله تعالى: ﴿أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾، وتقدير الكلام: (بأن اتَّقُوا اللَّهَ).

والتكرار في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾؛ لغرس الهيبة في النفوس من الله تعالى.

والعموم الذي يرادُ به الخصوص في قوله تعالى: ﴿أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، على القول بأنَّ المراد بهم اليهود والنصارى.

والتغليب في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾، غلب المخاطبين على الغائبين.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٣٤

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، بَيْنَ هُنَا خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي يَدَيْهِ يُعْطِي مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمَا، فَمَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الدُّنْيَا يَعْنِي: عَرَضَ الدُّنْيَا، بِإِظْهَارِ الْإِيمَانِ بِلِسَانِهِ فَقَطْ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، وَمَنْ أَرَادَ ثَوَابَ الْآخِرَةِ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾<sup>١</sup>.

ثُمَّ أَرشَدَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى مَا هُوَ أَسْمَى مِنَ الْأَجْرِ الدُّنْيَوِيِّ وَهُوَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ، مَعَ حَصُولِ الْأَجْرِ الدُّنْيَوِيِّ، فَقَالَ: ﴿فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، أَي: فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا الَّذِي يَسْتَعْجَلُ الْعِبَادُ تَحْصِيلَهُ، وَثَوَابُ الْآخِرَةِ الَّذِي هُوَ أَسْمَى وَأَبْقَى مِنْهُ، وَهُوَ إِرْشَادٌ لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ الْآخِرَةَ، وَلَا هَمَّ لَهُمْ إِلَّا الدُّنْيَا.

وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ الْأَخْذِ بِأَسْبَابِ تَحْصِيلِ الْمَنَافِعِ الدُّنْيَوِيَّةِ، لَمَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ أَكْبَرَ هَمِّهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ قَارُونَ أَنَّهُ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

أَي: وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا لِمَا يَقُولُهُ الْعِبَادُ جَمِيعًا الَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ إِلَّا عَرَضَ الدُّنْيَا بِأَعْمَالِهِمْ، وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ الْآخِرَةَ، وَكَانَ اللَّهُ ذَا بَصَرٍ بِهِمْ جَمِيعًا وَمَا يَضْمُرُونَهُ مِنْ كُفْرٍ وَإِيمَانٍ، وَفِيهِ وَعْدٌ لِلْمُطِيعِينَ وَوَعِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ.

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ١٤٥

٢ - سُورَةُ الْقَصَصِ: الْآيَةُ / ٧٧



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلُوتُوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٣٥

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِسْطِ فِي مَعَامَلَةِ الْيَتَامَى حَالِ النِّكَاحِ، وَحَالِ دَفْعِ الْأَمْوَالِ، أَمَرَ هُنَا أَمْرًا عَامًّا بِالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ، وَأَنَّ تَكُونَ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ دُونَ سِوَاهِ، وَالْحِرْصَ عَلَى الْإِتْيَانِ بِهَا وَلَوْ عَلَى النَّفْسِ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ، وَ﴿قَوَّامِينَ﴾، صِبْغَةٌ مَبَالِغَةٌ مِنَ الْقِيَامِ، وَمَنْ لَوَازِمُهَا عَدَمُ الْإِحْلَالِ بِهَذَا الْقِيَامِ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ. ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِالشَّهَادَةِ عَلَى الْعَيْرِ، لِوَجْهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لِاتِّخْرِيفِ فِيهَا، وَلَا تَبْدِيلِ، فَضْلًا عَنِ الْكَيْتْمَانِ.

وَلَوْ كَانَتْ الشَّهَادَةُ الَّتِي يَقْرُونَ بِهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَكَانَتْ مَضْرُتًا عَلَيْهِمْ، أَوْ عَلَى الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ، لَا يَصْرِفُهُمْ عَنِ الْعَدْلِ صَارِفٌ، وَلَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَإِنَّ تَرْتِبَ عَلَى الشَّهَادَةِ ضَرَّرَ عَلَيْهِمْ.

﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾.

أَي: لَا يَحْمِلُكُمْ غَنَى الْعَيْ عَلَى مَحَابَاتِهِ، بِتَرْكِ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِ، وَلَا يَحْمِلُكُمْ فَقْرُ الْفَقِيرِ عَلَى عَدَمِ إِقَامَةِ الشَّهَادَةِ شَفَقَةً عَلَيْهِ، وَالْمَعْنَى: إِنْ كَانَ الْمَشْهُودُ عَلَيْهِ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْلَىٰ بِهِمَا، وَأَعْلَمُ بِمَا فِيهِ صَلَاحُهُمَا مِنْكُمْ.



﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾.

أي: اتركوا متابعة الهوى لأجل أن تعدلوا، فاتباع الهوى يحمل على الشهادة بغير الحق، وعلى الجور في الحكم.

﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: وإن تلووا ألسنتكم عن شهادة الحق، من اللب وهو التحريف والتبديل، أو تعرضوا عنها كتماناً لها، فإن الله لا يخفى عليه حالكم.

قال مجاهد: هي في الشهود يلوي الشهادة بلسانه فيحرفها ولا يقول الحق فيها، أو يعرض عن أداء الحق فيها.

وليس المقصود مجرد الإخبار بعلم الله بحالهم، وإنما هو تهديد ووعد، لمن بدل أحكام الله تعالى، واستمر الظلم، وكنتم شهادة الحق.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَالًّا بَعِيدًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الآيَةُ / ١٣٦

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِيَامِ بِالْقِسْطِ، وَالشَّهَادَةِ لِلَّهِ، بَيَّنَّ أَنَّهُ لَا يَتَّصِفُ بِذَلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ رَاسِحَ الْقَدَمِ فِي الْإِيمَانِ، مَعْتَقِدًا لِجَمِيعِ أَرْكَانِهِ.

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِالثَّبَاتِ عَلَى الدِّينِ، وَالِاسْتِرَادَةِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالتَّزَامِ بِجَمِيعِ أَرْكَانِهِ، وَمَعْرِفَةِ مَعَالِمِهِ، وَالتَّعَبُّدِ لِلَّهِ تَعَالَى بِجَمِيعِ شُعْبَتِهِ، ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ تَحْصِيلِ الْحَاصِلِ، وَلَا شَكَّ أَنََّّهُ مُحَالٌ، فَإِنَّهُ كَلَامُ رَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٢]، بَلْ مِنْ بَابِ تَكْمِيلِ الْكَامِلِ وَتَقْرِيرِهِ وَتَثْبِيْتِهِ وَالِاسْتِمْرَارِ عَلَيْهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾<sup>١</sup>. وَكَمَا عَلَّمَنَا اللَّهُ تَعَالَى أَنْ نَقُولَ فِي كُلِّ صَلَاةٍ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٦] أَيْ: ثَبِّتْنَا عَلَيْهِ، وَزِدْنَا هُدًى.

الْخِطَابُ هُنَا لِلْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً، وَلَيْسَ لِمَنْ آمَنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا وَرَدَ عَنْ بَعْضِ الْمَفْسِّرِينَ؛ لِأَنَّ إِطْلَاقَ وَصْفِ الَّذِينَ آمَنُوا صَارَ كَاللَّقْبِ لِلْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ الْخِطَابُ لِلْمُنَافِقِينَ أَوْ الْمُشْرِكِينَ أَيْضًا كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُوصَفُونَ بِالْإِيمَانِ.

وَالْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اثْبَتُوا عَلَى إِيْمَانِكُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ﴾.

أَيْ: وَآمِنُوا بِالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ هُوَ الْقُرْآنُ، وَقَوْلُهُ: ﴿نَزَّلَ﴾. عَلَى وَزْنِ (فَعَّلَ) الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْمَبَالِغَةِ إِشَارَةً إِلَى الصِّفَةِ الَّتِي نَزَلَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ، عَلَى مِدَارِ ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً وَاللَّامُ فِيهِ لِلْعَهْدِ.

١ - سُورَةُ الْحَدِيدِ: الْآيَةُ / ٢٨



﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾.

أي: وآمنوا بالكتاب الذي أنزل من قبل واللام هنا للجنس، والمراد كل كتاب أنزله الله قبل القرآن، التوراة والإنجيل والزبور وسائر الكتب.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

أي: ومن يكفر بشيء من ذلك فقد ضلَّ ضلالاً لا يرجى معه الهدى، وزلت قدمه عن جادة الصراط المستقيم، وأخطأ طريق الهداية؛ لأن الكفر ببعض أركان الإيمان كفر به كله.

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الجناس الناقص في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا آمَنُوا﴾. لتغير الشكل.

والتقسيم في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾.

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾، وتقدم نظائرها.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: آيَةٌ / ١٣٧

### مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا أَمَرَ بِالْإِيمَانِ وَذَكَرَ أَنَّ مَنْ كَفَرَ بِشَيْءٍ مِنْهَا فَهُوَ ضَالٌّ، بَيْنَ تَعَالَى هُنَا حَالِ الْمُتَلَاعِبِينَ بِالْإِيمَانِ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَلَا رَغْبَةَ لَهُمْ فِي الْإِيمَانِ، ثُمَّ يَكْفُرُونَ التَّمَاثُلًا مِنْهُمْ لِرُغْبَةِ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

يُجِبُّ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ثُمَّ رَجَعُوا عَنْهُ، ثُمَّ عَادُوا إِلَيْهِ ثُمَّ رَجَعُوا، ثُمَّ اسْتَمَرَّوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى أزدَادَ حَتَّى مَاتُوا، أُنْتَهَمَ لَا تَوْبَةَ لَهُمْ، وَلَا يَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَهْدِيَ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ امْتَثَلُوا أَمْرَ أَهْلِ الْكِتَابِ لَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾<sup>١</sup>.

قَالَ مُجَاهِدٌ: كُنَّا نَحْسَبُهُمُ الْمُنَافِقِينَ، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ ﴿ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا﴾. قَالَ: «تَمَّوْا عَلَى كُفْرِهِمْ حَتَّى مَاتُوا»<sup>٢</sup>.

وَقَالَ قَتَادَةُ: (هَؤُلَاءِ الْيَهُودُ آمَنُوا بِالتَّوْرَةِ، ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ذَكَرَ النَّصَارَى)، ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا﴾ يَقُولُ: (آمَنُوا بِالْإِنْجِيلِ ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ، ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)<sup>٣</sup>.

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا فِي الْمُنَافِقِينَ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَتَرَدَّدُونَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾<sup>٤</sup>.

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: آيَةٌ / ٧٢

٢ - تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٧ / ٥٩٧)

٣ - تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٧ / ٥٩٧)

٤ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: آيَةٌ / ١٤



وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مُذَبَذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾<sup>١</sup>.

﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَعْفِرْ لَهُمْ﴾.

لأنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرٌ عِنَادٍ وَاسْتِكْبَارٍ، وَإِيمَانُهُمْ بَعْدَهُ إِيمَانٌ مَخَادِعٍ مُسْتَهْزِئٍ.

﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾.

أي: وما كان الله ليهديهم إلى طرق الحق، والإيمان الله ارتضاه الله لعباده.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الطباق بين: (آمَنُوا) و (كَفَرُوا).

والتكرار في قوله تعالى: ﴿آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾. وتقدم نظيرها.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ازْدَادُوا كُفْرًا﴾. فَإِنَّ الزِّيَادَةَ لِلْأَجْسَامِ وَاسْتُعِيرَتْ لِلْمَعَانِي.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (١٣٩) وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَتَّعِدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْبِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾. سُورَةُ التَّسَاءِ: الآيَةُ/ ١٣٨ - ١٤٠

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. وَبَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ أَي: أَخْبِرْهُمْ، وَالتَّبَشِيرُ الْإِخْبَارُ بِمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ عَلَى الْبَشَرَةِ، وَالْعَرْضُ مِنْهُ التَّهْكُمُ بِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ الْبَشَارَةَ تَكُونُ بِمَا يَسُرُّ جَزَاءَ اسْتَهْزَائِهِمْ بِدِينِ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثُمَّ كَشَفَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ وَهَتَكَ سِتْرَهُمْ، وَبَيْنَ سَبَبِ اسْتِحْقَاقِهِمْ لِلْعَذَابِ الْأَلِيمِ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وَمَوَالِيَتُهُمُ الْكُفَّارُ هِيَ الْعِلَّةُ فِي كُفْرِهِمْ بَعْدَ الْإِيمَانِ، كَمَا قَدِمْنَا؛ لِأَنَّهُمْ امْتَثَلُوا أَمْرَهُمْ تَنْفِيرًا لِلنَّاسِ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَالْمَرَادُ بِالْكَافِرِينَ هُنَا أَهْلُ الْكِتَابِ.

﴿أَبِئْتَعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾.

السُّؤَالُ هُنَا لِلْإِنْكَارِ، أَي: أَيَطْلُبُونَ الْعِلَّةَ وَالْمَنْعَةَ بِمَوَالِيَتِهِمْ؟ وَهَمَّ لَا قُوَّةَ لَهُمْ وَلَا مَنْعَةَ، فَكَيْفَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَهُ، وَلَا يَتَصَفُونَ بِهِ.

وَأَصْلُ الْعِزَّةِ الصَّلَابَةُ وَالسِّدَّةُ، مِنْ قَوْلِهِمْ: أَرْضٌ عَزَازٌ. أَي: صَلْبَةٌ، وَيُقَالُ: عَزَّ عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا، أَي: اشْتَدَّ عَلَيَّ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ﴾. [ص: ٢٣] أَي: غَلَبَنِي. ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

أَي: فَإِنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، لَا يَمْلِكُهَا سِوَاهُ يُؤْتِيهَا مَنْ يَشَاءُ فَمَنْ أَرَادَ الْعِزَّةَ فَلْيَطْلُبْهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ.



﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

ولما بين الله تعالى سبب كفر المنافقين، وما ينتظرهم من العذاب لو ظلوا على كفرهم، قَالَ تَعَالَى مَحْذَرًا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَمَتَوَعِدًا الْمُنَافِقِينَ: ﴿وَقَدْ نَزَلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ.....﴾. والمراد بذلك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. [الأنعام: ٦٨]، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ يَسْتَهْزِئُونَ فِي مَجَالِسِهِمْ بِالْقُرْآنِ، فَهِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ مَجَالِسَتِهِمْ وَالْحَالِ. وَالْمَعْنَى: إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ حَالَ كَوْنِهِمْ يُكْفَرُونَ بِهَا وَيُسْتَهْزِئُونَ بِهَا، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِ الْكُفْرِ وَالِاسْتَهْزَاءِ.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾.

أي: فِي الْعَصِيَانِ، وَالْكَفْرِ، وَالضَّلَالِ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ رَضِيَ بِالْكَفْرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ رَضِيَ بِالْمُنْكَرِ إِذَا رَأَاهُ وَخَالَطَ أَهْلَهُ كَانَ فِي الْإِثْمِ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاشِرِ، وَإِنْ لَمْ يُبَاشِرْهُ؛ وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخَذَ قَوْمًا يَشْرَبُونَ الْحَمْرَ، فَقِيلَ لَهُ عَنْ أَحَدِ الْحَاضِرِينَ: إِنَّهُ صَائِمٌ، فَحَمَلَ عَلَيْهِ الْأَدَبَ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾.

فَكَمَا أَشْتَرَكُوا فِي الْكُفْرِ، يَشْتَرِكُونَ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: التَّهْكُمُ بِالْمُنَافِقِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ﴾؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّ الْبَشَارَةَ تَكُونُ بِمَا يَسُرُّ.

والطباق في: (الْكَافِرِينَ)، و (الْمُؤْمِنِينَ).



والسؤال في قوله تعالى: ﴿أَيَّبَتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، والغرض منه التقرير والتوبيخ.

والجناس المماثل في: ﴿الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ﴾.

والاعتراض في قوله تعالى: ﴿أَيَّبَتُّعُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ﴾، لتقرير ما قبلها أي: أيطلبون بموالة الكافرين القوة والغلبة؟

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾. استعير الخوض وهو الدخول في مائع، وهو أمر محسوس للتخليط في الحديث.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَمْ نَكُنُ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَمْ نَسْتَحْوِذُ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٤١

لما ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُتَنَافِقِينَ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ، وَكشَفَ عَن مَكْنُونِ صُدُورِهِمْ، بِقَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، [النِّسَاءِ: ١٣٩]، بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى هُنَا صِفَةً أُخْرَى مِنْ صِفَاتِهِمُ الْمَرْذُولَةِ، هُنَاكَ لِسْتَرِهِمْ، وَتَحْذِيرًا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾. وَالتَّرَبُّصُ: عِبَارَةٌ عَنِ التُّكَيْثِ وَالِانْتِظَارِ، أَيُّ: الَّذِينَ يَنْتَظِرُونَ بِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الدَّوَائِرَ.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى صُورَةَ مِنْ صُورِ مَخَادَعَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَمْ نَكُنُ مَعَكُمْ﴾، أَيُّ: إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الْعَلْبَةُ وَالظُّهُورُ عَلَى أَعْدَائِكُمْ قَالُوا لِلْمُؤْمِنِينَ أَمْ نَكُنُ مَعَكُمْ، أَيُّ فَأَعْطُونَا مِنَ الْغَنِيمَةِ.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَمْ نَسْتَحْوِذُ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وَإِنْ كَانَتْ الْعَلْبَةُ وَالظُّهُورُ لِلْكَافِرِينَ، قَالُوا لَهُمْ ﴿أَمْ نَسْتَحْوِذُ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أَيُّ: أَمْ نَحْطُكُمْ، وَأَصْلُ الْاسْتِحْوَاذِ الْحَوْطُ، قَالَ الْخَلِيلُ: حَاذٌ يَحْوِذُ حَوْذًا، أَيُّ حَاطٌ يَحْوِطُ حَوْطًا.

﴿وَمَنْعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أَيُّ: أَمْ تَمْنَعُ الْمُسْلِمِينَ عَنْكُمْ لِئَلَّا يَصِلُوا إِلَيْكُمْ بِتَحْذِيلِنَا إِيَّاهُمْ وَصَدَّهِمْ عَنْكُمْ؟

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

أَيُّ: فَاللَّهُ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُتَنَافِقِينَ، وَفِي الْكَلَامِ تَسْلِيَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَوَعِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ اغْتَرَوْا بِإِمْهَالِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ.



﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾.

روى ابن جرير عن يُسَيْعِ الْحَضْرَمِيِّ، قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَرَأَيْتَ قَوْلَ اللَّهِ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا. وَهُمْ يُفَاتِلُونَنَا فَيُظْهِرُونَ وَيَقْتُلُونَ؟ قَالَ لَهُ عَلِيُّ: اذْنُهُ. ثُمَّ قَالَ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا. يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. قَالَ: ذَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقِيلَ: هَذَا وَعْدُ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ مَنْ يَسْتَبِيحُ بَيضَتَهُمْ، وَيَسْتَأْصِلُ شَأْفَتَهُمْ؛ كَمَا ثَبَتَ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا فَضَيْتُ فِضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقَطَارَهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا".<sup>١</sup>

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الاستعارة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَتَحَّ مِنْ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿سَبِيلًا﴾. والطباق في: (لِلْكَافِرِينَ)، و (الْمُؤْمِنِينَ).

والاعتراض في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، لتقرير أن الفتح والنصر من الله تعالى، لا بعدد ولا عدد.

١ - رواه مسلم - كتاب الفتن وأشرط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، حديث رقم: ٢٨٨٩



قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾. سورة النساء: الآية/ ١٤٢، ١٤٣

يخبرُ اللهُ تَعَالَى عَنْ سَفَاهَةِ عَقُولِ الْمُنَافِقِينَ، وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَأَنَّهُمْ عَامَلُوا اللَّهَ تَعَالَى مَعَامِلَةَ الصَّبِيَّانِ، فَأَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَأَبْطَنُوا الْكُفْرَ كَمَا يَفْعَلُ الْمَخَادِعُ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخَادِعُ، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى، وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى مُخَادَعَةِ الْمُنَافِقِينَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾<sup>١</sup>.

فَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ظَنُّوا لَجْهَهُمْ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنَّ أَمْرَهُمْ يَرْجِعُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا رَجَعَ عِنْدَ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَذِبًا وَخَدَاعًا أَنَّهُمْ عَاشُوا فِي الدُّنْيَا مُؤْمِنِينَ، وَمَاتُوا عَلَى الْإِيمَانِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾<sup>٢</sup>.

﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾.

سَمَّى اللهُ تَعَالَى عِقَابَهُ لَهُمْ خَدَاعًا بِطَرِيقِ الْمَشَاكِلَةِ، وَالْمَعْنَى: وَاللَّهُ تَعَالَى يَخْدَعُهُمْ فَيَسْتَنْدِرِجُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالنِّعَمِ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ، وَيَخْدَعُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْلُبُهُمُ النَّوْرَ بَعْدَ فَرَحِهِمْ بِهِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾<sup>٣</sup>.

قَالَ الْحَسَنُ: فَتِلْكَ خَدِيعَةُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: «يُعْطِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا يَمْشُونَ بِهِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا كَانُوا مَعَهُمْ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ يَسْلُبُهُمْ ذَلِكَ النَّوْرَ فَيُطْفِئُهُ، فَيَقُومُونَ فِي ظِلْمَتِهِمْ وَيُضْرَبُ بَيْنَهُمْ بِالسُّورِ».

١ - سُورَةُ الْبَقَرَةِ: الْآيَةُ/ ٩

٢ - سُورَةُ الْمُجَادَلَةِ: الْآيَةُ/ ١٨

٣ - سُورَةُ الْحَدِيدِ: الْآيَةُ/ ١٣



﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾.

ثم ذكر الله تعالى من صفاتهم أنهم لا تنشرح صدورهم بالطاعات، ولا تنشط لها جوارحهم، لأنهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، إنما يؤدون الفرائض الظاهرة، ليراهم المؤمنون، فيحسبوه منهم.

قَالَ قَتَادَةُ: وَاللَّهِ لَوْلَا النَّاسُ مَا صَلَّى الْمُنَافِقُ وَلَا يُصَلِّي إِلَّا رِيَاءً وَسُمْعَةً.

﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِي صَلَاتِهِمْ إِلَّا ذِكْرًا قَلِيلًا لأنهم لَا يَذْرُونَ مَا يَقُولُونَ، وَلَا يَخْشَعُونَ فِيهَا. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا، لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا»<sup>١</sup>.

﴿مُذَبَذِبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾.

الذَّبَذَبَةُ: الإِضْطِرَابُ، وَالْمُذَبَذَبُ: الْمُتَرَدِّدُ الْمُضْطَرِبُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً

\*\*\*\*\* تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ

من صفات المنافقين كذلك حيرتهم بين الإيمان والكفر، كالشاة العائرة بين الغنمين، فلا هم مع المؤمنين ظاهرًا وباطنًا، ولا مع الكافرين ظاهرًا وباطنًا، بل طواهرهم مع المؤمنين، وبواطنهم مع الكافرين؛ عن ابن عمر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَثَلُ الْمُنَافِقِ، كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمِينَ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً»<sup>٢</sup>.

١ - رواه مسلم - كِتَابُ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ، بَابُ اسْتِحْبَابِ التَّنْبِيكِ بِالْعَصْرِ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٦٢٢

٢ - رواه مسلم - كِتَابُ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ وَأَحْكَامِهِمْ، حَدِيثُ رَقْمٍ: ٢٧٨٤



﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.

أَيُّ: مَنْ صَرَفَهُ عَنْ طَرِيقِ الْهُدَى، فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَلَا مُتَقِدًا لَهُ مِنَ الضَّلَالِ، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفُ تَقْدِيرِهِ: فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا إِلَى الْهُدَى.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: جِنَاسُ الْإِشْتِقَاقِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (يُخَادِعُونَ)، وَ (خَادِعُهُمْ).  
وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾، اسْتِعَارَ اسْمَ الْخِدَاعِ لِلْمَجَازَاةِ عَلَى الْعَمَلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَنْزَّهُ عَنِ الْخِدَاعِ.

وَالِاسْتِعَارَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾.



قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ  
يَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. سُورَةُ النَّسَاءِ: الْآيَةُ / ١٤٤

مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

مُنَاسِبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ عَلَى مُوَالَاتِهِمُ الْكَافِرِينَ، حَذَّرَ  
الْمُؤْمِنِينَ هُنَا أَنْ يَسْلُكُوا سَبِيلَهُمْ، بِمُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ فَيَنَالُهُمْ مِنَ الدَّمِ مَا نَالَ الْمُنَافِقِينَ، وَيَصِيبُهُمْ  
مَا أَصَابَهُمْ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، وَمِنْ الْمُوَالَاةِ  
الْمَوْدَّةِ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْفُونَ إِلَيْهِمْ  
بِالْمَوْدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ...﴾<sup>١</sup>.

وَمِنْهَا مُصَادَقَتُهُمْ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:  
«الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُجَالِسُ»<sup>٢</sup>.

وَمِنْهَا اسْتِشَارَتُهُمْ وَاتِّخَاذُهُمْ بَطَانَةً يَطْلَعُونَ بِهَا عَلَى أَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَحْوَالِهِمُ الْبَاطِنَةَ؛ قَالَ  
تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا  
عَيْنُكُمْ...﴾<sup>٣</sup>.

وَمِنْهَا مُنَاصِحَتُهُمْ وَنُصْرَتُهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ  
مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرَكُمُ اللَّهُ  
نَفْسَهُ...﴾<sup>١</sup>.

١ - سُورَةُ الْمُمتَحَنَةِ: الْآيَةُ / ١

٢ - رواه أحمد - حديث رقم: ٨٠٢٨، وأبو داود - كتاب الأدب، باب مَنْ يُؤْمَرُ أَنْ يُجَالِسَ، حديث رقم: ٤٨٣٣،  
والترمذي - أبواب الرُّهْدِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، حديث رقم: ٢٣٧٨، والحاكم - كتاب الْبِرِّ وَالصَّلَاةِ،  
حديث رقم: ٧٣١٩، بسند حسن

٣ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: الْآيَةُ / ١١٨



وَمِنْهَا التَّشْبِهَ بِهِمْ؛ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِيرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ سَلَكَوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكَتُمُوهُ»، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى قَالَ: «فَمَنْ».<sup>١</sup>

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَالِفُوا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي نِعَالِهِمْ، وَلَا خِيفَتِهِمْ».<sup>٢</sup>

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ.

وَالْمَعْنَى: أَتُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ حُجَّةً تَسْتَحِقُّونَ بِهَا عُقُوبَتَهُ؟

قال أبو السعود: وتوجيه الإنكار إلى الإرادة دون متعلقها، بأن يقال: أتجعلون المبالغة في إنكاره وتحويل أمره ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلاً عن صدور نفسه.<sup>٤</sup>

### الأساليب البلاغية:

من الأساليب البلاغية في الآية: الطباق في: (الكَافِرِينَ)، و (الْمُؤْمِنِينَ).

والسؤال في قوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. والغرض منه الإنكار.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥)﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ

١ - سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: آيَةُ / ٢٨

٢ - رواه البخاري- كِتَابُ الْإِعْتِصَامِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»، حديث رقم: ٧٣٢٠، ومسلم- كِتَابُ الْعِلْمِ، بَابُ اتِّبَاعِ سُنَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، حديث رقم: ٢٦٦٩

٣ - رواه أبو داود- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ الصَّلَاةِ فِي التَّغْلِ، حديث رقم: ٦٥٢، والحاكم- كِتَابُ الطَّهَّارَةِ، حديث رقم: ٩٥٦، وابن حبان- كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ فُرْضِ مُتَابَعَةِ الْإِمَامِ، ذِكْرُ الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ فِي الْحِفَافِ وَالتَّعَالِ إِذْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَا يَفْعَلُونَهُ، حديث رقم: ٢١٨٦، والبزار- حديث رقم: ٣٤٨٠، بسند صحيح

٤ - تفسير أبي السعود (٢/ ٢٤٦)



المؤمنين أجراً عظيماً (١٤٦) ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً  
عليماً. سورة النساء: الآية/ ١٤٥، ١٤٧

الدرك: جمع دركة، وهي المنزلة في الهبوط، يقال لها عند النزول: دركات، وهي ضد الدرجة التي تكون عند الصعود. وإنما كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهو أشد منازل النار عذاباً؛ لأنهم أسوأ الكفار كفراً.

يخبر الله تعالى عن حال المنافقين في النار، أن حالهم أسوأ حال، وأنهم في أسفل دركات جهنم، تغشاهم النار من تحتهم ومن فوقهم، وهم مع ذلك في توايت من النار؛ قال أبو هريرة: الدرك الأسفل بيوت لها أبواب تطبق عليهم، فتوقد من تحتهم ومن فوقهم.

وقال ابن مسعود: يجعلون في توايت من نار، فتطبق عليهم في أسفل درك من النار.  
﴿ولن تجد لهم نصيراً﴾.

أي: ولن تجد لهم نصيراً ينصروهم من الله، فينقذهم من عذابه، ويدفع عنهم أليم عقابه، ويخرجهم من أسفل دركات النار.

﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين﴾.

ثم استثنى الله تعالى من ذلك العذاب من تاب منهم، ولكن شرط لتوبتهم شروطاً أربعة:

الأول: التوبة من النفاق، والثاني: إصلاح العمل، المقابل لفساد أعمالهم الماضية، الثالث: الاعتصام بالله المقابل لمولاتهم الكفار في الماضي، الرابع: الإخلاص لدين الله المقابل للرياء الذي كانوا يتصفون به.

﴿فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾.

أي: فأولئك في زمرة المؤمنين يوم القيامة؛ لسلامة قلوبهم وصحة إيمانهم، وقال: ﴿مع المؤمنين﴾؛ ليزيل وحشتهم من جرمهم السابق؛ لأن المنافين يزايلون المؤمنين يوم القيامة، فكان ذلك تظميناً لهم.



﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ كَمَالِ غِنَاهُ، وَأَنَّهُ لَا يَنْتَفِعُ بِتَعْدِيبِ مَنْ أَطَاعَهُ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ إِلَّا مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعَذَابَ، لِكُفْرِهِ بِاللَّهِ وَتَكْذِيبِهِ لِرِسَالِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.

وَاللَّهُ تَعَالَى شَاكِرٌ لِمَنْ أَطَاعَهُ، يَرْضَى مِنْ عِبَادِهِ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ، وَيَتَجَاوَزُ عَنِ الْكَثِيرِ مِنَ الزَّلَلِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ أَحْوَاهُمْ، وَنِيَاتِهِمْ.

الْأَسَالِيبُ الْبَلَاغِيَّةُ:

مِنَ الْأَسَالِيبِ الْبَلَاغِيَّةِ فِي الْآيَةِ: الْإِشَارَةُ ب (أُولَئِكَ) مِنْ قَوْلِهِ: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، الَّتِي لِلْبَعِيدِ إِبْذَانًا بَعْدَ الْمَنْزِلَةِ وَعَلَوِ الطَّبَقَةِ.

السُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، وَالْغَرَضُ مِنْهُ الْمَبَالِغَةُ فِي النِّفْيِ.

وَالتَّرْقِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، يَعْنِي: إِنْ شَكَرْتُمْ اللَّهَ عَلَى نِعْمِهِ، ثُمَّ تَرَقَى حَالَكُمْ إِلَى مَعْرِفَةِ الْمَنْعَمِ فَأَمَنْتُمْ بِهِ.

وَجِنَاسُ الْاِشْتِقَاقِ فِي: (شَكَرْتُمْ) وَ (شَاكِرًا)، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾.



## المحتويات

| الصفحة | المحتويات  | م  |
|--------|--|----|
| ٣      | المقدمة.   | ١  |
| ٤      | ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾.                        | ٢  |
| ٩      | ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ.....﴾.                                | ٣  |
| ١٥     | ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ.....﴾.            | ٤  |
| ١٧     | ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾. | ٥  |
| ٢٠     | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً...﴾.    | ٦  |
| ٢٢     | ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.   | ٧  |
| ٢٤     | ﴿إِنْ بَحْتَبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مَدْخَلَ كَرِيمًا﴾.      | ٨  |
| ٢٧     | ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ...﴾.  | ٩  |
| ٣٢     | ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ.....﴾.                              | ١٠ |
| ٣٨     | ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا.....﴾.                     | ١١ |
| ٤٠     | ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا.....﴾.                                    | ١٢ |
| ٤٩     | ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.....﴾.          | ١٣ |
| ٥٣     | ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.  | ١٤ |
| ٥٥     | ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾.                             | ١٥ |
| ٥٨     | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾.        | ١٦ |
| ٦٧     | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ.....﴾.                             | ١٧ |
| ٦٩     | ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ.....﴾.   | ١٨ |
| ٧٢     | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ.....﴾.                       | ١٩ |



|     |  |    |
|-----|--|----|
| ٧٤  | ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.....﴾.                           | ٢٠ |
| ٧٦  | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ.....﴾.                             | ٢١ |
| ٧٩  | ﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا﴾.   | ٢٢ |
| ٨٠  | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ.....﴾.                 | ٢٣ |
| ٨٢  | ﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾.  | ٢٤ |
| ٨٥  | ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ.....﴾.       | ٢٥ |
| ٨٧  | ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا.....﴾.  | ٢٦ |
| ٩١  | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ.....﴾.                | ٢٧ |
| ٩٧  | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ.....﴾.     | ٢٨ |
| ١٠١ | ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ.....﴾.   | ٢٩ |
| ١٠٤ | ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ.....﴾.                                      | ٣٠ |
| ١٠٦ | ﴿وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْرَبُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا.....﴾. | ٣١ |
| ١٠٨ | ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ.....﴾.       | ٣٢ |
| ١١٠ | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا حُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾.                              | ٣٣ |
| ١١٣ | ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ.....﴾.                           | ٣٤ |
| ١١٥ | ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ.....﴾.                | ٣٥ |
| ١١٨ | ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ.....﴾.       | ٣٦ |
| ١٢٠ | ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ.....﴾.            | ٣٧ |
| ١٢٣ | ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ.....﴾.                                   | ٣٨ |
| ١٢٥ | ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ.....﴾.                          | ٣٩ |
| ١٢٧ | ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا.....﴾.              | ٤٠ |



|     |   |    |
|-----|---|----|
| ١٢٩ | ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.        | ٤١ |
| ١٣١ | ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ.....﴾.  | ٤٢ |
| ١٣٣ | ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ.....﴾.                              | ٤٣ |
| ١٣٥ | ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا.....﴾.  | ٤٤ |
| ١٣٨ | ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا.....﴾.   | ٤٥ |
| ١٤١ | ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ.....﴾.                       | ٤٦ |
| ١٤٢ | ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا.....﴾.                                   | ٤٧ |
| ١٤٥ | ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ.....﴾.               | ٤٨ |
| ١٤٨ | ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ.....﴾.  | ٤٩ |
| ١٤٩ | ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَفْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ.....﴾.  | ٥٠ |
| ١٥٤ | ﴿وَمَنْ يَفْتُلْ مُؤْمِنًا مَتَعِمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ.....﴾. | ٥١ |
| ١٦٠ | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا.....﴾.                                   | ٥٢ |
| ١٦٤ | ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.....﴾.     | ٥٣ |
| ١٦٨ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ.....﴾.                          | ٥٤ |
| ١٧١ | ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً.....﴾.                              | ٥٥ |
| ١٧٤ | ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ.....﴾.                      | ٥٦ |
| ١٧٧ | ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ.....﴾.                          | ٥٧ |
| ١٨٣ | ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ.....﴾.                        | ٥٨ |
| ١٨٥ | ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ.....﴾.      | ٥٩ |
| ١٨٧ | ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ.....﴾.                | ٦٠ |
| ١٩٥ | ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.              | ٦١ |



|     |   |    |
|-----|---|----|
| ١٩٨ | ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ حَاطِيَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾.                     | ٦٢ |
| ٢٠٠ | ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ.....﴾.  | ٦٣ |
| ٢٠٢ | ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ.....﴾.                  | ٦٤ |
| ٢٠٤ | ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ.....﴾.  | ٦٥ |
| ٢٠٦ | ﴿إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا.....﴾.   | ٦٦ |
| ٢١٢ | ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ.....﴾.                        | ٦٧ |
| ٢١٤ | ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ.....﴾.   | ٦٨ |
| ٢١٨ | ﴿وَمَنْ أَحْسَنَ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا.....﴾.               | ٦٩ |
| ٢٢٢ | ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُثَلَّى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ.....﴾.                     | ٧٠ |
| ٢٢٦ | ﴿وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُورًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا...﴾.                         | ٧١ |
| ٢٣١ | ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ.....﴾.                            | ٧٢ |
| ٢٣٤ | ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.....﴾.  | ٧٣ |
| ٢٣٥ | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ.....﴾.                     | ٧٤ |
| ٢٣٧ | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ.....﴾.                       | ٧٥ |
| ٢٣٩ | ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ...﴾. | ٧٦ |
| ٢٤١ | ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٣٨) الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ...﴾.                   | ٧٧ |
| ٢٤٤ | ﴿الَّذِينَ يَتَرَضَّوْنَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ...﴾.                             | ٧٨ |
| ٢٤٦ | ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا...﴾.                   | ٧٩ |
| ٢٤٩ | ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾.                                | ٨٠ |
| ٢٥١ | ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ نَصِيرًا﴾.   | ٨١ |
| ٢٥٣ | المحتويات   | ٨٢ |



هذا الكتاب منشور في

شبكة الألوكة

[www.alukah.net](http://www.alukah.net)